وزارة المعارف العمومية

كتاب كليلة ودمنة

تأليف

بيدبا الفيلسوف الهندى

ترجمه الى العربية فى صدر الدولة العباسية

عبد الله بن المقفع

ت وزارة المعارف العمومية بتاريخ ٤ ربيع الأول سنة ١٣٢٠

(١٠ يونيه سنة ١٩٠٢ نمرة ٨٩٦)

طبع هذا الكتاب على نفقتها وتدريسه بالمدارس الأميرية

الطبعة الثانية عشرة

بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

١٣٤٣هـ — ١٩٢٥م

وزارة المعـارف العمومية



كتاب كليلة ودمنة

تاليف
بيدبا الفيلسوف الهندى

ترجمه الى العربية فى صدر الدولة العباسية
عبد الله بن المقفع

قررت وزارة المعـارف العموميـة بتاريخ ٤ ربيع الأوّل سنة ١٣٢٠
(١٠ يونيه سنة ١٩٠٢ نمرة ٨٩٦)
طبع هذا الكتاب على نفقتها وتدريسه بالمدارس الأميرية

الطبعة الثانية عشرة
بالمطبعة الأميرية بالقـاهرة
١٣٤٣هـ — ١٩٢٥م

فهرس كتاب كليلة ودمنة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم . وخصّه دون المخلوقات بشرف التكريم . ووهبه عقلا يتدبّر به ما فى السموات والأرض من آيات ، ليسلك بإرشاده أوضح المحجّات ؛ ويمحو بنوره ظُلُمات الريب والإلباس ، قائلا : وتلك الأمثال نضربها للناس . والصلاة والسلام على من بَيّن معالم العِرفان ، المختصّ بجوامع الكَلِم فى غاية البيان ؛ سيّدنا محمّد المبعوث رحمة للعالمين . وعلى آله وصحبه أجمعين . (أمّا بعد) فإن أتحف العوارف ، وألطف المعارف ، علم يُتَوصّل به إلى صدق الفِراسة ، ويستنبط منه حسن السياسة . ومِن أحسن ما لاح على صفحات ذلك الوجه وَجْنه ، كتاب "كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ" ؛ من الكتب التى تُرْجِمت فى صدر الدولة العباسيّة من اللغة الأعجميّة إلى اللغة العربيّة ؛ لأنه فى ضروب السياسة أكبر آيه ، وفى جوامع الحكم والآداب مِن أبلغ غايه . حرى بأن يكتب بسواد المسك على بياض الكافور ، وحقيقٌ بأن يعلّق بخيوط النور على نحور الحور . ولذلك عكف على الاعتناء به أصناف الناس ، فترجموه من العربيّة إلى لغاتهم من سائر الأجناس . ثم اغتالت نسخه بالعربيّة أيدى الدهور والأعصار ، وطار بها من رياح الحوادث إعصار . فقيّض الله صاحب الفتوحات السنيّة ، والهمّة العلية العلويّة ؛ حامىَ ذمار المسلمين والإسلام ، مادّ سرادق العدل على كافة الأنام ؛ قاهر الطغاة والجبابره ، ومُرْغم أنوف المتمرّدة الفاجره ؛ أمير أمراء المؤمنين ، وسيف الله المسلول على أعناق المعتدين ؛ الحاجّ محمّد علىّ باشا ،

لازالت بذُباب سيفه مُهَجُ العِدَا تتلاشى ؛ ولا برحت ألويتـه بالنصر منشوره ، وعساكره فى كلّ وجهـة مظفّرة منصوره ؛ فأعمل فى خدمة الشريعة الغرّاء ، وسلوك المحجّة الواضحة البيضاء ، كلّا من حدّ السيف وسِنَان القلم ، حتّى بجّـر بمتون الصفائح والصحائف ينابيع النصر والحِكَم ؛ وتصـدّى لإحياء رميم المكُرمات الدوارس ، وانتدب لإعادة دارس العـلوم بانشاء المدارس ؛ جامعا بين دانى الشرف وقاصـيه ، حقيقا بمـا قلت فيه :

ماذا أقول وكيف القول فى ملك * قد فاق كلّ ملوك الأَعْصُر الأُوَل

محمّد أنت إن أحمـدْك مبتهـلا * وإن طلبت لك العَليا فأنت على

قد أعجز البلغاءَ اللُّسْنَ(١) مَنْقَبَة * عنها روَوْا بين صدق القول والعمل

وما تَقِرّ سـيوف فى ممـالكها * حتّى تقلقل دهرا قبلُ فى القُلَل

مثـل المليـك بغى أمرا فقرّ به * طول الرماح وأيدى الخيل والإبل

وعزمة بعثتهـا همّـةٌ زُحَـلٌ(٢) * من تحتها بمكان الترب من زحل

على الفُرات أعاصـيرٌ وفى حَلَب(٣) * توحّش لمُلَقّى النصر مقتبِـل

تتلو أسنّته الكتْب الّتى نفذت * ويجعل الخيل أبدالا من الرسل

يلق الملوك فلا يلقى سوى جُزُر(٤) * وما أعدّوا فلا يلقى سوى نَفَـل(٥)

الفاعل الفعلَ لم يُفْعل لشـدّته * والقـائل القولَ لم يُترَك ولم يُقَل

---

(١) أى الفصحاء لسن كفرح فهو لسن وألسن (٢) زحل مبتدأ وخبره بمكان والجملة صفة لهمة والمعنى همة دونها زُحَلٌ (٣) فى العراق فتن لايخمد نارها سوى جيشك الجرار وسيفك البتار وفى حلب همجية ودعارة لايثلم حدها غير مستأنف ماضى عزمك وسنان رمحك

(٤) الجُزُر جمع جَزُور وهو البعير والجَزَر جمع جَزَرَة وهى ما يذبح من الشاء

(٥) النَّفَل الغنيمة

والباعث الجيش قد غالت(١) عجاجته(٢) * ضوءَ النهار فصار الظهر كالطفَل(٣)
الجوّ أضيق ما لاقاه ساطعها * ومُقلة الشمس فيه أحيرُ المقل
ينال أبعد منها وهى ناظرة * فما تقابله إلّا على وجَل
قد عرّض السيف دون النازلات به * وظاهر الحزم بين النفس والغِيَل
ووكّل الطعن بالأسرار فانكشفت * له ضمائر أهل السهل والجبل
هو الشجاع يعدّ البخل من جُبُنٍ * وهو الجواد يعدّ الجُبْنَ من بُخُل
يعود من كلّ فتح غير مفتخِر * وقد أعدّ إليه غير محتفل
ولا يجير عليه الدهر بغيته * ولا تحصّن درع مهجةَ البطل
إذا خلعت على عِرض له حُللا * وجدتها منه فى أبهى من الحلل
بذى الغباوة من إنشادها ضرر * كما تضرّ رياح الورد بالجُعَل
لقد رأت كلّ عين منه مالئها * وجرّبت خير سيف خيرةُ الدُّوَل
فما تُكَشِّفُكَ الأعداء عن ملل * من الحروب ولا الآراء عن زلل
وكم رجال بلا أرض لكثرتهم * تركت جمعهم أرضا بلا رجل
ما زال طِرْفُك(٤) يجرى فى دمائهم * حتّى مشى بك مشىَ الشارب الثّمل
يا من يسير وحكم الناظرين له * فيما يراه وحكم القلب فى الجذَل
إنّ السعادة فيما أنت فاعله * وُفّقتَ مرتحلا أو غير مرتحل
أجْرِ الجياد على ما كنت مُجْرِيَها * وخذ بنفسك فى أخلاقك الأُوَل
ينظرن من مقل أدمى أحِجّتَها(٥) * قرع الفوارس بالعسّالة الذُّبُل
فلا هجمت بها إلّا على ظَفَر * ولا وصلت بها إلّا إلى أمل

(١) غال كاغتال أهلك والمراد الحجْب (٢) العجَاجة الغبارُ (٣) الطَّفَل بالتحريك دنوّ الشمس للغروب (٤) الطِّرف الكريم من الخيل (٥) أحِجّة جمع حِجَاج ومن معانيه عظم ينبت عليه الحاجب وهو المراد هنا

ومن جملة ما جعله للدين والدنيا زينة وعيدا ، ولأرباب الحروب والمحاريب موسما سعيدا ؛ دار الطباعة التى أنشأها ببولاق : حيث لم يكن مثلها فى سائر الأقطار والآفاق . لأنّ الكتب تطبع فيها من سائر العلوم ، بكلّ لغة وبكل رسم مع تلوّن المداد كما هو معلوم . فصادف سعده المقترن من الله بالمنة ، وجود نسخة مطبوعة بالعربىّ فى غير بلاد العرب من كتاب كليلة ودمنة . وهى التى ترجمها عبد الله بن المقفّع الكاتب المشهور ، فى أيّام أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور . وكانت ترجمتها من اللغة البهلويّة[1] إلى العربيّة ، واتّفق الناس على صحّة تلك النسخة : لشهرة مصحّحها بالألمعيّة . حيث قال فى ديباجتها : اجتمع عندى من كتاب كليلة نسخ شتّى متّفقة السياق والانتظام ، مختلفة العبارة والألفاظ . وكان من عددها نسخة قديمة العهد ، عجيبة الخط ، غير أنّه كان يوجد فيها مع جودتها بعض الغلطات . وقد ذهب منها أيضا بتصريف الشهور والأيّام ، أوراق جعلت عوضا عنها أوراق غيرها جديدة العهد ، رديئة الخطّ ، ليست على هيئة الباقى . والنسخة المذكورة هى التى اخترتها حتّى تكون هى الأصل المعتمد عليه عند طبع هذا الكتاب . غير أنّنى كلّما عثرت فيها على غلطة ، أو ما اشتبه على القارئ فهمه ؛ قابلتها بما عندى من النسخ غيرها ؛ وأثبتّ ما رأيت لفظه أفصح ، ومعناه أوضح . انتهى كلامه . ثمّ إنّ تلك النسخة المطبوعة عرضت هى وغيرها على شيخ مشايخ الإسلام ، وقدوة عمد الأنام ، مولانا الشيخ حسن العطار . أدام الله عموم فضله ما دام الليل

(١) الفارسية القديمة

والنهار . فقال : يصحّ ألّا يوجد لها فى الصحة مثال : لشهرة مصحّحها بالضبط وسعة الاطلاع على الأقوال . وحينئذ اتّفقت الآراء على أن يكون المعوّل فى طبع ذلك الكتاب عليها ، ومنتهى اختلاف النسخ ووفاقها إليها . فبادرت إشارة الأمر بصريح الامتثال ، وسرّحت فى رياض تلك النسخ سائم الطرف والبال . فوجدت المطبوعة أفصحها عبارة ، وأوضحها إشارة ، وأصحّها معنى ، وأحكمها مبنى ، غير أنّ فيها لفيظات حادت عن سنن العربيّة ، وبعض معان مالت به الركاكة عن أن يفهم بطريقة مرضيّة . فقريت أضياف المعانى بأىّ لفظ تشتهيه . وصاحب البيت أدرى بالذى فيه . خصوصا مع وجود الموادّ التى تكشف عن وجوه الصحّة نقاب الاشتباه . ومن كان ذا مَكنة فلينفق ممّا آتاه الله ، مستعينا على ذلك بما لدى من النسخ التى بخط القلم ، معوّلا على عناية من علّم الإنسان مالم يعلم . حتّى أثمرت بإشاعة ذلك الكتاب مع غاية التحرير ، حديقة تلك المطبعة المشرقة بطوالع التنوير ، على يد مصحّح مابها من الكتب العربيّة ، المستمدّ من مولاه الإعانة والمعيّة ، راجى مَنْ للفضل يؤتى ، عبد الرحمن الصفتى ، غفر الله ذنوبه ، وستر فى الدارين عيوبه ، مع سائر المسلمين . بحرمة طه ويس . عليه الصلاة والسلام . وعلى آله وصحبه الكرام

باب مقدّمة الكتاب

قدّمها بهنود بن سحوان ويعرف بعليّ بن الشاه الفارسيّ . ذكر فيها السبب الذى من أجله عمل بيدبا الفيلسوف الهندىّ رأس البراهمة[1] لدَبْشَلِيمَ ملك الهند كتابه الذى سماه كَلِيلة ودِمْنَة؛ وجعله على ألسن البهائم والطير صيانة لغرضه فيه من العوامّ، وضنًّا بما ضمنه عن الطَّغَام؛ وتنزيها للحكمة وفنونها، ومحاسنها وعيونها؛ إذ هى للفيلسوف مَنْدوحة، ولخاطره مفتوحة؛ ولمحبّيها تثقيف، ولطالبيها تشريف . وذكر السبب الّذى من أجله أنفذ كِسْرَى أنوشِرْوان بن قُبَاذَ بن فيروز ملكُ الفرس بَرْزَوَيْه رأسَ الأطباء إلى بلاد الهند لأجل كتاب كليلة ودمنة؛ وما كان من تلطّف برزويه عند دخوله إلى الهند؛ حتّى حضر إليه الرجل الذى استنسخه له سرا من خِزانة الملك ليلا، مع ماوجد من كتب علماء الهند . وقد ذكر الذى كان من بعثة برزويه إلى مملكة الهند لأجل نقل هذا الكتاب؛ وذكر فيها ما يلزم مطالعه من إتقان قراءته والقيام بدراسته والنظر إلى باطن كلامه؛ وأنه إن لم يكن كذلك لم يحصل على الغاية منه . وذكر فيها حضور برزويه وقراءة الكتاب جهرا . وقد ذكر السبب الذى من أجله وضع بُزُرْجِمِهْر بابا مفردا يسمى باب برزويه المتطبّب، وذكر فيه شأن برزويه من أوّل أمره وآن مولده إلى أن بلغ التأديب، وأحب الحكمة واعتبر[2] فى أقسامها . وجعله قبل باب الأسد والثور الذى هو أوّل الكتاب

قال علىّ بن الشاه الفارسيّ : كان السبب الّذى من أجله وضع

(١) البراهمة قوم لايجوّزون على الله بعثة الرسل (٢) اعتبر نظر

بيدبا الفيلسوف لدْبَشْلِيمَ ملك الهند كتاب كليلة ودمنة، أنّ الإسكندر ذا القرنين الرومىّ لمّا فرغ من أمر الملوك الذين كانوا بناحية المغرب، سار يريد ملوك المشرق من الفرس وغيرهم؛ فلم يزل يحارب من نازعه ويواقع من واقعه ويسالم من وادعه من ملوك الفرس، وهم الطبقة الأولى، حتى ظهر عليهم وقهر من ناوأه وتغلب على من حاربه؛ فتفرّقوا طرائق[1] وتمزّقوا حزائق[2]. فتوجه بالجنود نحو بلاد الصين؛ فبدأ فى طريقه بملك الهند ليدعوه إلى طاعته والدخول فى ملته وولايته. وكان على الهند فى ذلك الزمان ملك ذو سطوة وباس وقوّة ومراس، يقال له فُورٌ. فلمّا بلغه إقبال ذى القرنين نحوه تأهّب لمحاربته، وآستعدّ لمجاذبته، وضمّ إليه أطرافه، وجدّ فى التألّب[3] عليه؛ وجمع له العدّة فى أسرع مدّة من الفِيَلَة المعدّة للحروب، والسباع المُضَرّاة بالوثوب؛ مع الخيول المُسْرَجة والسيوف القواطع، والحِراب[4] اللوامع. فلمّا قرب ذو القرنين من فُورٍ الهندىّ وبلغه ما قد أعدّ له من الخيل التى كأنّها قطع الليل، ممّا لم يلقه بمثله أحد من الملوك الذين كانوا فى الأقاليم، تخوّف ذو القرنين من تقصير يقع به إن عجّل المبارزة. وكان ذو القرنين رجلا ذا حيل ومكايد، مع حسن تدبير وتجربة، فرأى إعمال الحيلة والتمهّل، وآحتفر خَنْدقا على عسكره؛ وأقام بمكانه لاستنباط الحيلة والتدبير لأمره؛ وكيف ينبغى له أن يُقْدِم على الايقاع به. فاستدعى بالمنجّمين، وأمرهم بالاختيار ليوم موافق تكون له فيه سعادة لمحاربة ملك الهند والنُّصرة عليه.

(١) طرائق أى فرقًا (٢) حزائق أى قِطعًا (٣) التألب التجمع (٤) جمع حربة

فاشـتغلوا بذلك . وكان ذو القرنين لا يمرّ بمدينـة إلّا أخذ الصـنّاع المشهورين من صناعها بالحذق من كلّ صـنف . فأنتجت له همّتـه ودلّته فطنته أن يتقدّم إلى الصـناع الّذين معه فى أن يصنعوا خيلا من نحـاس مجوّفة ، عليها تمـاثيل من الرجال ، على بكرٍ تجرى ، إذ دفعت مرّت سِراعا . وأمر إذا فرغوا منها أن تحشى أجوافها بالنِفْط والكِبريت ، وتُلَبَّس وتقدّم أمام الصفّ فى القلب . ووقت ما يلتقى الجمعان تضرم فيهـا النيران . فإنّ الفِيَـلة إذا لفّت خراطيمها على الفُرسـان وهى حاميـة ، ولت هاربة . وأوعز إلى الصنّاع بالتشمير والانكماش[1] والفراغ منها . فجدّوا فى ذلك وعجلوا . وقرب أيضا وقت اختيار المنجّمين . فأعاد ذو القرنين رسله إلى فُور بمـا يدعوه إليه من طاعته والاذعان لدولتـه . فأجاب جواب مصرّ على مخالفته ، مقيم على محاربته . فلمّـا رأى ذو القرنين عزيمته سار إليه بأُهْبَتِه ؛ وقدّم فُورٌ الفيلة أمامه ، ودفعت الرجال تلك الخيل وتماثيل الفرسان ؛ فأقبلت الفيلة نحوها ، ولفّت خراطيمها عليها . فلمّـا أحسّت بالحرارة ألقت من كان عليها ، وداسـتهم تحت أرجلها ، ومضت مهزومة هاربة ، لاتلوى على شيء ولا تمرّ بأحد إلّا وطئته . وتقطّع[2] فُورٌ وجمعه ؛ وتبعهم أصحاب الاسكندر ، وأثخنوا[3] فيهم الجراح . وصاح الاسكندر : ياملك الهنـد ابرز إلينا ، وأبق على عدّتك وعيالك ، ولا تحملهم على الفناء . فإنّه ليس من المروءة أن يرمى الملك بعدّته فى المهالك المُتْلفة والمواضع المجحفة ، بل يقيهم بماله ويدفع عنهم بنفسه . فابرز إلىّ ودع الجند ، فأيّنا

(١) الاسراع (٢) تفرّق (٣) أكثروا من الاثخان فى الشيء ، وهو المبالغة فيه والاكثار

قهر صاحبه فهو الأسعد . فلمّا سمع فور من ذى القرنين ذلك الكلام دعته نفسه لملاقاته طمعا فيه، وظنّ ذلك فرصة . فبرز إليه الاسكندر فتجاولا على ظهرى فرسيهما ساعات من النهار، ليس يلق أحدهما من صاحبه فرصة، ولم يزالا يتعاركان . فلمّا أعيا الاسكندر أمره ولم يجد له فرصة ولا حيلة أوقع ذوالقرنين فى عسكره صيحة عظيمة ارتجّت لها الأرض والعساكر، فالتفت فور عند ماسمع الزعقة، وظنها مكيدة فى عسكره، فعاجله ذو القرنين بضربة أمالته عن سرجه، وتبعه بأخرى، فوقع على الأرض . فلمّا رأت الهند ما نزل بهم، وما صار إليه ملكهم، حملوا على الاسكندر فقاتلوه قتالا أحبّوا معه الموت . فوعدهم من نفسه الإحسان، ومنحه الله أكتافهم، فاستولى على بلادهم، وملّك عليهم رجلا من ثقاته . وأقام بالهند حتّى استوثق (١) ممّا أراد من أمرهم واتفاق كلمتهم، ثم انصرف عن الهند وخلف ذلك الرجل عليهم . ومضى متوجّها نحو ماقصد له . فلمّا بعُد ذوالقرنين عن الهند بجيوشه، تغيّرت الهند عمّا كانوا عليه من طاعة الرجل الّذى خلفه عليهم، وقالوا ليس يصلح للسياسة ولا ترضى الخاصّة والعامّة أن يملّكوا عليهم رجلا ليس هو منهم ولا من أهل بيوتهم . فإنّه لا يزال يستذلّهم ويستقلّهم . واجتمعوا يملّكون عليهم رجلا من أولاد ملوكهم، فملّكوا عليهم ملكا يقال له دَبْشَلِيم، وخلعوا الرجل الّذى كان خلفه عليهم الاسكندر . فلمّا استوسق له الأمر، واستقرّ له الملك، طغى

(١) فى الأصل : (حتى استوسق له ماأراد) وفسر فى الحاشية (استوسق) باجتمع وأرى أن العبارة فيها تصحيف وتحريف من النساخ وأصلها ماأثبته فى المتن والمعنى ظاهر

وبغى وتجبّر وتكبّر، وجعل يغزو من حوله من الملوك . وكان مع ذلك مؤيّدا مظفّرا منصورا . فهابته الرعيّة . فلمّا رأى ماهو عليه من الملك والسطوة، عبث بالرعيّة واستصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم . وكان لا يرتق حاله إلا ازداد عُتوّا . فمكث على ذلك برهة من دهره . وكان فى زمانه رجل فيلسوف من البراهمة ، فاضل حكيم ، يُعرف بفضله، ويُرجع فى الأمور إلى قوله، يقال له بيدبا . فلمّا رأى الملك وما هو عليه من الظلم للرعيّة ، فكّر فى وجه الحيلة فى صرفه عمّا هو عليه، وردّه إلى العدل والإنصاف ؛ بجمع لذلك تلاميذه ، وقال : أتعلمون ماأريد أن أشاوركم فيه؟ إعلموا أنى أطلت الفكرة فى دَبْشَليم وما هو عليه : من الخروج عن العدل ولزوم الشرّ ورداءة السيرة وسوء العشرة مع الرعيّة ؛ ونحن ما نَرُوض أنفسنا لمثل هذه الأمور، إذا ظهرت من الملوك ، إلّا لنردّهم إلى فعل الخير ولزوم العدل . ومتى أغفلنا ذلك وأهملناه لزم وقوع المكروه بنا وبلوغ المحذورات إلينا ؛ إذ كنّا فى أنفس الجهال أجهل منهم ؛ وفى العيون عندهم أقلّ منهم . وليس الرأى عندى الجلاء عن الوطن . ولا يسعنا فى حكمتنا إبقاؤه على ماهو عليه من سوء السيرة وقبح الطريقة . ولا يمكننا مجاهدته بغير ألسنتنا . ولو ذهبنا إلى أن نستعين بغيرنا لم تتهيأ لنا معاندته . وإن أحسّ منّا بمخالفته وإنكارنا سوء سيرته كان فى ذلك بوارنا . وقد تعلمون أنّ مجاورة السبع والكلب والحيّة والثور على طيب الوطن ونضارة العيش لغدر بالنفس . وإنّ الفيلسوف لحقيق أن تكون همّته مصروفة إلى مايحصّن به نفسه من نوازل المكروه ولواحق المحذور، ويدفع المخوف

لاستجلاب المحبوب . ولقد كنت أسمع أنّ فيلسوفا كتب لتلميذه يقول : إنّ مُجَاوِر رجال السوء ومصاحبهم كراكب البحر : إن سلم من الغرق لم يسلم من المخاوف . فإذا هو أورد نفسه موارد الهَلَكات ومصادر المخوفات، عدّ من الحمير الّتى لانفس لها . لأنّ الحيوانات البهيميّة قد خصّت فى طبائعها بمعرفة ما تكتسب به النفع ولتوقّى المكروه : وذلك أنّنا لم نرها تورد أنفسها موردا فيه هَلَكتها . وأنّها متى أشرفت على مورد مهلك لها، مالت بطبائعها الّتى رُكّبت فيها — شحّا بأنفسها وصيانة لها — إلى النفور والتباعد عنه. وقد جمعتكم لهذا الأمر : لأنّكم أُسْرَتِى ومكان سرّى وموضع معرفتى ؛ وبكم أعتضد، وعليكم أعتمد . فإنّ الوحيد فى نفسه والمنفرد برأيه حيث كان فهو ضائع ولا ناصر له . على أنّ العاقل قد يبلغ بحيلته ما لا يبلغ بالخيل والجنود . والمثل فى ذلك أنّ قُنْبُرة(١) اتّخذت أُدْحِيّة(٢) وباضت فيها على طريق الفيل ؛ وكان للفيل مشرب يتردّد إليه . فمرّ ذات يوم على عادته ليرد مورده فوطئ عشّ القنبرة، وهشم بيضها وقتل فراخها . فلمّا نظرت ماساءها، علمت أنّ الّذى نالها من الفيل لامن غيره . فطارت فوقعت على رأسه باكية، ثمّ قالت : أيّها الملك لِمَ هشمت بيضى وقتلت فراخى، وأنا فى جوارك ؟ أفعلت هذا استصغارا منك لأمرى واحتقارا لشأنى؟ قال : هو الذى حملنى على ذلك . فتركته وانصرفت إلى جماعة الطير، فشكت إليها ما نالها من الفيل . فقلن لها وما عسى أن نبلغ منه

---

(١) الأفصح فيها قُبَّرة وهى طائر (٢) محلا تبيض فيه

ونحن طيور؟ فقالت للعقاعق(١) والغربان : أحبّ منكنّ أن تصرن معى إليـه فتفقأن عينيه ؛ فإنى أحتال له بعد ذلك بحيلة أخرى . فأجبنها إلى ذلك ، وذهبن إلى الفيل ، ولم يزلن ينقرن عينيه حتّى ذهبن بهما . وبقى لا يهتدى إلى طريق مطعمه ومشربه إلّا مايَلْقَمُهُ من موضعه . فلمّا علمت ذلك منه ، جاءت إلى غدير فيه ضفادع كثيرة ، فشكت إليها ما نالها من الفيل . قالت الضفادع : ما حيلتنا نحن فى عظم الفيل؟ وأين نبلغ منه ؟ قالت : أحبّ منكن أن تصرن معى إلى وهدة(٢) قريبة منه ، فتَنْقِقْنَ فيهـا، وتَضْجِجْنَ . فإنّه إذا سمع أصواتكنّ لم يشـكّ فى المـاء فيهوى فيها . فأجبنها إلى ذلك ؛ واجتمعن فى الهاوية ، فسمع الفيل نقيق الضفادع ، وقد أجهده العطش ، فأقبل حتّى وقع فى الوهدة ، فارتَطَم(٣) فيها . وجاءت القنبرة ترفرف على رأسه ؛ وقالت : أيّها الطاغى المغترّ بقوّته المحتقر لأمرى ، كيف رأيت عظم حيلتى مع صـغر جُثّتى عند عظم جثّتك وصغر همّتك ؟

فليُشر كلّ واحد منكم بمـا يسـنح له من الرأى . قالوا بأجمعهم : أيّها الفيلسوف الفاضل ، والحكيم العادل ، أنت المقدّم فينا ، والفاضل علينا ، وما عسى أن يكون مبلغ رأينا عند رأيك ، وفهمنا عند فهمك ؟ غير أنّنا نعلم أنّ السباحة فى المـاء مع التمساح تغرير؛ والذنب فيه لمن دخل عليه فى موضعه . والذى يستخرج السم من ناب الحيّة فيبتلعه ليجرّبه جانٍ على نفسه ؛ فليس الذنب للحيّة . ومن دخل على الأسد

(١) جمع عَقْعَق وهو طير أبلق بسواد وبياض (٢) أرض منخفضة (٣) وقع ولم يمكنه الخروج

فى غابته ، لم يأمَن مِن وثبته . وهذا الملك لم تُفزعه النوائب، ولم تؤدّبه التجارب . ولسنا نأمن عليك ولا على أنفسنا سطوته . وإنّا نخاف عليكِ من سورته(١) ومبادرته بسوء إذا لَقِيته بغير مايحبّ . فقال الحكيم بيدبا : لعمرى لقد قلتم فأحسنتم، لكنّ ذا الرأى الحازم لايدع أن يشاور من هو دونه أو فوقه فى المنزلة . والرأىُ الفرد لايكتفى به فى الخاصّة ولا ينتفع به فى العامّة . وقد صحّت عزيمتى على لقاء دَبْشَليم . وقد سمعت مقالتكم، وتبيّن لى نصيحتكم والإشفاق على وعليكم . غير أنّى قد رأيت رأيا وعزمت عزما ؛ وستعرفون حديثى عند الملك ومجاوبتى إيّاه، فإذا اتّصل بكم خروجى من عنده فاجتمعوا إلى . وصرفهم وهم يدعون له بالسلامة

ثمّ إنّ بيدبا آختار يوما للدخول على الملك ؛ حتّى إذا كان ذلك الوقت ألقى عليه مُسُوحه(٢) وهى لباس البراهمة؛ وقصد باب الملك، وسأل عن صاحب إذنه وأرشد إليه وسلم عليه؛ وأعلمه وقال له : إنّى رجل قصدت الملك فى نصيحة . فدخل الآذِن(٣) على الملك فى وقته؛ وقال : بالباب رجل من البراهمة يقال له بيدبا؛ ذكر أنّ معه للملك نصيحة . فأذن له؛ فدخل ووقف بين يديه وكَفّر(٤) وسجد له واستوى قائما وسكت . وفكّر دبشليم فى سكوته ؛ وقال : إنّ هذا لم يقصدنا إلّا لامرين : إمّا لالتماس شىء منا يصلح به حاله، وإمّا

(١) سطوته واعتدائه (٢) جمع مِسح وهو الكساء من الشَّعَر (٣) الحاجب
(٤) عظّم والكَفر من معانيه تعظيم الفارسى لملكه والتكفير من معانيه إيماء الذمى برأسه

لأمر لحقه فلم يكن له به طاقة . ثمّ قال : إن كان للملوك فضل في مملكتها فإنّ للحكماء فضلا فى حكمتها أعظم : لأنّ الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم؛ وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال . وقد وجدت العلم والحياء إلفين متآلفين لا يفترقان : متى فقد أحدهما لم يوجد الآخر؛ كالمتصافيين إن عدم منهما أحد لم يطب صاحبه نفسا بالبقاء بعده تأسفا عليه . ومن لم يستحي من الحكماء ويكرمهم ، ويعرف فضلهم على غيرهم ، ويصنهم عن المواقف الواهنة ، وينزّههم عن المواطن الرّذلة ، كان ممّن حرم عقله ، وخسر دنياه ، وظلم الحكماء حقوقهم ، وعدّ من الجهّال . ثمّ رفع رأسه إلى بيدبا ، وقال له : نظرت إليك يا بيدبا ساكتا لاتعرض حاجتك ، ولاتذكر بغيتك ، فقلت : إنّ الذى أسكته هيبة ساورته أو حيرة أدركته ؛ وتأمّلت عند ذلك من طول وقوفك ، وقلت : لم يكن لبيدبا أن يطرقنا على غير عادة إلّا لأمر حرّكه لذلك ؛ فإنّه من أفضل أهل زمانه . فهلّا نسأله عن سبب دخوله ؟ فإن يكن من ضيم ناله ، كنت أولى مَنْ آخذ بيده وسارع فى تشريفه ، وتقدّم فى البلوغ إلى مراده وإعزازه ؛ وإن كانت بغيته غرضا من أغراض الدنيا أمرت بإرضائه من ذلك فيما أحبّ ؛ وإن يكن من أمر الملك ، وممّا لاينبغى للملوك أن يبذلوه من أنفسهم ولا ينقادوا إليه ، نظرت فى قدر عقوبته ؛ على أنّ مثله لم يكن ليجترئ على إدخال نفسه فى باب مسألة الملوك ؛ وإن كان شيئا من أمور الرعيّة يقصد فيه أنّى أصرف عنايتى إليهم ، نظرت ماهو ؛ فإنّ الحكماء لايشيرون إلّا بالخير ، والجهال يشيرون بضدّه . وأنا قد فسحت لك فى الكلام . فلمّا سمع

بيدبا ذلك من الملك أَفْرَخَ رُوعُه[١]، وسُرِّى عنه[٢] ما كان وقع فى نفسه من خوفه، وكفّر له وسجد، ثم قام بين يديه وقال: أوّل ما أقول: أسأل الله تعالى بقاء الملك على الأبد، ودوام ملكه على الأمد: لأنّ الملك قد منحنى فى مقامى هذا محلّا جعله شرفا لى على جميع من بعدى من العلماء، وذكرا باقيا على الدهر عند الحكماء. ثمّ أقبل على الملك بوجهه، مستبشرا به فرحا بما بداله منه، وقال: قد عطف الملك علىّ بكرمه وإحسانه. والأمر الّذى دعانى إلى الدخول على الملك، وحملنى على المخاطرة لكلامه، والإقدام عليه، نصيحة آختصصته بها دون غيره. وسيعلم من يتّصل به ذلك أنّى لم أقصّر عن غاية فيما يجب للولى على الحكماء. فإن فَسَح فى كلامى ووعاه عنّى، فهو حقيق بذلك وما يراه؛ وإن هو ألقاه، فقد بلّغت ما يلزمنى وخرجت من لوم يلحقنى. قال الملك: يا بيدبا تكلّم كيف شئت: فإنّنى مصغ إليك، ومقبل عليك، وسامع منك، حتّى أستفرغ ما عندك إلى آخره، وأجازيك على ذلك بما أنت أهله. قال بيدبا: إنّى وجدت الأمور الّتى آختصّ بها الإنسان من بين سائر الحيوان أربعة أشياء، وهى جُمّاع[٣] ما فى العالم، وهى الحكمة والعفة والعقل والعدل. والعلم والأدب والروِيّة داخلة فى باب الحكمة. والحلم والصبر والوقار داخلة فى باب العقل. والحياء والكرم والصيانة والأَنَفَة داخلة فى باب العفّة. والصدق والإحسان

(١) يُقَال: أَفْرَخَ رَوعَه أى ذَهَبَ فَزَعُه وخوفه. وقال أبو الهيثم إنّما هو: أَفْرَخَ رُوعُه ومعناه خرج الرَّوْع والفَزَع من روعه وهو موضع الرَّوْع وهو القلب.

(٢) زال عنه (٣) مجتمع أصله

والمراقبة وحسن الخلق داخلة فى باب العدل . وهـذه هى المحاسن، وأضدادها هى المساوى . فمتى كملت هـذه فى واحد لم تخرجه الزيادة فى نعمة إلى سوء الحظّ من دنياه ولا إلى نقص فى عقباه، ولم يتأسف على مالم يعن التوفيق ببقائه ، ولم يحزنه ما تجرى به المقادير فى ملكه ، ولم يُدْهَش عنـد مكروه . فالحكمة كنز لا يفنى على إنفاق، وذخيرة لا يُضْرَبُ لها بالإملاق(١) ، وحُلّة لا تَخْلَقُ جِدّتُها(٢) ، ولذّة لا تُصْرَمُ مدّتها(٣) . ولئن كنت عند مقامى بين يدى الملك أمسكت عن ابتدائه بالكلام، إنّ ذلك لم يكن منّى إلّا لهيبتـه والإجلال له . ولعمرى إنّ الملوك لأهل أن يهابوا، لاسيما من هو فى المنزلة الّتى جلّ فيها الملك عن منازل الملوك قبله . وقد قالت العلمـاء : الزم السكوت : فإنّ فيه سلامة، وتجنّب الكلام الفارغ : فإنّ عاقبته النـدامة . وحكى أنّ أربعة من العلماء ضمّهم مجلس ملك، فقال لهم : ليتكلّم كلّ بكلام يكون أصـلا للأدب . فقال أحدهم : أفضل خَلّة العلم السكوت . وقال الثانى : إنّ من أنفع الأشياء للإنسان أن يعرف قدر منزلته من عقله . وقال الثالث : أنفع الأشياء للإنسان ألّا يتكلّم بمـا لا يعنيه . وقال الرابع : أروح الأمور على الإنسان التسليم للمقادير . واجتمع فى بعض الزمان ملوك الأقاليم من الصين والهند وفارس والروم، وقالوا : ينبغى أن يتكلم كلّ واحد منا بكلمة تدوّن عنه على غابر الدهر . فقال ملك الصين : أنا على مالم أقل أقدر منّى على ردّ ماقلت . وقال ملك الهند : عجبت

(١) الإملاق معناه هنـا كثرة الإنفاق ، ويضرب لهـا يسعى إليها لتُستَنْفَد ومعنى الجملة أن الحكمة ذخيرة لاتنفد على كثرة الإنفاق (٢) لاتَبْلَى (٣) لاتُقْطَعُ

لمن يتكلّم بالكلمة : فإن كانت له لم تنفعه، وإن كانت عليه أوبقته[١] .
وقال ملك فارس : أنا إذا تكلّمت بالكلمة ملكتنى، وإذا لم أتكلّم بها
ملكتها . وقال ملك الروم : ماندمت على مالم أتكلّم به قط ، ولقد
ندمت على ما تكلّمت به كثيرا . والسكوت عند الملوك أحسن من
الهَذَر الذى لا يرجع منه إلى نفع . وأفضل[٢] ما استظل به الإنسان
لسانه . غير أنّ الملك، أطال الله مدّته، لمّا فسح لى فى الكلام وأوسع
لى فيه؛ كان اولى ما أبدأ به من الأمور الّتى هى غرضى أن يكون ثمرة
ذلك له دونى؛ وأن أختصّه بالفائدة قبلى . على أنّ العقبى هى ما أقصد
فى كلامى له؛ وإنما نفعه وشرفه راجع إليه؛ وأكون أنا قد قضيت
فرضا وجب علىّ فأقول :

أيّها الملك إنّك فى منازل آبائك وأجدادك من الجبابرة الّذين أسّسوا
الملك قبلك، وشيّدوه دونك؛ وبَنَوا القلاع والحصون، ومهّدوا البلاد،
وقادوا الجيوش؛ واستجاشوا العدّة، وطالت لهم المدّة؛ واستكثروا
من السلاح والكُرَاع[٣]؛ وعاشوا الدهور، فى الغبطة والسرور؛ فلم يمنعهم
ذلك من اكتساب جميل الذكر، ولا قطعهم عن اغتنام الشكر؛ ولا
استعمال الإحسان إلى من خوّلوه، والإرفاق بمن ولوه، وحسن السيرة
فيما تقلدوه؛ مع عظم ما كانوا فيه من غِرّة الملك[٤] وسكرة الاقتدار .
وإنّك أيّها الملك السعيد جدّه، الطالع كوكب سعده، قد ورثت أرضهم
وديارهم وأموالهم ومنازلهم الّتى كانت عدّتهم؛ فأقمت فيما خوّلت من

(١) أهلكته (٢) وفى نسخة وأعضلُ ماضلّ به الانسان لسانهُ (٣) الكُرَاع اسم بجمع الخيل وقيل الخيل والسلاح (٤) غروره

الملك ، وورثت من الأموال والجنود ؛ فلم تقم فى ذلك بحقّ ما يجب عليك ؛ بل طغيت وبغيت وعتوت وعلوت على الرعيّة ، وأسأت السيرة ، وعظمت منك البليّة . وكان الأولى والأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك ، وتتبع آثار الملوك قبلك ، وتقفو محاسن ما أبقوه لك ؛ وتقلع عما عاره لازم لك ، وشينه واقع بك ؛ تحسن النظر برعيّتك ، وتسنّ لهم سنن الخير الذى يبقى بعدك ذكره ، ويعقبك الجميل فخره ؛ ويكون ذلك أبقى على السلامة وأدوم على الاستقامة . فإنّ الجاهل المغترّ من استعمل فى أموره البطر والأمنيّة ، والحازم اللبيب من ساس الملك بالمداراة والرفق ؛ فانظر أيّها الملك ما ألقيت إليك ، ولا يثقلنّ ذلك عليك : فلم أتكلّم بهذا ابتغاء غرض تجازينى به ، ولا التماس معروف تكافئنى فيه ؛ ولكنى أتيتك ناصحا مشفقا عليك .

فلمّا فرغ بيدبا من مقالته ، وقضى مناصحته ، أوغر صدر الملك فأغلظ له فى الجواب استصغارا لأمره ؛ وقال : لقد تكلّمت بكلام ما كنت أظنّ أنّ أحدا من أهل مملكتى يستقبلنى بمثله ، ولا يقدم على ما أقدمت عليه . فكيف أنت مع صغر شأنك ، وضعف منّتك[1] وعجز قوّتك . ولقد أكثرت إعجابى من إقدامك علىّ ، وتسلّطك بلسانك فيما جاوزت فيه حدّك . وما أجد شيئا فى تأديب غيرك أبلغ من التنكيل بك . فذلك عبرة وموعظة لمن عساه أن يبلغ ويروم ما رمت أنت من الملوك إذا أوسعوا لهم فى مجالسهم . ثم أمر به أن يقتل ويصلب . فلمّا مضوا به فيما أمر ، فكّر فيما أمر به فأحجم عنه ، ثم أمر بحبسه وتقييده .

(١) قوّتك

فلمّا حبس أنفذ فى طلب تلاميذه ومن كان يجتمع إليه ، فهربوا فى البلاد واعتصموا بجزائر البحار ؛ فمكث بيدبا فى محبسه أيّاما لا يسأل الملك عنه ، ولا يلتفت إليه ؛ ولا يَجسُر أحد أن يذكُره عنده ؛ حتّى إذا كان ليلة من الليالى سَهِدَ الملك سُهْدًا شديدا[1] ؛ فطال سُهدُه ، ومدّ إلى الفلك بصره ؛ وتفكّر فى تفلّك الفَلَك[2] وحركات الكواكب ، فأغرق الفكر فيه ؛ فسلك به إلى استنباط شيء عرض له من أمور الفلك ، والمسألة عنه . فذكر عند ذلك بيدبا ، وتفكّر فيما كلّمه به ؛ فارعوى[3] لذلك . وقال فى نفسه : لقد أسأت فيما صنعت بهذا الفيلسوف ، وضيّعت واجب حقّه ؛ وحملنى على ذلك سرعة الغضب . وقد قالت العلماء : أربعة لا ينبغى أن تكون فى الملوك : الغضب فإنّه أجدر الأشياء مقتا ؛ والبخل فإنّ صاحبه ليس بمعذور مع ذات يده ؛ والكذب فإنّه ليس لاحد أن يجاوره ؛ والعنف فى المحاورة فإنّ السفه ليس من شأنها . وإنّى أتى إلىّ رجل نصح لى ، ولم يكن مبلّغا ؛ فعاملته بضدّ ما يستحقّ ، وكافأته بخلاف ما يستوجب . وما كان هذا جزاءه منّى ؛ بل كان الواجب أن أسمع كلامه ، وأنقاد لما يشير به . ثمّ أنفذ فى ساعته من يأتيه به . فلمّا مثَل بين يديه قال له : يابيدبا ألست الّذى قصدت إلى تقصير همّتى ، وعجّزت رأيى فى سيرتى بما تكلّمت به آنفا ؟ قال له بيدبا : أيّها الملك الناصح الشفيق ، والصادق الرفيق ، إنّما نبّأتك بما فيه صلاح لك ولرعيّتك ، ودوام ملكك لك . قال له الملك : يابيدبا

(١) أرِقَ أرَقًا شديدا (٢) استدارة مدار النّجوم (٣) ارعَوى ارعِواءً نَزَع عن الجَهْل ورجع عنه

أعد عليّ كلامك كلّه ، ولا تدع منه حرفا إلّا جئت به . فجعل بيدبا ينثر كلامه ، والملك مصغ إليه . وجعل دبشليم كلّما سمع منه شيئا ينكت الأرض بشيء كان في يده . ثمّ رفع طرفه إلى بيدبا ، وأمره بالجلوس . وقال له : يا بيدبا ، إنّي قد استعذبت كلامك وحسن موقعه من قلبي . وأنا ناظر في الذي أشرت به ، وعامل بما أمرت . ثمّ أمر بقيوده فحلّت . وألقى عليه من لباسه ، وتلقّاه بالقبول . فقال بيدبا : يأيها الملك ، إنّ في دون ما كلّمتك به نُهْية لمثلك . قال : صدقت أيّها الحكيم الفاضل . وقد ولّيتك من مجلسي هذا إلى جميع أقاصي مملكتي . فقال له : أيّها الملك أعفني من هذا الأمر : فإنّي غير مضطلع بتقويمه إلّا بك . فأعفاه من ذلك . فلمّا انصرف ، علم أنّ الذي فعله ليس برأي ، فبعث فردّه . وقال : إنّي فكّرت في إعفائك ممّا عرضته عليك فوجدته لا يقوم إلّا بك ، ولا ينهض به غيرك ، ولا يضطلع به سواك . فلا تخالفني فيه . فأجابه بيدبا إلى ذلك .

وكان عادة ملوك ذلك الزمان إذا استوزروا وزيرا أن يعقدوا على راسه تاجا ، ويركب في أهل المملكة ، ويطاف به في المدينة . فأمر الملك أن يفعل ببيدبا ذلك . فوضع التاج على رأسه ، وركب في المدينة ورجع فجلس بمجلس العدل والإنصاف : يأخذ للدنيّ من الشريف ، ويساوي بين القويّ والضعيف ، وردّ المظالم ، ووضع سنن العدل ، وأكثر من العطاء والبذل . واتّصل الخبر بتلاميذه فجاءوه من كلّ مكان ، فرحين بما جدّد الله له من جديد رأى الملك في بيدبا ؛ وشكروا الله تعالى على توفيق بيدبا في إزالة دبشليم عمّا كان عليه

من سوء السيرة ، واتّخذوا ذلك اليوم عيدا يعيدون فيه . فهو إلى اليوم عيد عندهم فى بلاد الهند .

ثمّ إنّ بيدبا لمّا أخلى فكره من اشتغاله بدبشليم ، تفرّغ لوضع كتب السياسة ونَشِطَ لها ، فعمل كتبا كثيرة ، فيها دقائق الحيل . ومضى الملك على ما رسم له بيدبا من حسن السيرة والعدل فى الرعيّة . فرغبت إليه الملوك الّذين كانوا فى نواحيه ، وانقادت له الأُمور على استوائها . وفرحت به رعيّته وأهل مملكته . ثمّ إنّ بيدبا جمع تلاميذه فأحسن صلتهم ، ووعدهم وعدا جميلا . وقال لهم : لست أشكّ أنّه وقع فى نفوسكم وقت دخولى على الملك أن قلتم : إنّ بيدبا قد ضاعت حكمته ، وبطلت فكرته : إذ عزم على الدخول على هذا الجبّار الطاغى . فقد علمتم نتيجة رأيى وصحّة فكرى . وإنّى لم آته جهلا به : لأنّى كنت أسمع من الحكماء قبلى تقول : إنّ الملوك لها سَورة[1] كسورة الشراب : فالملوك لا تُفِيق من السورة إلّا بمواعظ العلماء وأدب الحكماء . والواجب على الملوك أن يتّعظوا بمواعظ العلماء . والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها ، وتأديبها بحكمتها ، وإظهار الحجّة البيّنة اللازمة لهم : ليرتدعوا عمّا هم عليه من الاعوجاج والخروج عن العدل . فوجدت ما قالت العلماء فرضا واجبا على الحكماء لملوكهم ليوقظوهم من رقدتهم ؛ كالطبيب الّذى يجب عليه فى صناعته حفظ الأجساد على صحتها أو ردّها إلى الصحّة . فكرهت أن يموت أو أموت وما يبقى على الأرض إلّا من يقول : إنّه كان بيدبا الفيلسوف

(١) حدّة

فى زمان دبشليم الطاغى فلم يردّه عمّا كان عليه . فإن قال قائل : إنّه لم يمكنه كلامه خوفا على نفسه ، قالوا : كان الهرب منه ومن جواره أولى به ؛ والانزعاج عن الوطن شديد ؛ فرأيت أن أجود بحياتى ، فأكون قد أتيت فيما بينى وبين الحكماء بعدى عذرا . فحملتها على التغرير[1] أو الظفر بما أريده . وكان من ذلك ما أنتم معاينوه : فإنّه يقال فى بعض الأمثال : إنّه لم يبلغ أحد مرتبة إلّا باحدى ثلاث : إمّا بمشقة تناله فى نفسه ، وإمّا بوضيعة فى ماله أو وكس فى دينه[2] . ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب . وإنّ الملك دبشليم قد بسط لسانى فى أن أضع كتابا فيه ضروب الحكمة . فليضع كلّ واحد منكم شيئا فى أىّ فنّ شاء ؛ وليعرضه علىّ لأنظر مقدار عقله ، وأين بلغ من الحكمة فهمه . قالوا : أيّها الحكيم الفاضل ، واللبيب العاقل ، والّذى وهب لك ما منحك من الحكمة والعقل والأدب والفضيلة ، ما خطر هذا بقلوبنا ساعة قطّ . وأنت رئيسنا وفاضلنا ، وبك شرفنا ، وعلى يدك انتعاشنا . ولكن سنجهد أنفسنا فيما أمرت . ومكث الملك على ذلك من حسن السيرة زمانا يتولّى ذلك له بيدبا ويقوم به .

ثمّ إنّ الملك دبشليم لمّا استقرّ له الملك ، وسقط عنه النظر فى أمور الأعداء بما قد كفاه ذلك بيدبا ، صرف همّته إلى النظر فى الكتب الّتى وضعتها فلاسفة الهند لآبائه وأجداده ؛ فوقع فى نفسه أن يكون له أيضا كتاب مشروح ينسب إليه وتذكر فيه أيّامه كما ذكر آباؤه وأجداده من قبله . فلمّا عزم على ذلك ، علم أنّه لا يقوم ذلك إلّا ببيدبا : فدعاه

(١) التعريض للهلاك (٢) حق التفصيل بإما أن يقال : وإما بوكس فى دينه

وخلا به ؛ وقال له : يا بيدبا ، إنك حكيم الهند وفيلسوفها . وإنّى فكّرت ونظرت فى خزائن الحكمة الّتى كانت للملوك قبلى ؛ فلم أر فيهم أحدا إلّا وقد وضع كتابا يذكر فيه أيّامه وسيرته ، وينبئ عن أدبه وأهل مملكته ؛ فمنه ما وضعه الملوك لأنفسها ، وذلك لفضل حكمة فيها ؛ ومنه ما وضعته حكماؤها . وأخاف أن يلحقنى ما لحق اولئك ممّا لا حيلة لى فيه ، ولا يوجد فى خزائنى كتاب أذكر به بعدى ، وأنسب إليه كما ذكر من كان قبلى بكتبهم . وقد أحببت أن تضع لى كتابا بليغا تستفرغ فيه عقلك ؛ يكون ظاهره سياسة العامّة وتأديبها ، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعيّة على طاعة الملك وخدمته ؛ فيسقط بذلك عنّى وعنهم كثير ممّا نحتاج إليه فى معاناة الملك . وأريد أن يبقى لى هذا الكتاب بعدى ذكرا على غابر الدهور . فلمّا سمع بيدبا كلامه خرّ له ساجدا ، ورفع رأسه وقال : أيّها الملك السعيد جدّه ، علا نجمك ، وغاب نحسك ، ودامت أيامك ؛ إنّ الّذى قد طبع عليه الملك من جودة القريحة ووفور العقل حرّكه لعالى الأمور ؛ وسمت به نفسه وهمّته إلى أشرف المراتب منزلة ، وأبعدها غاية ؛ وأدام الله سعادة الملك وأعانه على ما عزم من ذلك ، وأعاننى على بلوغ مراده . فليأمر الملك بما شاء من ذلك : فإنّى صائر إلى غرضه ، مجتهد فيه برأيى . قال له الملك : يا بيدبا لم تزل موصوفا بحسن الرأى وطاعة الملوك فى أمورهم . وقد اختبرت منك ذلك ، واخترت أن تضع هذا الكتاب ، وتُعمل فيه فكرك ، وتجهد فيه نفسك ، بغاية ما تجد إليه السبيل . وليكن مشتملا على الجدّ والهزل واللهو والحكمة والفلسفة . فكفّر له بيدبا وسجد ،

وقال : قد أجبت الملك أدام الله أيّامه إلى ما امرنى به ، وجعلت بينى وبينه أجلا . قال : وكم هو الأجل ؟ قال : سنة . قال : قد أجّلتك ؛ وأمر له بجائزة سنيّة تعينه على عمل الكتاب : فبقى بيدبا مفكّرا فى الأخذ فيه ، وفى أىّ صورة يبتدئ بها فيه وفى وضعه .

ثمّ إنّ بيدبا جمع تلاميذه وقال لهم : إنّ الملك قد ندبنى لأمر فيه فخرى وفخركم وفخر بلادكم ، وقد جمعتكم لهذا الأمر . ثمّ وصف لهم ما سأل الملك من أمر الكتاب ، والغرض الذى قصد فيه ؛ فلم يقع لهم الفكر فيه . فلمّا لم يجد عندهم ما يريده فكّر بفضل حكمته ، وعلم أنّ ذلك أمر إنّما يتمّ باستفراغ العقل وإعمال الفكر ، وقال : أرى السفينة لا تجرى فى البحر إلّا بالملّاحين : لأنّهم يُعَدّلونها ؛ وإنما تسلك اللجة بمدبرها الذى تفرّد بإمرتها(١) ؛ ومتى شحنت بالركاب الكثيرين وكثر ملّاحوها لم يؤمن عليها من الغرق . ولم يزل يفكّر فيما يعمله فى باب الكتاب حتّى وضعه على الانفراد بنفسه ، مع رجل من تلاميذه كان يثق به ؛ فخلا به منفردا معه ، بعد أن أعدّ من الورق الّذى كانت تكتب فيه الهند شيئا ، ومن القوت ما يقوم به وتلميذه تلك المدّة . وجلسا فى مقصورة ، وردّا عليهما الباب . ثمّ بدأ فى نظم الكتاب وتصنيفه ؛ ولم يزل هو يملى ، وتلميذه يكتب ، ويرجع هو فيه ؛ حتّى استقرّ الكتاب على غاية الإتقان والإحكام . ورتّب فيه أربعة عشر بابا ؛ كلّ باب منها قائم بنفسه . وفى كل باب مسألة والجواب عنها ؛ ليكون لمن نظر فيه حظّ من الهداية . وضمّن تلك الأبواب كتابا واحدا ؛

(١) الرّياسة

وسمّاه كتاب كَلِيلَة ودِمْنَة . ثمّ جعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطير : ليكون ظاهره لهوا للخواصّ والعوامّ ، وباطنه رياضة لعقول الخاصّة . وضمّنه أيضا ما يحتاج إليه الإنسان من سياسة نفسه وأهله وخاصّته ، وجميع ما يحتاج إليه من أمر دينه ودنياه ، وآخرته وأولاه ؛ ويحضّه على حسن طاعته للملوك ، ويجنبه ما تكون مجانبته خيرا له . ثم جعله باطنا وظاهرا كرسم سائر الكتب التى برسم الحكمة : فصار الحيوان لهوا ، وما ينطق به حِكْمَةً وأدبا . فلمّا ابتدأ بيدبا بذلك جعل أوّل الكتاب وصف الصّديق ، وكيف يكون الصديقان ، وكيف تقطع المودّة الثابتة بينهما بحيلة ذى النميمة . وأمر تلميذه أن يكتب على لسان بيدبا مثل ما كان الملك شرطه فى أن جعله لهوا وحكمة . فذكر بيدبا أنّ الحكمة متى دخلها كلام النَّقَلَة أفسدها واستجهل حكمتها . فلم يزل هو وتلميذه يعملان الفكر فيما سأله الملك ، حتّى فتق لهما العقل أن يكون كلامهما على لسان بهيمتين . فوقع لهما موضع اللهو والهزل بكلام البهائم . وكانت الحكمة ما نطقا به . فأصغت الحكماء إلى حكمه وتركوا البهائم واللهو ، وعلموا أنّها السبب فى الّذى وضع لهم . ومالت إليه الجهّال عجبا من محاورة بهيمتين ، ولم يشكّوا فى ذلك ؛ واتّخذوه لهوا ، وتركوا معنى الكلام أن يفهموه ، ولم يعلموا الغرض الّذى وضع له : لأنّ الفيلسوف إنّما كان غرضه فى الباب الأوّل أن يخبر عن تواصل الإخوان كيف تتأكّد المودّة بينهم على التحفّظ من أهل السعاية[1] والتحرّز ممّن يوقع العداوة بين المتحابّين : ليجرّ بذلك

(١) السِّعَاية الوِشَاية والنّميمة

نفعا إلى نفسه . فلم يزل بيدبا وتلميذه فى المقصورة ، حتّى استتمّا عمل الكتّاب فى مدّة سنة . فلمّا تمّ الحول أنفذ إليه الملك أن قد جاء الوعد، فماذا صنعت ؟ فأنفذ إليه بيدبا : إنّى على ما وعدت الملك . فليأمرنى بحمله ، بعد أن يجمع أهل المملكة : لتكون قراءتى هذا الكتّاب بحضرتهم . فلمّا رجع الرسول إلى الملك سرّ بذلك ، ووعده يوما يجمع فيه أهل المملكة . ثمّ نادى فى أقاصى بلاد الهند ليحضروا قراءة الكتّاب . فلمّا كان ذلك اليوم ، أمر الملك أن ينصب لبيدبا سرير مثل سريره ؛ وكراسىّ لأبناء الملوك والعلماء . وأنفذ فأحضره . فلمّا جاءه الرسول قام فلبس الثياب الّتى كان يلبسها إذا دخل على الملوك : وهى المُسُوح السود ، وحمل الكتّاب تلميذه . فلمّا دخل على الملك وثب الخلائق بأجمعهم ، وقام الملك شاكرا . فلمّا قرب من الملك كفّر له وسجد ، ولم يرفع رأسه . فقال له الملك : يا بيدبا ارفع رأسك ، فإنّ هذا يوم هَنَاءة وفرح وسرور ، وأمره أن يجلس . فحين جلس لقراءة الكتّاب ، سأله عن معنى كلّ باب من أبوابه ، وإلى أىّ شىء قصد فيه . فأخبره بغرضه فيه ، وفى كلّ باب . فازداد الملك منه تعجّبا وسرورا . فقال له : يا بيدبا ما عدوت الّذى فى نفسى ؛ وهذا الّذى كنت أطلب ؛ فاطلب ما شئت وتحكّم . فدعا له بيدبا بالسعادة وطول الجدّ . وقال : أيّها الملك أمّا المال فلا حاجة لى فيه ، وأمّا الكسوة فلا أختار على لباسى هذا شيئا ؛ ولست أُخْلِى الملك من حاجة . قال الملك : يا بيدبا ما حاجتك ؟ فكلّ حاجة لك قِبَلَنا مقضيّة . قال : يأمر الملك أن يدوّن كتّابى هذا كما دوّن آباؤه وأجداده كتبهم ، ويأمر بالمحافظة عليه : فإنّى أخاف

أن يخرج من بلاد الهنـد ، فيتناوله أهل فارس إذا علموا به ؛ فالملك يأمر ألّا يخرج من بيت الحكمة . ثمّ دعا الملك بتلاميذه وأحسن لهم الجوائز . ثمّ إنّه لمّـا ملك كسرى أنوشروان وكان مستأثرا بالكتب والعلم والأدب والنظر فى أخبار الأوائل وقع له خبر الكتّاب ؛ فلم يَقَرّ قراره حتّى بعث برزويه الطبيب وتلطّف حتّى أخرجه من بلاد الهند فأقرّه فى خزائن فارس

باب بعثة برزويه إلى بلاد الهند

أمّا بعد فإنّ الله تعالى خلق الخلق برحمته ، ومنّ على عبـاده بفضله وكرمه ، ورزقهم مايقدرون به على إصلاح معايشهم فى الدنيا ، ويدركون به استنقاذ أرواحهم من العذاب فى الآخرة . وأفضل مارزقهم الله تعالى ومنّ به عليهم العقل الّذى هو الدعامة لجميع الأشياء ، والّذى لا يقـدر أحد فى الدنيا على إصلاح معيشته ولا إحراز نفع ولا دفع ضرر إلّا به . وكذلك طالب الآخرة المجتهد فى العـمل المنجّى به روحه لا يقدر على إتمـام عمـله وإكماله إلّا بالعقل الّذى هو سبب كلّ خير ومفتاح كلّ سعادة . فليس لأحد غنى عن العقل . والعقل مكتسب بالتجارب والأدب . وله غريزة مكنونة فى الإنسان كامنة كالنار فى الحجر لا تظهر ولا يرى ضوءها حتّى يقدحها قادح من الناس ؛ فإذا قدحت ظهرت طبيعتها . وكذلك العقل كامن فى الإنسان لايظهر حتّى يظهره الأدب وتقوّيه التجارب . ومن رُزق العقل ومُنّ به عليه وأعينَ على صـدق قريحته بالأدب حرص على طلب سعد جدّه ، وأدرك فى الدنيا أمله ، وحاز فى الآخرة ثواب الصالحين . وقد رزق الله الملك السـعيد

أنوشروان من العقل أفضله ، ومن العلم أجزله ؛ ومن المعرفة بالأمور أصوبها ، ومن الأفعال أسنّها ، ومن البحث عن الأصول والفروع أنفعه ؛ وبلّغه من فنون اختلاف العلم ، وبلوغ منزلة الفلسفة ، ما لم يبلغه ملك قطّ من الملوك قبله ؛ حتّى كان فيما طلب وبحث عنه من العلم أن بلغه عن كتاب بالهند، علم أنّه أصل كلّ أدب ورأس كلّ علم ، والدليل على كلّ منفعة ، ومفتاح عمل الآخرة وعلمها ، ومعرفة النجاة من هولها ؛ فأمر الملك وزيره بُزُرْجَمْهر أن يبحث له عن رجل أديب عاقل من أهل مملكته ، بصير بلسان الفارسيّة ، ماهر في كلام الهند ؛ ويكون بليغا باللسانين جميعا ، حريصا على طلب العلم ، مجتهدا في استعمال الأدب ، مبادرا في طلب العلم ، والبحث عن كتب الفلسفة . فأتاه برجل أديب كامل العقل والأدب ، معروف بصناعة الطبّ ، ماهر في الفارسيّة والهنديّة يقال له برزويه ؛ فلما دخل عليه كفّر وسجد بين يديه . فقال له الملك : يا برزويه ، إنّي قد اخترتك : لما بلغني من فضلك وعلمك وعقلك ، وحرصك على طلب العلم حيث كان . وقد بلغني عن كتاب بالهند مخزون في خزائنهم ، وقصّ عليه ما بلغه عنه . وقال له : تجهّز فإنّي مرحلك إلى أرض الهند ؛ فتلطّف بعقلك وحسن أدبك وناقد رأيك ، لاستخراج هذا الكتاب من خزائنهم ومن قبَل علمائهم ؛ فتستفيد بذلك وتفيدنا . وما قدرت عليه من كتب الهند ممّا ليس في خزائننا منه شيء فاحمله معك ؛ وخذ معك من المال ما تحتاج إليه ، وعجّل ذلك ، ولا تقصر في طلب العلوم وإن أكثرت فيه النفقة : فإنّ جميع ما في خزائني مبذول لك في طلب العلوم . وأمر بإحضار

المنجمين : فاختاروا له يوما يسير فيه ، وساعة صالحة يخرج فيها . وحمل معه من المال عشرين جرابا ؛ كل جراب فيه عشرة آلاف دينار. فلمّا قدم برزويه بلاد الهند طاف بباب الملك ومجالس السُّوقَة[1] ، وسأل عن خواصّ الملك والأشراف والعلماء والفلاسفة ؛ فجعل يغشاهم فى منازلهم ، ويتلقّاهم بالتحيّة ، ويخبرهم بأنّه رجل غريب قدم بلادهم لطلب العلوم والأدب ، وأنه محتاج إلى معاونتهم فى ذلك . فلم يزل كذلك زمانا طويلا يتأدّب عن علماء الهند بما هو عالم بجميعه ؛ وكأنّه لا يعلم منه شيئا ؛ وهو فيما بين ذلك يستر بغيته وحاجته . واتّخذ فى تلك الحالة لطول مقامه أصدقاء كثيرة من الأشراف والعلماء والفلاسفة والسوقة ومن أهل كلّ طبقة وصناعة ؛ وكان قد اتّخذ من بين أصدقائه رجلا واحدا قد اتّخذه لسرّه وما يحبّ مشاورته فيه : للّذى ظهر له من فضله وأدبه ، وآستبان له من صحة إخائه ؛ وكان يشاوره فى الامور ، ويرتاح إليه فى جميع ما أهمّه . إلّا أنّه كان يكتم منه الأمر الذى قدم من أجله لكى يبلوه ويَخْبُرَه ، وينظر هل هو أهل أن يطلعه على سرّه . فقال له يوما وهما جالسان : ياأخى ماأريد أن أكتمك من أمرى فوق الّذى كتمتك . فاعلم أنّى لأمر قدمت ، وهو غير الّذى يظهر منّى ؛ والعاقل يكتفى من الرجل بالعلامات من نظره ، حتى يعلم بسرّ نفسه وما يضمره قلبه . قال له الهندىّ : إنّى وإن لم أكن بدأتك وأخبرتك بما جئت له ، وإيّاه تريد ؛ وانك تكتم أمرا تطلبه ، وتظهر غيره ؛ ما خفى على ذلك منك . ولكنّى لرغبتى فى إخائك ، كرهت

(١) الرعيّة .

أن أواجهك به ، وإنّه قد آستبان ماتخفيه منّى . فأمّا إذ قد أظهرتَ ذلك ، وأفصحت به وبالكلام فيه ، فإنّى مخبرك عن نفسك ، ومظهر لك سريرتك ، ومعلمك بحالك التّى قدمت لها : فإنّك قدمت بلادنا لتسلبنا كنوزنا النفيسة ، فتذهب بها إلى بلادك ، وتسرّ بها ملكك . وكان قدومك بالمكر والخديعة . ولكنّى لما رأيت صبرك ، ومواظبتك على طلب حاجتك ، والتحفّظ من أن يسقط منك الكلام ، مع طول مكثك عندنا ، بشىء يستدلّ به على سريرتك وأمورك ، ازددت رغبة فى إخائك ، وثقة بعقلك ، فأحببت مودّتك . فإنّى لم أر فى الرجال رجلا هو أرصن[1] منك عقلا ، ولا أحسن أدبا ، ولا أصبر على طلب العلم ولا أكتم لسرّه منك ؛ ولا سيما فى بلاد غريبة ، ومملكة غير مملكتك ، عند قوم لاتعرف سنّتهم . وإنّ عَقْل الرجل ليبين فى ثمانى خصال : الأولى الرفق . والثانية أن يعرف الرجل نفسه فيحفظها . والثالثة طاعة الملوك ، والتحرّى لما يرضيهم . والرابعة معرفة الرجل موضع سرّه ، وكيف ينبغى أن يطلع عليه صديقه . والخامسة أن يكون على أبواب الملوك أديبا مَلِقَ اللسان[2] . والسادسة أن يكون لسرّه وسرّ غيره حافظا . والسابعة أن يكون على لسانه قادرا ، فلا يتكلّم إلا بما يأمن تَبِعَتَه . والثامنة إن كان بالمَحْفِل لا يتكلم إلا بما يُسأل عنه . فمن اجتمعت فيه هذه الخصال كان هو الداعى الخير إلى نفسه . وهذه الخصال كلّها قد اجتمعت فيك ، وبانت لى منك . فالله تعالى يحفظك ، ويعينك على ماقدمت له ؛ فمصادقتك إيّاى ، وإن كانت لتسلبنى كنزى ونخرى

(١) أثبت (٢) متوددا متلطفا

وعلمي، تجعلك أهلا لأن تسعف بحاجتك، وتشفع بِطَلِبَتِكَ[١]، وتعطى سؤلك[٢]. فقال له برزويه: إنّى قد كنت هيّأت كلاما كثيرا، وشَعَبْت له شعوبا، وأنشأت له أصولا وطرقا؛ فلما انتهيت إلى مابدأتني به من اطلاعك على أمري والذى قدمت له؛ وألقيته علىّ من ذات نفسك، ورغبتك فيما ألقيت من القول، اكتفيت باليسير من الخطاب معك، وعرفت الكبير من أمورى بالصغير من الكلام، واقتصرت به معك على الإيجاز. ورأيت من إسعافك إيّاى بحاجتى مادلّنى على كرمك وحسن وفائك: فإنّ الكلام إذا ألقى إلى الفيلسوف، والسرّ إذا استودع إلى اللبيب الحافظ، فقد حُصِّنَ وبلغ به نهاية أمل صاحبه، كما يحصّن الشيء النفيس فى القلاع الحصينة. قال له الهندىّ: لاشيء أفضل من المودّة. ومن خَلَصَت مودّته كان أهلا أن يخلطه الرجل بنفسه، ولا يدّخر عنه شيئا، ولا يكتمه سرّا: فإنّ حفظ السرّ رأس الأدب. فإذا كان السرّ عند الأمين الكتوم فقد احترز من التضييع؛ مع أنّه خليق ألّا يتكلّم به؛ ولايتمّ سرّ بين اثنين قد علماه وتفاوضاه. فإذا تكلّم بالسرّ اثنان فلا بدّ من ثالث من جهة أحدهما؛ فإذا صار إلى الثلاثة فقد شاع وذاع، حتّى لايستطيع صاحبه أن يجحده ويكابر عنه: كالغيم إذا كان متقطعا فى السماء فقال قائل: هذا غيم متقطّع، لايقدر أحد على تكذيبه. وأنا قد يداخلنى من مودّتك وخِلْطَتِكَ[٣] سرور لايعدله شيء. وهذا الأمر الّذى تطلبه منّى أعلم أنّه من الأسرار الّتى لاتكتم؛ فلا بدّ أن يفشو ويظهر، حتّى يتحدّث به

---

(١) مطلوبك (٢) المسئول (٣) عِشْرتك

الناس . فإذا فشا فقد سعيت فى هلاكى هلاكا لاأقدر على الفداء منه بالمال وإن كثر : لأنّ ملكنا فظّ غليظ ، يعاقب على الذنب الصغير أشدّ العقاب؛ فكيف مثل هذا الذنب العظيم ؟ وإذا حملتنى المودّة التى بينى وبينك فأسعفتك بحاجتك لم يردّ عقابه عنّى شىء . قال برزويه : إنّ العلماء قد مدحت الصديق إذا كتم سرّ صديقه وأعانه على الفوز . وهذا الأمر الّذى قدمت له ، لمثلك ذَخَرْته ، وبك أرجو بلوغه؛ وأنا واثق بكرم طباعك ووفور عقلك . وآعلم أنّك لاتخشىٰ منّى ولا تخاف أن أبديه ؛ بل تخشى أهل بيتك الطائفين بك وبالملك أن يسعوا بك إليه . وأنا أرجو ألّا يشيع شىء من هذا الأمر : لأنّى أنا ظاعن وأنت مقيم؛ وما أقمت فلا ثالث بيننا . فتعاهدا على هذا جميعا . وكان الهندىّ خازن الملك ، وبيده مفاتيح خزائنه . فأجابه إلى ذلك الكتاب وإلى غيره من الكتب . فأكبّ على تفسيره ونقله من اللسان الهندىّ إلى اللسان الفارسى ؛ وأتعب نفسه ، وأنصب بدنه ليلا ونهارا . وهو مع ذلك وَجل وفزِع من ملك الهند؛ خائف على نفسه من أن يذكر الملك الكتاب فى وقت ولا يصادفه فى خزانته . فلمّا فرغ من انتساخ الكتاب وغيره ممّا أراد من سائر الكتب . كتب إلى أنوشروان يعلمه بذلك . فلمّا وصل إليه الكتاب، سرّ بذلك سرورا شديدا؛ ثمّ تخوّف معاجلة المقادير أن تنغّص عليه فرحه ؛ فكتب إلى برزويه يأمره بتعجيل القدوم . فسار برزويه متوجها نحو كسرى . فلما رأى الملك ماقد مسّه من الشحوب[1] والتعب والنصب ، قال له :

(١) تغير اللون من السفر ونحوه

أيّها العبد الناصح الّذى يأ كل ثمرة ماقد غرس ، أبشر وقرّ عينا : فإنّى مشرّفك وبالغ بك أفضل درجة . وأمره أن يريح بدنه سبعة أيام . فلمّا كان اليوم الثامن ، أمر الملك أن يجتمع إليه الأمراء والعلماء . فلمّا اجتمعوا ، أمر برزويه بالحضور . فحضر ومعه الكتب ؛ ففتحها وقرأها على من حضر من أهل المملكة . فلمّا سمعوا ما فيها من العلم فرحوا فرحا شديدا ؛ وشكروا الله على ما رزقهم ، ومدحوا برزويه وأثنوا عليه ؛ وأمر الملك أن تفتح لبرزويه خزائن اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؛ وأمره أن يأخذ من الخزائن ما شاء من مال أو كِسْوة ؛ وقال : يا برزويه إنّى قد أمرت أن تجلس على مثل سريرى هذا ، وتلبس تاجا ، وتترأس على جميع الأشراف . فسجد برزويه للملك ودعا له وطلب من الله وقال : أكرم الله تعالى الملك كرامة الدنيا والآخرة ، وأحسن عنى ثوابه وجزاءه : فإنّى بحمد الله مستغن عن المال بما رزقنى الله على يد الملك السعيد الجدّ ، العظيم الملك ؛ ولا حاجة لى بالمال ، لكن لما كلفنى الملك ذلك وعلمت أنّه يسرّه ، أنا أمضى إلى الخزائن فآخذ منها طلبا لمرضاته وآمتثالا لأمره . ثمّ قصد خِزانة الثياب فأخذ منها تختا[1] من طرائف خراسان من ملابس الملوك . فلمّا قبض برزويه مااختاره ورضيه من الثياب قال : أكرم الله الملك ومدّ فى عمره أبدا . لا بدّ أنّ الإنسان إذا أكرم وجب عليه الشكر ؛ وإن كان قد استوجبه تعبا ومشقّة : فقد كان فيهما رضا الملك . وأمّا أنا فما لقيته من عناء وتعب ومشقّة ، لما أعلم أنّ لكم فيه الشرف يأهل

(١) وعاء تصان فيه الثياب

هذا البيت : فإنّى لم أزل إلى هذا اليوم تابعا رضاكم ، أرى العسير فيه يسيرا ، والشاقّ هيّنا ، والنصب والأذى سرورا ولذّة : لما أعلم أنّ لكم فيه رضا وقربة عندكم . ولكنّى أسألك أيّها الملك حاجة تسعفنى بها ، وتعطينى فيها سؤلى : فإنّ حاجتى يسيرة ، وفى قضائها فائدة كثيرة . قال أنوشروان : قل فكلّ حاجة لك قِبَلنا مقضيّة : فإنّك عندنا عظيم ؛ ولو طلبت مشاركتنا فى ملكنا لفعلنا ، ولم نردّ طلبتك ؛ فكيف ما سوى ذلك ؟ فقل ولا تحتشم : فإنّ الأمور كلّها مبذولة لك . قال برزويه : أيّها الملك لا تنظر إلى عنائى فى رضاك وانكماشى(١) فى طاعتك ؛ فإنّما أنا عبدك يلزمنى بذل مهجتى فى رضاك ؛ ولو لم تجزنى لم يكن ذلك عندى عظيما ولا واجبا على الملك ؛ ولكن لكرمه وشرف منصبه عمد إلى مجازاتى ؛ وخصّنى وأهل بيتى بعلو المرتبة ورفع الدرجة ؛ حتى لو قدر أن يجمع لنا بين شرف الدنيا والآخرة لفعل . فجزاه الله عنّا أفضل الجزاء . قال أنوشروان : اذكر حاجتك ، فعلىّ ما يسرّك . فقال برزويه : حاجتى أن يأمر الملك ، أعلاه الله تعالى ، وزيره بزرجمهر بن البختكان ؛ ويقسم عليه أن يُعمِل فكره ، ويجمع رأيه ، ويجهد طاقته ، ويفرغ قلبه فى نظم تأليف كلام متقن محكم ؛ ويجعله بابا يذكر فيه أمرى ويصف حالى ؛ ولا يدع من المبالغة فى ذلك أقصى ما يقدر عليه . ويأمره إذا استتمّه أن يجعله أوّل الأبواب الّتى تقرأ قبل باب الأسد والثور : فإنّ الملك إذا فعل ذلك فقد بلغ بى وبأهلى غاية

(١) الانكماش فى الأمر الجدّ فيه

الشرف وأعلى المراتب ؛ وأبقى لنا ما لا يزال ذكره باقيا على الأبد ، حيثما قرئ هذا الكتاب .

فلما سمع كسرى أنوشروان والعظماء مقالته وما سمت إليه نفسه من محبّة إبقاء الذكر استحسنوا طلبته واختياره ، وقال كسرى : حبّا وكرامة لك يابرزويه ، إنّك لأهلٌ أن تسعف بحاجتك ؛ فما أقل ما قنعت به وأيسره عندنا ، وإن كان خطره(١) عندك عظيما . ثمّ أقبل أنوشروان على وزيره بزرجمهر فقال له : قد عرفت مناصحة برزويه لنا ، وتجشّمه(٢) المخاوف والمهالك فيما يقرّبه منّا ، وإتعابه بدنه فيما يسرّنا ؛ وما أتى به إلينا من المعروف ، وما أفادنا الله على يده من الحكمة والأدب الباقى لنا فخره ، وما عرضنا عليه من خزائننا لنجزيه بذلك على ما كان منه ، فلم تمل نفسه إلى شىء من ذلك ؛ وكان بغيته وطلبته منّا أمرا يسيرا رآه هو الثواب منّا له والكرامة الجليلة عنده ؛ فإنّى أحبّ أن تتكلّم فى ذلك وتسعفه بحاجته وطلبته . وآعلم أنّ ذلك ممّا يسرّنى ، ولا تدع شيئا من الاجتهاد والمبالغة إلا بلغته ، وإن نالتك فيه مشقّة . وهو أن تكتب بابا مضارعا لتلك الأبواب التى فى الكتاب ؛ وتذكر فيه فضل برزويه ، وكيف كان ابتداء أمره وشأنه ؛ وتنسبه إليه وإلى حسبه وصناعته ، وتذكر فيه بعثته إلى بلاد الهند فى حاجتنا ؛ وما أفدنا على يديه من هنالك ؛ وشرّفنا به وفضلنا على غيرنا ؛ وكيف كان حال برزويه وقدومه من بلاد الهند ؛ فقل ما تقدر عليه من التقريظ والإطناب فى مدحه ، وبالغ فى ذلك أفضل المبالغة ، وآجتهد فى ذلك آجتهادا

(١) القدر والشرف (٢) تجشم الأمر تكلفه على مشقة

يسرّ برزويه وأهـل المملكة . وإنّ برزويه أهل لذلك منّى ومن جميع أهل المملكة ومنك أيضا : لمحبّتك للعلوم . وآجْهَد أن يكون غرض هذا الكتاب الّذى ينسب إلى برزويه أفضـل من أغراض تلك الأبواب عند الخاصّ والعامّ ، وأشدّ مشاكلة لحال هذا العلم : فإنّك أسعد الناس كلّهم بذلك : لانفرادك بهذا الكتاب ؛ واجعله أوّل الأبواب . فإذا أنت عملته ووضعته فى موضعه فأعلمنى لأجمع أهل المملكة وتقرأه عليهم ، فيظهر فضلك وآجتهادك فى محبّتنا ؛ فيكون لك بذلك فخر . فلمّا سمع بزرجمهر مقالة الملك خرّ له ساجدا ، وقال : أدام الله لك أيّهـا الملك البقاء ، وبلّغك أفضل منازل الصالحين فى الآخرة والأولى ؛ لقد شرّفتنى بذلك شرفا باقيا إلى الأبد . ثمّ خرج بزرجمهر من عند الملك ، فوصف برزويه من أوّل يوم دفعه أبواه إلى المعـلّم ، ومضيّه إلى بلاد الهنـد فى طلب العقاقير(١) والأدوية ؛ وكيف تعلّم خطوطهم ولغتهم ؛ إلى أن بعثه أنوشروان إلى الهنـد فى طلب الكتاب . ولم يدع من فضائل برزويه وحكمته وخلائقه ومذهبه أمرا إلّا نَسَّقه ، وأتى به بأجود ما يكون من الشرح . ثمّ أعلم الملك بفراغه منـه . فجمع أنوشروان أشراف قومـه وأهل مملكته ، وأدخلهم إليه ؛ وأمر بزرجمهر بقراءة الكتاب ، وبرزويه قائم إلى جانب بزرجمهر ، وابتدأ بوصف برزويه حتّى انتهى إلى آخره . ففـرح الملك بمـا أتى به بزرجمهر من الحكمة والعـلم . ثمّ أثنى الملك وجميع من حضره على بزرجمهر ، وشكروه ومدحوه ؛ وأمر له الملك بمـال جزيل وكسوة وحلى وأوانٍ ؛ فلم يقبل من ذلك شيئا غير كسوة

(١) أصول الأدوية مفرده عقّار

كانت من ثياب الملوك . ثم شكر له ذلك برزويه وقبّل رأسه ويده ؛ وأقبل برزويه على الملك وقال : أدام الله لك الملك والسعادة فقد بلغت بى وبأهلى غاية الشرف بما أمرت به بزرجمهر من صنعة الكتّاب(١) فى أمرى وإبقاء ذكرى .

باب عرض الكتاب ترجمة عبد الله بن المقفع

هذا كتاب كليلة ودمنه ، وهو ممّا وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث الّتى ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول فى النحو الّذى أرادوا . ولم تزل العلماء من أهل كلّ ملّة يلتمسون أن يعقل عنهم ، ويحتالون فى ذلك بصنوف الحيل ؛ ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل ، حتّى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير . فاجتمع لهم بذلك خلال . أمّا هم فوجدوا متصرفا فى القول وشعابا يأخذون منها . وأمّا الكتّاب فجمع حكمة ولهوا : فاختاره الحكماء لحكمته . والسفهاء للهوه ، والمتعلم من الأحداث ناشط فى حفظ ما صار إليه من أمر يُرْبَطُ فى صدره ولا يدرى ما هو ، بل عرف أنّه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم . وكان كالرجل الّذى لمّا استكمل الرجوليّة وجد أبويه قد كنزا له كنوزا وعقدا له عقودا استغنى بها عن الكدح(٢) فيما يعمله من أمر معيشته ؛ فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب .

وينبغى لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه الّتى وضعت له ؛ وإلى أى غاية جرى مؤلفه فيه عند ما نسبه إلى البهائم وأضافه إلى غير

(١) مصدر كتب (٢) الكد والسعى

مُفْصِح ، وغير ذلك من الأوضاع الّتى جعلها أمثالا : فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعانى ، ولا أى ثمرة يجتنى منها ، ولا أى نتيجة تحصل له من مقدّمات ما تضمّنه هذا الكتاب . وإنّه وإن كان غايته استتمام قراءته إلى آخره دون معرفة ما يقرا منه لم يعد عليه شىء يرجع إليه نفعه . ومن استكثر من جمع العلوم وقراءة الكتب ، من غير إعمال الروية فيما يقرؤه ، كان خليقا ألّا يصيبه إلّا ما أصاب الرجل الّذى زعمت العلماء أنّه اجتاز ببعض المفاوز ، فظهر له موضع آثار كنز ، فجعل يَحْفِرُ ويطلب ، فوقع على شىء من عين ووَرِقٍ ، فقال فى نفسه : إن أنا أخذت فى نقل هذا المال قليلا قليلا طال علىّ ، وقطعنى الاشتغال بنقله وإحرازه عن اللذة بما أصبت منه ، ولكن سأستأجر أقواما يحملونه إلى منزلى ، وأكون أنا آخرهم ، ولا يكون بقى ورائى شىء يُشْغَلُ فكرى بنقله ، وأكون قد استظهرت(١) لنفسى فى إراحة بدنى عن الكدّ بيسير أجرة أعطيهم إيّاها . ثمّ جاء بالحمّالين ، فجعل يحمّل كلّ واحد منهم ما يطيق ، فينطلق به إلى منزله فيفوز به ، حتى لم يبق من الكنز شىء . فانطلق خلفهم إلى منزله : فلم يجد فيه من المال شيئا ، لا قليلا ولا كثيرا . وإذا كلّ واحد من الحمّالين قد فاز بما حمله لنفسه . ولم يكن له من ذلك إلا العناء والتعب : لأنه لم يفكّر فى آخر أمره . وكذلك من قرأ هذا الكتاب ، ولم يفهم ما فيه ، ولم يعلم غرضه ظاهرا وباطنا ، لم ينتفع بما بدا له من خطّه ونقشه ، كما لو أنّ رجلا قدّم له جوز صحيح لم ينتفع به إلّا أن يكسره ، وكان أيضا كالرجل

(١) استعنت

الّذى طلب علم الفصيح من كلام الناس ؛ فأتى صديقا له من العلماء ، له علم بالفصاحة ، فأعلمه حاجته إلى علم الفصيح ؛ فرسم له صديقه فى صحيفة صفراء فصيح الكلام وتصاريفه ووجوهه ؛ فانصرف المتعلّم إلى منزله ؛ فجعل يكثر قراءتها ولا يقف على معانيها . ثمّ إنّه جلس ذات يوم فى مَحْفِل من أهل العلم والأدب ، فأخذ فى محاورتهم ؛ فجرت له كلمة أخطأ فيها ؛ فقال له بعض الجماعة : إنّك قد أخطأت ؛ والوجه غير ما تكلّمت به . فقال : كيف أخطئ وقد قرأت الصحيفة الصفراء ؛ وهى فى منزلى ؟ فكانت مقالته لهم أوجب للحجة عليه ؛ وزاده ذلك قربا من الجهل وبعدا من الأدب .

ثمّ إنّ العاقل إذا فهم هذا الكتاب وبلغ نهاية علمه فيه ، ينبغى له أن يعمل بما علم منه لينتفع به ؛ ويجعله مثالا لايحيد عنه . فإذا لم يفعل ذلك ، كان مثله كالرجل الّذى زعموا أنّ سارقا تسوّر عليه وهو نائم فى منزله ، فعلم به فقال : والله لأسكتنّ حتّى أنظر ماذا يصنع ، ولا أَذْعَرُه ؛ ولا أعلمه أنّى قدعلمت به . فإذا بلغ مراده قمت إليه ، فنغّصت ذلك عليه . ثمّ إنّه أمسك عنه . وجعل السارق يتردّد ، وطال تردّده فى جمعه ما يجده ؛ فغلب الرجلَ النعاسُ فنام ، وفرغ اللصّ ممّا أراد ، وأمكنه الذهاب . واستيقظ الرجل ، فوجد اللصّ قد أخذ المتاع وفاز به . فأقبل على نفسه يلومها ، وعرف أنّه لم ينتفع بعلمه باللصّ : إذ لم يستعمل فى أمره ما يجب . فالعلم لا يتمّ إلّا بالعمل ، وهو كالشجرة والعمل به كالثمرة . وإنّما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ؛ وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمّى عالما . ولو أنّ رجلا كان عالما بطريق

مخوف ، ثم سلكه على علم به ، سمّى جاهلا ؛ ولعلّه إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك فى الطريق المخوف الذى قد جهله . ومن ركب هواه ورفض ما ينبغى أن يعمل بما جرّبه هو أو أعلمه به غيره ، كان كالمريض العالم بردىء الطعام والشراب وجيّده وخفيفه وثقيله ، ثمّ يحمله الشره على أكل رديئه وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلّص من علّته . وأقل الناس عذرا فى اجتناب محمود الأفعال وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك وميّزه وعرف فضل بعضه على بعض ؛ كما أنّه لو أنّ رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها ، كانا إذا صارا فى قاعها بمنزلة واحدة ؛ غير أنّ البصير أقلّ عذرا عند الناس من الضرير : إذ كانت له عينان يبصر بهما ؛ وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف .

وعلى العالم أن يبدأ بنفسه ويؤدّبها بعلمه ، ولا تكون غايتُه اقتناؤه العلم لمعاونة غيره ، ويكون كالعين الّتى يشرب الناس ماءها وليس لها فى ذلك شىء من المنفعة ، وكدودة القزّ الّتى تُحْكم صنعته ولا تنتفع به . فينبغى لمن طلب العلم أن يبدأ بعظة نفسه ، ثم عليه بعد ذلك أن يقبسه[1] ؛ فإنّ خلالا ينبغى لصاحب الدنيا أن يقتنيها ويقبسها : منها العلم والمال . ومنها اتخاذ المعروف . وليس للعالم أن يعيب امرأ بشىء فيه مثله ، ويكون كالأعمى الّذى يعيّر الأعمى بعماه . وينبغى لمن طلب أمرا أن يكون له فيه غاية ونهاية ، ويعمل بها ، ويقف عندها ؛ ولا يتمادى

(١) أقبسهُ العلمَ وقبسه إياه يَقْبِسُه أفاده إياه ويقال اقتبست منه علما وقبست استفدت

فى الطلب ؛ فإنّه يقال : من سار إلى غير غاية يوشك أن تنقطع به مطيّته ؛ وأنه كان حقيقا ألّا يُعَنّي نفسه[1] فى طلب ما لا حدّ له ، وما لم ينله أحد قبله ، ولا يتأسّف عليه ؛ ولا يكون لدنياه مؤثرا على آخرته : فإنّ من لم يعلق قلبه بالغايات قلّت حسرته عند مفارقتها . وقد يقال فى أمرين إنّهما يجملان بكلّ أحد : أحدهما النسْكُ[2] والآخر المال الحلال . ولا يليق بالعاقل أن يؤنّب نفسه على ما فاته وليس فى مقدوره ؛ فربما أتاح الله له ما يهنأ به ولم يكن فى حُسْبَانه . ومن أمثال هذا أنّ رجلا كان به فاقة وجوع وعُرْى ، فألجأه ذلك إلى أن سأل أقاربه وأصدقاءه ، فلم يكن عند أحد منهم فضل يعود به عليه . فبينما هو ذات ليلة فى منزله إذ بصر[3] بسارق فيه ؛ فقال : والله ما فى منزلى شيء أخاف عليه : فَلْيَجْهَدِ السارق جهده . فبينما السارق يجول إذ وقعت يده على خابية فيها حنطة ؛ فقال السارق : والله ما أحبّ أن يكون عنائى الليلة باطلا . ولعلّى لا أصل إلى موضع آخر، ولكن سأحمل هذه الحنطة . ثمّ بسط قميصه ليصبّ عليه الحنطة . فقال الرجل : أيذهب هذا بالحنطة وليس ورائى سواها ؟ فيجتمع علىّ مع العُرْى ذهاب ما كنت أقتات به . وما تجتمع والله هاتان الخلّتان على أحد إلّا أهلكتاه . ثمّ صاح بالسارق ، وأخذ هَرَاوة[4] كانت عند رأسه ؛ فلم يكن للسارق حيلة إلّا الهرب منه ، وترك قميصه ونجا بنفسه ؛ وغدا الرجل به كاسيا . وليس ينبغى أن يركن إلى مثل هذا ويدع

---

(١) يتعبها (٢) العبادة (٣) بَصُر به كظَرُف وفرح أبصره (٤) الهراوة بالكسر العصا الضخمة

مايجب عليه من الحذر والعمل فى مثل هذا لصلاح معاشه ؛ ولا ينظر
إلى من تؤاتيــه المقادير وتساعده على غير ٱلتمــاس منه : لأنّ أولئك
فى النــاس قليل ؛ والجمهور منهم من أتعب نفسه فى الكدّ والسعى فيما
يصلح أمره وينال به ما أراد . وينبغى أن يكون حرصه على ماطاب
كسبه وحسن نفعه ؛ ولا يتعرّض لمـا يَجْلِبُ عليــه العناء والشقاء ؛
فيكون كالحمامة الّتى تُفْرِخُ الفراخ فتؤخذ وتذبح، ثمّ لايمنعهـا ذلك أن
تعود فتفرخ موضعها، وتقيم بمكانها فتؤخذ الثانية من فراخها فتذبح .
وقد يقال : إنّ الله تعالى قد جعل لكلّ شىء حدّا يوقف عليه . ومن
تجاوز فى أشياء حدّها أوشك أن يلحقه التقصير عن بلوغها . ويقال :
من كان سعيه لآخرته ودنياه فحياته له وعليه . ويقال فى ثلاثة أشياء
يجب على صاحب الدنيـا إصلاحها وبذل جهده فيها : منهـا أمر
معيشته ؛ ومنها ما بينه وبين الناس ؛ ومنها مايكسبه الذكر الجميل بعده .
وقد قيل فى أمور من كنّ فيه لم يستقم له عمل : منها التوانى ؛ ومنها
تضييع الفرص ؛ ومنها التصـديق لكلّ مخبر . فربّ مخبر بشىء عَقَلَه
ولا يعرف ٱستقامته فيصدّقه . وينبغى للعاقل أن يكون لهواه متّهما ؛
ولا يقبــل من كل أحد حديثا ؛ ولا يتمـادى فى الخطإ إذا ظهر له
خطؤه ؛ ولا يقدم على أمر حتّى يتبيّن له الصواب، وتتضح له الحقيقة ؛
ولا يكون كالرجل الّذى يحيد عن الطريق، فيستمر على الضلال، فلا
يزداد فى الســير إلّا جهدا ، وعن القصــد إلّا بعدا ؛ وكالرجل الّذى
تقذّى عينه فلا يزال يحكّها ، وربمـا كان ذلك الحكّ سببا لذهابها .
ويجب على العاقل أن يصـدّق بالقضاء والقـدر ، ويأخذ بالحزم ،

ويحبّ للناس مايحبّ لنفسه، ولا يلتمس صلاح نفسه بفساد غيره : فإنّه من فعل ذلك كان خليقا أن يصيبه ما أصاب التاجر من رفيقه ،

فإنّه يقال : إنّه كان رجل تاجر، وكان له شريك، فاستأجرا حانوتا، وجعلا متاعهما فيه . وكان أحدهما قريب المنزل من الحانوت ؛ فأضمر في نفسه أن يسرق عِدْلا من أعدال[1] رفيقه؛ ومكر الحيلة في ذلك، وقال : إن أتيت ليلا لم آمن أن أحمل عدلا من أعدالى أو رِزْمة[2] من رِزَمى ولا أعرفها ؛ فيذهب عنائى وتعبى باطلا . فأخذ رداءه، وألقاه على العدل الّذى أضمر أخذه . ثم آنصرف إلى منزله . وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله ، فوجد رداء شريكه على بعض أعداله ، فقال : والله هذا رداء صاحبي؛ ولا أحسبه إلّا قد نسيه . وما الرأى أن أدعه هاهنا ؛ ولكن أجعله على رِزَمِهِ ؛ فلعلّه يسبقنى إلى الحانوت فيجده حيث يحبّ . ثمّ أخذ الرداء فألقاه على عدل من أعدال رفيقه، وأقفل الحانوت، ومضى إلى منزله . فلمّا جاء الليل أتى رفيقه ومعه رجل قد واطأه[3] على ما عزم عليه ، وضمن له جُعلا على حمله ؛ فصار إلى الحانوت ؛ فالتمس الإزار في الظلمة فوجده على العدل ؛ فاحتمل ذلك العدل، وأخرجه هو والرجل، وجعلا يتراوحان[4] على حمله ؛ حتّى أتى منزله ، ورمى نفسه تعبًا . فلمّا أصبح آفتقده فإذا هو بعض أعداله ؛ فندم أشدّ الندامة . ثمّ انطلق نحو الحانوت، فوجد شريكه قد سبقه إليه ففتح الحانوت ، ووجد العدل مفقودا : فاغتمّ لذلك

(١) الأعدال الأمتعة (٢) الرزمة بالكسر هى التى فيها ضروب من الثياب (٣) وافقه
(٤) يتناوبان

غمّا شديدا ؛ وقال : واسوءتاه من رفيق صالح قد ائتمننى على ماله وخلفنى فيه ! ماذا يكون حالى عنده ؟ ولست أشكّ فى تُهَمَتِه إياى ، ولكن قد وطّنت نفسى على غرامته . ثمّ أتى صاحبه فوجده مغتمّا ، فسأله عن حاله ؛ فقال : إنّى قد افتقدت الأعدال ، وفقدت عدلا من أعدالك ، ولا أعلم[1] بسببه ؛ وإنّى لا أشكّ فى تُهَمَتك إيّاى ؛ وإنّى قد وطّنت نفسى على غرامته . فقال له : يا أخى لا تغتمّ : فإنّ الخيانة شرّ ماعمله الإنسان ، والمكر والخديعة لا يؤدّيان إلى خير ، وصاحبهما مغرور أبدا ، وما عاد وبال البغى إلّا على صاحبه ؛ وأنا أَحَدُ مَن مَكر وخدع واحتال . فقال له صاحبه : وكيف كان ذلك؟ فأخبره بخبره ، وقصّ عليه قصّته . فقال له رفيقه : ما مثلك إلّا مثل اللص والتاجر . فقال له : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أنّ تاجرا كان له فى منزله خابيتان[2] إحداهما مملوءة حنطة ، والأخرى مملوءة ذهبا . فترقّبه بعض اللصوص زمانا ؛ حتّى إذا كان بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل ؛ فتغفّله[3] اللص ، ودخل المنزل ، وكَمَنَ فى بعض نواحيه . فلمّا همّ بأخذ الخابية الّتى فيها الدنانير أخذ الّتى فيها الحنطة ، وظنّها الّتى فيها الذهب ؛ ولم يزل فى كدّ وتعب ، حتّى أتى بها منزله . فلما فتحها وعلم ما فيها ندم . قال له الخائن : ماأبعدت المثل ، ولا تجاوزت القياس ؛ وقد اعترفت بذنبى وخطئى عليك ، وعزيز على أن يكون هذا كهذا . غير أنّ النفس الرديئة تأمر

(١) أشعر (٢) الخابية الحُبّ أى الجرّة الضخمة وأصلها الهمز لانها من خبأ
(٣) اغتنم غفلته

بالفحشاء . فقبل الرجل معذرته ، وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به ؛ وندم هو عند ماعاين من سوء فعله وتقديم جهله .

وقد ينبغي للناظر فى كتابنا هذا ألّا تكون غايته التصفّح لتزاويقه ، بل يشرف[1] على مايتضمّن من الأمثال ، حتّى ينتهى منه ؛ ويقف عند كلّ مثل وكلمة ، ويعمل فيها روّيته ؛ ويكون مثل أصغر الإخوة الثلاثة الّذين خلف لهم أبوهم المال الكثير ، فتنازعوه[2] بينهم ؛ فأمّا الكبيران فإنّهما أسرعا فى إتلافه وإنفاقه فى غير وجهه ؛ وأمّا الصغير فإنه عند مانظر ماصار إليه أخواه من إسرافهما وتخلّيهما من المال ، أقبل على نفسه يشاورها وقال : يانفسى إنّما المال يطلبه صاحبه ، ويجمعه من كلّ وجه : لبقاء حاله ، وصلاح معاشه ودنياه ، وشرف منزلته فى أعين الناس ، وآستغنائه عمّا فى أيديهم ، وصرفه فى وجهه : من صلة الرحم ، والإنفاق على الولد ، والإفضال على الإخوان . فمن كان له مال ولاينفقه فى حقوقه ، كان كالّذى يعدّ فقيرا وإن كان موسرا . وإن هو أحسن إمساكه والقيام عليه ، لم يعدم الأمرين جميعا من دنيا تبقى عليه ، وحمد يضاف إليه ؛ ومتى قصد إنفاقه على غير الوجوه الّتى علمت ، لم يلبث أن يتلفه ويبقى على حسرة وندامة . ولكن الرأى أن أمسك هذا المال ، فإنّى أرجو أن ينفعنى الله به : ويغنى أخَوَىَّ على يدىَّ : فإنّما هو مال أبى ومال أبيهما . وإنّ أولى الإنفاق على صلة الرحم وإن بعدت ، فكيف بأخوىّ ؟ فأنفذ فأحضرهما وشاطرهما ماله . وكذلك يجب على قارئ هذا الكتاب أن يديم النظر فيه من غير ضجر ، ويلتمس جواهر

(١) أصل معناه يطلع عليه من فوق والمراد هنا يدقق و يتأمل (٢) تنازعوه تناولوه

معانيه، ولا يظنّ أن نتيجته الإخبار عن حيلة بهيمتين أو محاورة سبع لثور : فينصرف بذلك عن الغرض المقصود . ويكون مثله مثل الصياد الذى كان فى بعض الخُلْجان يصيد فيه السمك فى زورق[1] فرأى ذات يوم فى أرض الماء صدفة تتلألأ حسنا ، فتوهّمها جوهرا له قيمة وكأن قد ألقى شبكته فى البحر، فاشتملت على سمكة كانت قوت يومه، فخلّاها وقذف نفسه فى الماء ليأخذ الصدفة ، فلمّا أخرجها وجدها فارغة لا شىء فيها ممّا ظنّ . فندم على ترك ما فى يده للطمع، وتأسّف على مافاته . فلمّا كان اليوم الثانى تنحّى عن ذلك المكان، وألقى شبكته، فأصاب حوتا صغيرا، ورأى أيضا صدفة سنيّة، فلم يلتفت إليها، وساء ظنّه بها، فتركها . فاجتاز بها بعض الصيادين فأخذها ، فوجد فيها درّة تساوى أموالا . وكذلك الجهّال إذا أغفلوا أمر التفكّر فى هذا الكتاب، وتركوا الوقوف على أسرار معانيه، وأخذوا بظاهره . ومن صرف همته إلى النظر فى أبواب الهزل، كان كرجل أصاب أرضا طيّبة حرّة وحبّا صحيحا، فزرعها وسقاها، حتّى إذا قرب خيرها وأينعت، تشاغل عنها بجمع مافيها من الزهر وقطع الشوك؛ فأهلك بتشاغله ما كان أحسن فائدة وأجمل عائدة .

وينبغى للناظر فى هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض . أحدها ماقصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة : ليسارع الى قراءته أهل الهزل من الشبّان، فتستمال به قلوبهم : لأنّه الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات . والثانى إظهار خيالات الحيوانات

---

(١) سفينة صغيرة

بصنوف الأصباغ والألوان : ليكون أنسا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشدّ للنزهة فى تلك الصور . والثالث أن يكون على هذه الصفة : فيتخذه الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ، ولايبطل فيخلُق على مرور الأيّام ؛ ولينتفع بذلك المصوّر والناسخ أبدا . والغرض الرابع ، وهو الأقصى ، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصّة (انقضى باب عرض الكتاب)

باب برزويه ترجمة بزرجمهر بن البختكان

قال برزويه ، رأس أطباء فارس ، وهو الّذى تولّى انتساخ هذا الكتاب ، وترجمه من كتب الهند (وقد مضى ذكر ذلك من قبل) : أبى كان من المقاتلة ، وكانت أمّى من عظماء بيوت الزمازمة [1] . وكان منشئى فى نعمة كاملة . وكنت أَكْرَمَ ولد أبوىّ عليهما ؛ وكانا بى أشدّ حتفاظا من دون إخوتى ، حتّى إذا بلغت سبع سنين ، أسلمانى إلى المؤدّب ؛ فلماحَذِقت فى الكتابة ، شكرت أبوىّ ؛ ونظرت فى العلم ، فكان أوّل ما ابتدأت به ، وحَرَصت عليه ، علم الطبّ : لأنّى كنت عرفت فضله . وكلّما سدّدت منه علما ازددت فيه حرصا ، وله اتّباعا . فلمّا همّت نفسى بمداواة المرضى ، وعزمت على ذلك آمرتها [2] ثمّ خيّرتها بين الأمور الأربعة الّتى يطلبها الناس ، وفيها يرغبون ، ولها يسعون . فقلت : أىّ هذه الخلال أبتغى فى علمى ؟ وأيّها أحرى بى فأدرك منه حاجتى ؟ أَلْمَالُ ، أم الذكر ، أم اللذات ، أم الآخرة ؟ وكنت وجدت فى كتب الطبّ أنّ أفضل الأطباء من واظب على طبّه ، لا يبتغى

(١) طائفة من الفرس (٢) شاورتها

إلّا الآخرة . فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطبّ ابتغاء الآخرة : لئلا أكون كالتاجر الّذى باع ياقوتة ثمينة بخرزة لاتساوى شيئا ؛ مع أنى قد وجدت فى كتب الأوّلين أنّ الطبيب الّذى يبتغى بطبّه أجر الآخرة لا يَنْقُصُه ذلك حظّه من الدنيا . وأنّ مثله مثل الزارع الّذى يَعْمُر أرضه ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب ، ثمّ هى لا محالة نابت فيها ألوان العشب مع يانع الزرع . فأقبلت على مداواة المرضى ابتغاء أجر الآخرة ، فلم أدع مريضا أرجو له البرء ، وآخر لا أرجو له ذلك ، إلّا أنّى أطمع أن يخفّ عنه بعض المرض ، إلّا بالغت فى مداواته ما أمكننى القيام عليه بنفسى ؛ ومن لم أقدر على القيام عليه وصفت له ما يصلح ، وأعطيته من الدواء ما يُعالج به . ولم أرد ممّن فعلت معه ذلك جزاء ولا مكافأة ؛ ولم أَغْبِط أحدا من نظرائى الّذين هم دونى فى العلم وفوقى فى الجاه والمال وغيرهما ممّا لا يعود بصلاح ولا حسن سيرة قولا ولا عملا . ولمّا تاقت نفسى إلى غشيانهم وتمنّت منازلهم أثبتّ لها الخصومة[1] ؛ فقلت لها : يانفس ، أما تعرفين نفعك من ضرّك؟ ألا تنتهين عن تمنّى ما لا يناله أحد إلّا قلّ انتفاعه به ، وكثر عناؤه فيه ، واشتدّت المَؤُونة عليه ، وعظمت المشقّة لديه بعد فراقه؟ يانفسى ، أما تذكرين ما بعد هذه الدار : فينسيك ما تَشْرَهين إليه منها ؟ ألا تستحيين من مشاركة الفجّار فى حبّ هذه العاجلة الفانية الّتى من كان فى يده شىء منها فليس له ، وليس بباق عليه ؛ فلا يألفها إلّا المغترّون الجاهلون ؟ يانفس انظرى فى أمرك ، وانصرفى عن هذا السفه ، وأقبلى بقوّتك

(١) أعلنتُها بالمخاصمة

وسعيك على تقديم الخير، وإياك والشرّ ؛ وإذ ترى أنّ هذا الجسد موجود لآفات ، وأنه مملوء أخلاطا فاسدة قذرة ، تعقدها الحياة ، والحياة إلى نفاد ؛ كالصنم المفصّلة أعضاؤه إذا رُكبت ووضعت ، يجمعها مسمار واحد ، ويضمّ بعضها إلى بعض ، فإذا أخذ ذلك المسمار تساقطت الأوصال . يانفس ، لاتغترّى بصحبة أحبّائك وأصحابك ، ولا تحرصى على ذلك كلّ الحرص : فإنّ صحبتهم — على مافيها من السرور — كثيرة المئُونة ، وعاقبة ذلك الفراق . ومثلها مثل المِغْرَفة الّتى تستعمل فى جِدّتها لسخونة المرق ، فإذا انكسرت صارت وقودا . يانفس ، لا يحملنّك أهلك وأقاربك على جمع ماتهلكين فيه ، إرادة صلتهم ؛ فإذا أنت كالدُّخْنَةِ(١) الأَرِجَةِ(٢) الّتى تحترق ويذهب آخرون بريحها . يانفس ، لايبعد عليك أمر الآخرة فتميلى إلى العاجلة فى استعجال القليل وبيع الكثير باليسير ؛ كالتاجر الّذى كان له ملء بيت من الصندل ، فقال : إن بعته وزنا طال علىّ ، فباعه جُزَافًا(٣) بأبخس الثمن . وقد وجدت آراء الناس مختلفة ، وأهواءهم متباينة ؛ وكُلٌّ على كلٍّ رادٌّ ، وله عدوّ ومغتاب ، ولقوله مخالف . فلمّا رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحد منهم سبيلا ؛ وعرفت أنى إن صدّقت أحدا منهم لاعلم لى بحاله ، كنت فى ذلك كالمصدّق المخدوع الّذى زعموا فى شأنه أنّ سارقا علا ظهر بيت رجل من الأغنياء ، وكان معه جماعة من أصحابه ، فاستيقظ صاحب المنزل من حركة أقدامهم ، فعرّف امرأته ذلك ؛ فقال لها : رويدا إنّى

---

(١) الدُّخْنة بخور تبخر به الثياب أو البيت (٢) ذات الرائحة الطيبة (٣) مثلث الفاء ، أى بالحدس والتقدير

لأحسب اللصوص علو البيت ، فأيقظيني بصوت يسمعه اللصوص وقولى : ألا تخبرنى أيهـا الرجل عن أموالك هـذه الكثيرة وكنوزك العظيمة ؟ فإذا نهيتك عن هذا السؤال فألِحّى علىّ بالسؤال . ففعلت المرأة ذلك وسألتـه كما أمرها ؛ وأنصتت اللصوص إلى سماع قولهما . فقال لها الرجل : أيّتها المرأة، قد ساقك القدر الى رزق واسع كثير : فكُلِى وأسكتى، ولا تسألى عن أمر إن أخبرتك به لم آمن أن يسمعه أحد، فيكون فى ذلك ما أكره وتكرهين . فقالت المرأة : أخبرنى أيّها الرجل، فلعمرى ما بقربنا أحد يسمع كلامنا . فقال لها : فإنى أخبرك أنّى لم أجمع هذه الأموال إلّا من السرقة . قالت : وكيف كان ذلك؟ وما كنت تصنع؟ قال : ذلك لعلم أصبته فى السرقة، وكان الأمر علىّ يسيرا ، وأنا آمن من أن يتّهمنى أحد أو يرتاب فىّ . قالت : فاذكرلى ذلك، قال : كنت أذهب فى الليلة المقمرة، أنا وأصحابى، حتّى أعلو دار بعض الأغنياء مثلنا ؛ فأنتهى إلى الكوّة الّتى يدخل منهـا الضوء فَأَرْقِى بهذه الرُّقيـة : وهى شولم شولم سبع مرات ، وأعتنق الضوء؛ فلا يحسّ بوقوعى أحد ، فلا أدع مالا ولا متاعا إلا أخذته . ثمّ أرقى بتلك الرقيـة سبع مرات ، وأعتنق الضوء ؛ فيجذبنى ؛ فأصـعد إلا أصحابى ، فنمضى سالمين آمنين . فلما سمع اللصوص ذلك قالوا : قد ظفرنا الليلة بما نريد من المـال ؛ ثمّ إنّهم أطلوا المكث حتى ظنّوا أنّ صاحب الدار وزوجته قد هجعا ؛ فقام قائدهم إلا مدخل الضوء ؛ وقال : شولم شولم سبـع مرات ؛ ثم اعتنق الضوء لينزل الى أرض المنزل ، فوقع على أمّ رأسـه مُنَكَّسًا . فوثب اليه الرجل بهراوته ، وقال له :

من أنت ؟ قال : أنا المصدّق المخدوع المغتر بمـا لايكون أبدا ؛ وهذه ثمرة رُقْيتك . فلمّا تحرّزت من تصديق ما لا يكون، ولم آمن إن صدقته أن يوقعنى فى مهلكة عدت إلى طلب الأديان ، والتماس العدل منها ؛ فلم أجد عند أحد ممّن كلّمته جوابا فيماسألته عنه فيها ، ولم أر فيما كلّموني بهشيئا يحقّ لى فى عقلى أن أصدّق به ولا أن أتبعه . فقلت لما لم أجد ثقة آخذ منه الرأى أن ألزم دين آبائى وأجدادى الّذى وجدتهم عليه . فلمّا ذهبت ألتمس العذر لنفسى فى لزوم دين الآباء والأجداد، لم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة ؛ بل وجدتها تريد أن تتفرّغ للبحث عن الأديان والمسألة عنها ، وللنظر فيها ؛ فهجس[1] فى قلبى وخطر على بالى قرب الأجل وسرعة انقطاع الدنيا واعتباط[2] أهلها وتخرّم[3] الدهر حياتهم . ففكرت فى ذلك . فلمّا خفت من التردّد والتحوّل ، رأيت ألّا أتعرّض لمـا أتخوّف منه المكروه ، وأن أقتصر على عمل تشهد النفس أنّه يوافق كلّ الأديان . فكففت يدى عن القتل والضرب ، وطرحت نفسى عن المكروه والغضب والسرقة والخيانة والكذب والبهتان والغيبة ، وأضمرت فى نفسى ألّا أبغى على أحد ، ولا أكذب بالبعث ولا القيامة ولا الثواب ولا العقاب ؛ وزايلت الأشرار بقلبى ، وحاولت الجلوس مع الأخيار بجهدى ، ورأيت الصـلاح ليس كمثله صاحب ولاقرين ، ووجدت مكسبه إذ وفق الله وأعان يسـيرا ؛ ووجدته يدلّ على الخير ، ويشير بالنصح ، فعل الصـديق بالصـديق ؛ ووجدته لاينقص على الإنفاق

---

(١) وقع وخطر وبابه ضرب (٢) هلاكهم بدون مرض (٣) القطع والاستئصال

منه؛ بل يزداد جدّةً[1] وحسنا ؛ ووجدته لاخوف عليه من السلطان أن يغصبه ، ولا من الماء أن يغرقه ، ولا من النار أن تحرقه ، ولا من اللصوص أن تسرقه ، ولا من السباع وجوارح الطير أن تمزّقه ؛ ووجدت الرجل الساهى اللاهى المُؤْثِرِ اليسيرَ يناله فى يومه ويَعْدَمه فى غده على الكثير الباقى نَعيمُه ، يصيبه ماأصاب التاجر الّذى زعموا أنّه كان له جوهر نفيس ، فاستأجر لثقبه رجلا ، اليوم بمائة دينار ؛ وانطلق به إلى منزله ليعمل ؛ وإذا فى ناحية البيت صَنْجٌ[2] موضوع . فقال التاجر للصانع : هل تحسن أن تلعب بالصنج؟ قال : نعم . وكان بلعبه ماهرا . فقال التاجر : دونك والصنج فأسمعنا ضربك به . فأخذ الرجل الصنج ، ولم يزل يسمع التاجر الضرب الصحيح ، والصوت الرفيع ، والتاجر يشير بيده ورأسه طربا ، حتّى أمسى . فلمّا حان الغروب قال الرجل للتاجر : مر لى بالأجرة . فقال له التاجر : وهل عملت شيئا تستحقّ به الأجرة؟ فقال له : عملت ما أمرتنى به ، وأنا أجيرك ، وما استعملتنى عملت ؛ ولم يزل به حتى استوفى منه مائة دينار . وبقى جوهره غير مثقوب . فلم أزدد فى الدنيا وشهواتها نظرا ، إلّا ازددت فيها زهادة ومنها هربا . ووجدت النسك[3] هو الّذى يمهّد للمعاد كما يمهّد الوالد لولده ؛ ووجدته هو الباب المفتوح إلى النعيم المقيم ؛ ووجدت الناسك قد تدبّر فعلته بالسكينة فشكر ؛ وتواضع وقَنِع فاستغنى ، ورضى ولم يهتمّ ، وخلع الدنيا فنجا من الشرور ، ورفض الشهوات فصار طاهرا ، واطّرح

---

(١) هى ضد البلى (٢) الصنج نوعان مايتخذ من الصفر يضرب به مع الدف (ويسمى عند عوام مصر بالكاسات) وماله أوتار (٣) النسك مثلثة النون وبضمتين العبادة

الحسد فوجبت له المحبة، وسخت نفسه بكلّ شيء؛ واستعمل العقل وأبصر العاقبة فأمن الندامة، ولم يخف الناس ولم يدب إليهم فسلم منهم. فلم أزدد فى أمر النسك نظرا، إلّا ازددت فيه رغبة، حتّى هممت أن أكون من أهله . ثمّ تخوّفت ألّا أصبر على عيش الناسك، ولم آمن إن تركت الدنيا وأخذت فى النسك، أن أضعف عن ذلك؛ ورفضت أعمالا كنت أرجو عائدتها؛ وقد كنت أعملها فأنتفع بها فى الدنيا، فيكون مثلى فى ذلك مثل الكلب الّذى مرّ بنهر وفى فيه ضِلَع؛ فرأى ظلّها فى الماء، فهوى ليأخذها، فأتلف ما كان معه؛ ولم يجد فى الماء شيئا. فهبت النسك مهابة شديدة، وخفت من الضجر وقلة الصبر، وأردت الثبوت على حالتى الّتى كنت عليها. ثمّ بدا لى أن أسبر ما أخاف ألّا أصبر عليه من الأذى والضيق والخشونة فى النسك؛ وما يصيب صاحب الدنيا من البلاء؛ وكان عندى أنّه ليس شىء من شهوات الدنيا ولذّاتها إلا وهو متحوّل إلى الأذى ومولّد للحزن. فالدنيا كالماء الملح الذى لا يزداد شاربه شربا، إلّا ازداد عطشا. وهى كالعظم الّذى يصيبه الكلب فيجد فيه ريح اللحم؛ فلا يزال يطلب ذلك حتى يُدْمِىَ فاه. وكالحدَأة الّتى تظفر بقطعة من اللحم، فيجتمع عليها الطير، فلا تزال تدور وتدأب حتّى تُعْيِىَ وتعطب؛ فإذا تعبت ألقت ما معها. وكالكوز من العسل الذى فى أسفله السم الذى يذاق منه حلاوة عاجلة وآخره موت ذُعاف[1]؛ وكأحلام النائم التى يفرح بها الإنسان فى نومه، فإذا استيقظ ذهب الفرح. فلمّا فكّرت فى هذه الأمور،

---

(١) ذعاف سريع

رجعت إلى طلب النسك ، وهزّنى الاشتياق إليه ؛ ثم خاصمت نفسى إذ هي فى شرورها سارحة ، وقد لاتثبت على أمر تعزم عليه : كقاض سمع من خصم واحد فحكم له ، فلمّا حضر الخصم الثانى عاد إلى الأوّل وقضى عليه . ثمّ نظرت فى الّذى أكابده من احتمال النسك وضيقه ، فقلت : ما أصغر هذه المشقّة فى جانب روح الأبد وراحته . ثمّ نظرت فيما تَتَشَرَّه إليه النفس من لذّة الدنيا ، فقلت : ما أمرّ هذا وأوجعه ، وهو يدفع إلى عذاب الأبد وأهواله ! وكيف لا يستحلى الرجل مرارة قليلة تعقبها حلاوة طويلة ؟ وكيف لاتمرّ عليه حلاوة قليلة تعقبها مرارة دائمة ؟ وقلت : لو أنّ رجلا عرض عليه أن يعيش مائة سنة ، لا يأتى عليه يوم واحد إلّا بُضِعَ[1] منه بَضْعة[2] ، ثمّ أعيد عليه من الغد ؛ غير أنه يشرط له ، إذا استوفى السنين المائة ، نجا من كلّ ألم وأذى ، وصار إلى الأمن والسرور ، كان حقيقا ألّا يرى تلك السنين شيئا . وكيف يأبى الصبر على أيّام قلائل يعيشها فى النسك ، وأذى تلك الأيام قليل يعقب خيرا كثيرا ؟ فلنعلم أنّ الدنيا كلّها بلاء وعذاب . أوليس الإنسان إنّما يتقلّب فى عذاب الدنيا من حين يكون جنينا إلى أن يستوفى أيّام حياته ؟ فإذا كان طفلا ذاق من العذاب ألوانا : إن جاع فليس به استطعام ، أو عطش فليس به استسقاء ، أو وَجِع فليس به استغاثة ؛ مع ما يلقى من الوضع والحمل واللف والدهن والمسح ؛ إن أنيم على ظهره لم يستطع تقلّبا ؛ ثمّ يلقى أصناف العذاب مادام رضيعا ، فإذا أَفْلَتَ[3] من عذاب الرضاع ، أخذ فى عذاب الأدب ، فأذيق منه ألوانا : من عنف المعلّم ،

(١) قطع (٢) قِطعة (٣) خلص

وضجر الدرس، وسآمة الكتابة؛ ثمّ له من الدواء والحِمْية والأسقام والأوجاع أو في حظّ . فإذا أدْرَكَ كانت همّته في جمع المال وتربية الولد ومخاطرة الطلب والسعي والكدّ والتعب . وهو مع ذلك يتقلّب مع أعدائه الباطنيّة اللازمة له : وهي الصفراء والسوداء والريح والبلغم والدم والسمّ المميت والحيّة اللادغة؛ مع الخوف من السباع والهَوَامّ؛ مع صرف الحرّ والبرد والمطر والرياح؛ ثمّ أنواع عذاب الهَرَم لمن يبلغه . فلو لم يخف من هذه الأمور شيئا ،وكان قد أمن ووثق بالسلامة منها فلم يفكّر فيها ،لوجب عليه أن يعتبر بالساعة الّتي يحضره فيها الموت ، فيفارق الدنيا؛ ويتذكّر ما هو نازل به في تلك الساعة : من فراق الأحبة والأهل والأقارب وكلّ مضنون به من الدنيا، والإشراف على الهول العظيم بعد الموت . فلو لم يفعل ذلك، لكان حقيقا أن يعدّ عاجزا مفرّطا محبّا للدّناءة مستحقّا للوم؛ فمن ذا الّذي يعلم ولا يحتال لغدٍ جهده في الحيلة ، ويرفض ما يشغله ويلهيه من شهوات الدنيا وغرورها ؟ ولا سيما في هذا الزمان الشبيه بالصافي وهو كدر : فإنّه وإن كان الملك حازما عظيم المَقْدَرة ، رفيع الهمة بليغ الفحص، عدلا مرجوّا صدوقا شكورا ، رحب الذراع، مفتقدا مواظبا مستمرّا عالما بالناس والأمور، محبّا للعلم والخير والأخيار، شديدا على الظَّلَمة، غير جبان ولا خفيف القياد، رفيقا بالتوسّع على الرعيّة فيما يحبون، والدفع لما يكرهون؛ فإنّا قد نرى الزمان مُدْبِرًا بكلّ مكان، فكأنّ أمور الصدق قد نزعت من الناس ، فأصبح ما كان عزيزا فقده مفقودا، وموجودا ما كان ضائرا[1] وجوده،

(١) ضارا

وكأنّ الخير أصبح ذابلا والشر ناضرا . وكأنّ الفهم أصبح قد زالت سبله . وكأنّ الحق ولّى كسيرا وأقبل الباطلُ تابِعَهُ . وكأنّ اتباع الهوى وإضاعة الحكم أصبح بالحكّام موكلا؛ وأصبح المظلوم بالحيف مقرّا ، والظالم لنفسه مستطيلا . وكأنّ الحرص أصبح فاغرا[1] فاه من كلّ جهة يتلقّف ماقرب منه ومابعد . وكأنّ الرضا أصبح مجهولا . وكأن الأشرار يقصدون السماء صعودا . وكأنّ الأخيار يريدون بطن الأرض؛ وأصبحت المروءة مقذوفا بها من أعلى شرف إلى أسفل درك؛ وأصبحت الدناءة مكرّمة مُمَكَّنَةً ؛ وأصبح السلطان[2] منتقلا عن أهل الفضل إلى أهل النقص . وكأنّ الدنيا جَذِلَةٌ مسرورة تقول : قد غُيِّبَت الخيرات وأظْهِرَت السيّئات . فلمّا فكّرت فى الدنيا وأمورها؛ وأنّ الإنسان هو أشرف الخلق فيها وأفضله؛ ثمّ هو لايتقلب إلّا فى الشرور والهموم ، عرفت أنّه ليس إنسان ذو عقل يعلم ذلك ثم لايحتال لنفسه فى النجاة؛ فعجبت من ذلك كلّ العجب . ثمّ نظرت فإذا الإنسان لايمنعه عن الاحتيال لنفسه إلّا لذّة صغيرة حقيرة غير كبيرة من الشمّ والذوق والنظر والسمع واللمس : فعله يصيب منها الطفيف أو يقتنى منها اليسير؛ فإذا ذلك يشغله ويذهب به عن الاهتمام لنفسه وطلب النجاة لها .

فالتمست للإنسان مثلا ، فإذا مثله مثل رجل نجا من خوف فيل هائج إلى بئر ، فتدلّى فيها ، وتعلّق بغصنين كانا على سمائها ، فوقعت رجلاه على شىء فى طىّ البئر . فإذا حيّات أربع قد أخرجن رءوسهنّ

(١) فاتحا (٢) المراد هنا القدرة

من أجحارهنّ؛ ثمّ نظر فإذا فى قاع البئر تِنِّينٌ[(١)] فاتح فاه منتظر له ليقع فيأخذه؛ فرفع بصره إلى الغصنين فإذا فى أصلهما جُرَذَانِ[(٢)] أسود وأبيض، وهما يَقْرِضان الغصنين دائبين لا يَفْتُرَان؛ فبينما هو فى النظر لأمره والاهتمام لنفسه، إذ أبصر قريبا منه كَوَارَةً[(٣)] فيها عسل نحل؛ فذاق العسل؛ فشغلته حلاوته وألهته لذته عن الفكرة فى شىء من أمره، وأن يلتمس الخلاص لنفسه؛ ولم يذكر أنّ رجليه على حيّات أربع لايدرى متى يقع عليهنّ؛ ولم يذكر أن الجُرَذَيْن دائبان فى قطع الغصنين؛ ومتى انقطعا وقع على التنّين . فلم يزل لاهيا غافلا مشغولا بتلك الحلاوة حتّى سقط فى فم التنّين فهلك . فشبّهت بالبئر الدنيا المملوءة آفات وشرورا، ومخافات وعاهات؛ وشبّهت بالحيّات الأربع الأخلاط الأربعة الّتى فى البدن : فإنّها متى هاجت أو أحدها كانت كَحُمَةِ[(٤)] الأفاعى والسمّ المميت؛ وشبّهت بالغصنين الأجل الّذى لابدّ من انقطاعه؛ وشبّهت بالجُرَذَيْن الأسود والأبيض الليل والنهار اللذين هما دائبان فى إفناء الأجل؛ وشبّهت بالتنّين المصير الّذى لابدّ منه؛ وشبّهت بالعسل هذه الحلاوة القليلة الّتى ينال منها الإنسان فيطعم ويسمع ويشمّ ويلمس، ويتشاغل عن نفسه، ويلهو عن شأنه، ويصدّ عن سبيل قصده . فحينئذ صار أمرى إلى الرضا بحالى وإصلاح مااستطعت إصلاحه من عملى : لعلّى أصادف باقى أيامى زمانا أصيب فيه دليلا على هداى، وسلطانا[(٥)] على نفسى، وقواما لأمرى، فأقمت على هذه

(١) ضرب من الحيات (٢) مثنى جُرَذ ضرب من الفأر (٣) شىء يتخذ للنحل من القضبان وهى الخلية (٤) سمها وضرها (٥) حجة

الحال وانتسخت كتبا كثيرة، وانصرفت من بلاد الهند، وقد نسخت هذا الكتاب . (انقضى باب برزويه المتطبّب)

باب الأسد والثور وهو أوّل الكتاب

قال دَبْشَلِيمُ المَلِكُ لبيدَبَا الفَيلَسوف، وهو رأس البراهمة: اضْرِبْ لي مَثَلًا لمتحابَّيْنِ يَقْطَعُ بينهما الكذوبُ المحتالُ، حتّى يحمِلَهما على العداوة والبغضاء . قال بيدبا : إذا ابتُلِيَ المتحابّان بأن يدخل بينهما الكذوبُ المحتالُ، لم يلبثا أن يتقاطعا ويتدابرا . ومن أمثالِ ذلكَ أنّه كانَ بأرضِ دَستَاوَنْد رجلٌ شيخٌ، وكان له ثلاثةُ بَنِين . فلمّا بلغوا أشُدَّهم أسرفوا في مالِ أبيهم، ولم يكونوا احترفوا حِرْفةً يكسِبونَ لأنفسهم بها خيرًا . فلامَهم أبوهم، ووعَظَهم على سوءِ فِعلهم، وكان من قوله لهم : يا بَنِيّ إنّ صاحبَ الدنيا يَطلُبُ ثلاثةَ أمورٍ لن يُدرِكَها إلّا بأربعةِ أشياءَ : أمّا الثلاثةُ الّتي يَطلب، فالسعةُ في الرزق والمنزلة في الناس والزادُ للآخرة؛ وأمّا الأربعةُ الّتي يحتاج إليها في دركِ هذه الثلاثة، فاكتسابُ المالِ من أحسنِ وجهٍ يكون، ثمّ حسنُ القيامِ على ما اكتسب منه، ثم استثمارُه، ثمّ إنفاقُه فيما يُصلِحُ المعيشة ويُرضِي الأهلَ والإخوانَ، فيعودُ عليه نفعُه في الآخرة . فمن ضيّع شيئا من هذه الأحوال، لم يُدرِكْ ما أرادَ من حاجتِهِ : لأنّه إن لم يكتسب، لم يكنْ له مالٌ يعيش به؛ وإن هو كانَ ذا مالٍ واكتسابٍ ثمّ لم يحسِنِ القيامَ عليه، أوشكَ المالُ أن يَفنَى ويَبقَى مُعدِمًا؛ وإن هو وضعَه ولم يَستَثمِرْه، لم تمنعه قِلّةُ الإنفاقِ من سُرعة الذهاب : كالكحلِ الّذي لا يُؤخَذُ منه إلّا غُبارُ المِيلِ ثمّ هو

مع ذلك سريعٌ فناؤه. وإنْ أَنفقه فى غيرِ وجهِه، ووضعه فى غيرِ موضعِه، وأخطأ به مَواضِعَ استحقاقِه، صار بمنزلةِ الفقيرِ الّذى لا مالَ له؛ ثمّ لا يمنعُ ذلك ماله من التلف بالحوادث والعلل الّتى تجرى عليه، كمحبَسِ الماءِ الّذى لا تزال المياه تنصبّ فيه، فإن لم يكن له مَخرَجٌ ومَفيضٌ ومُتنفَّسٌ يخرج الماء منه بقدر ما ينبغى، خَرِبَ وسال ونَزّ من نواحٍ كثيرة، وربما انبثقَ[1] البثقُ العظيمُ فذهب الماءُ ضياعًا. ثمّ إنّ بَنِي الشيخ اتّعظوا بقول أبيهم وأخذوا به وعَلِموا أنّ فيه الخيرَ وعوّلوا عليه؛ فانطلق أكبرُهم نَحوَ أرض يقال لها مَيّون؛ فأتى فى طريقه على مكان فيه وَحَلٌ كثير؛ وكان معه عَجَلَةٌ يجرّها ثوران يقال لأحدهما شَتْرَبَةُ والآخر بَنْدَبَةُ؛ فوَحِل شَتْرَبَةُ فى ذلك المكان؛ فعالجه الرجل وأصحابه حتّى بلغ منهم الجهد، فلم يقدروا على إخراجه؛ فذهب الرجل وخلف عنده رجلا يشارفه: لعلّ الوَحلَ يَنْشَفُ فيتبعه بالثور. فلمّا بات الرجل بذلك المكان، تَبَرَّمَ[2] به واستوحش؛ فترك الثور والتحق بصاحبه، فأخبره انّ الثور قد مات؛ وقال له: إن الإنسان إذا انقضت مدّته وحانت منيته فهو وإن اجتهد فى التوقّى من الأمور الّتى يخاف فيها على نفسه الهلاكَ لم يغن ذلك عنه شيئا؛ وربما عاد اجتهاده فى توقّيه وحذره وبالا عليه[3]

كالذى قيل: إنّ رجلا سلك مفازة فيها خوف من السباع؛ وكان الرجل خبيرا بوَعْث تلك الأرض وخوفها؛ فلمّا سار غير بعيد اعترض له ذئب من أحَدّ الذئاب وأضراها؛ فلمّا رأى الرجل أنّ الذئب قاصد

(١) انشق وانفجر (٢) ضجر (٣) وخيم العاقبة

نحوه خاف منه، ونظر يمينا وشمالا ليجد موضعا يتحرّز فيــه من الذئب فلم ير إلّا قرية خلف واد؛ فذهب مسرعا نحو القرية؛ فلمّا أتى الوادى لم ير عليه قنطرة ، ورأى الذئب قد أدركه ، فألقى نفســه فى المـاء، وهو لايحسن السـباحة، وكاد يغرق، لولا أن بصر به قوم من أهــل القرية، فتواقعوا لإخراجه فأخرجوه، وقد أشرف على الهلاك؛ فلمّـا حصل الرجل عندهم وأمن على نفسه من غائلة الذئب رأى على عُدْوة[1] الوادى بيتا مفردا؛ فقال: أدخل هذا البيت فأستريح فيه. فلمّا دخله وجد جمـاعة من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجل من التجار، وهم يقتسمون ماله؛ ويريدون قتــله؛ فلمّـا رأى الرجل ذلك خاف على نفسه ومضى نحو القرية؛ فأسـند ظهره إلى حائط من حيطانها ليستريح ممّا حلّ به من الهول والإعياء، إذ سقط الحائط عليه فمات. قال التاجر: صدقت؛ قد بلغنى هذا الحديث. وأمّا الثور فإنّه خلص من مكانه وانبعث؛ فلم يزل فى مَرْج مخصب كثير المـاء والكلأ؛ فلمّا سمن وأمن جعل يخور ويرفع صوته بالخُوَار. وكان قريبا منه أجمة فيها أسـد عظيم؛ وهو ملك تلك الناحيـة، ومعه سـباع كثيرة وذئاب وبنات آوى وثعالب وفهود ونمور؛ وكان هذا الأسـد منفردا برأيه دون أخذ برأى أحد من أصحابه. فلمّا سمع خوار الثور، ولم يكن رأى ثورا قط، ولاسمع خواره؛ لأنّه كان مقيما مكانه لايبرح ولا ينشط؛ بل يؤتى برزقه كلّ يوم على يد جنده. وكان فيمن معه من السباع ابنا آوى يقال لأحدهما كليلة والآخر دمنــة؛ وكانا ذَوَىْ دهاء وعلم وأدب.

---

(١) العُدْوة بضم العين وكسرها جانب الوادى

فقال دمنة لأخيه كليلة : يا أخى ماشأن الأسد مقيما مكانه لا يبرح ولا ينشط؟ قال له كليلة : ماشأنك أنت والمسألة عن هذا؟ نحن على باب ملكنا آخذين بما أحبّ وتاركين مايكره؛ ولسنا من أهل المرتبة التى يتناول أهلها كلام الملوك والنظر فى أمورهم . فأمسك عن هذا، واعلم أنّه من تكلّف من القول والفعل ماليس من شأنه أصابه ماأصاب القرد من النجار .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟ قال كليلة : زعموا أنّ قردا رأى نجّارا يشقّ خشبة بين وتدين ، وهو راكب عليها؛ فأعجبه ذلك . ثمّ إنّ النجّار ذهب لبعض شأنه . فقام القرد، وتكلّف ما ليس من شغله ، فركب الخشبة، وجعل ظهره قبل الوتد، ووجهه قِبل الخشبة؛ فتدلّى ذنبه فى الشقّ، ونَزِعَ الْوَتِدُ فلزم(1) الشقّ عليه فخرّ مغشيّا عليه . ثمّ إنّ النجّار وافاه فرآه موضعه، فأقبل عليه يضربه . فكان مالقى من النجّار من الضرب أشدّ ممّا أصابه من الخشبة . قال دمنة : قد سمعت ماذكرت ، ولكن اعلم أنّ كلّ من يدنو من الملوك ليس يدنو منهم لبطنه، وإنّما يدنو منهم ليسر الصديق ويكبت العدوّ . وإنّ من الناس من لامروءة له ؛ وهم الّذين يفرحون بالقليل ويرضون بالدون ؛ كالكلب الّذى يصيب عظما يابسا فيفرح به . وأمّا أهل الفضل والمروءة فلا يقنعهم القليل ، ولا يرضون به ، دون أن تسمو به نفوسهم إلى ماهم أهل له ، وهو أيضا لهم أهل؛ كالأسد الّذى يفترس الأرنب ، فإذا رأى البعير تركها وطلب البعير ؛ ألا ترى أنّ الكلب يبصبص(2) بذنبه ،

(١) انضم (٢) يحرك ذنبه

حتّى ترمى له الكسرة . وأنّ الفيل المعترف بفضله وقوّته إذا قدّم إليه علفه لا يعتلفه حتّى يُمسّح ويتملّق له . فمن عاش ذا مال وكان ذا فضل وإفضال على أهله وإخوانه فهو وإن قلّ عمره طويل العمر . ومن كان فى عيشه ضيق وقلّة وإمساك على نفسه وذويه فالمقبور أحيا منه. ومن عمل لبطنه وقنع وترك ماسوى ذلك عدّ من البهائم .

قال كليلة : قد فهمت ماقلت ؛ فراجع عقلك ، واعلم أنّ لكلّ إنسان منزلة وقدرا . فإن كان فى منزلته الّتى هو فيها متماسكا ، كان حقيقا أن يقنع . وليس لنا من المنزلة مايحطّ حالنا الّتى نحن عليها . قال دمنة : إنّ المنازل متنازعة مشتركة على قدر المروءة ؛ فالمرء ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرفيعة ؛ ومن لامروءة له يحطّ نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة . وإنّ الارتفاع إلى المنزلة الشريفة شديد ، والانحطاط منها هيّن ؛ كالحجر الثقيل : رفعه من الأرض إلى العاتق عسر ، ووضعه إلى الأرض هيّن . فنحن أحقّ أن نروم مافوقنا من المنازل ، وأن نلتمس ذلك بمروءتنا . ثمّ كيف نقنع بها ونحن نستطيع التحوّل عنها ؟ قال كليلة : فما الّذى اجتمع عليه رأيك ؟ قال دمنة : أريد أن أتعرّض للأسد عند هذه الفرصة : فإنّ الأسد ضعيف الرأى ، ولعلّى على هذه الحال أدنو منه فأصيب عنده منزلة ومكانة . قال كليلة : ومايدريك أنّ الأسد قد التبس عليه أمره؟ قال دمنة : بالحسّ والرأى أعلم ذلك منه : فإنّ الرجل ذا الرأى يعرف حال صاحبه وباطن أمره بما يظهر له من دلّه وشكله . قال كليلة : فكيف ترجو المنزلة عند الأسد ولست بصاحب السلطان ، ولا لك علم بخدمة السلاطين ؟

قال دمنة : الرجل الشديد القوىّ لايعجزه الحمل الثقيل، وإن لم تكن عادته الحمل ؛ والرجل الضعيف لا يستقلّ به ، وإن كان ذلك من صناعته . قال كليلة : فإنّ السلطان لايتوخّى بكرامته فضلاء من بحضرته ؛ ولكنّه يؤثر الأدنىٰ ومن قرب منه . ويقال : إنّ مثل السلطان فى ذلك مثل شجر الكرم الّذى لايعلق إلّا بأقرب الشجر . وكيف ترجو المنزلة عند الأسـد ولست تدنو منـه ؟ قال دمنـة : قد فهمت كلامك جميعه وماذكرت ، وأنت صادق . لكن أعلم أنّ الّذى هو قريب من السلطان ولاذلك موضعه ولاتلك منزلته ، ليس كمن دنا منه بعد البعد وله حقّ وحرمة ؛ وأنا ملتمس بلوغ مكانتهم بجهدى . وقد قيل : لايواظب على باب السلطان إلّا من يطرح الأنفة ويحمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس ويكتم السرّ ؛ فإذا وصل إلى ذلك فقد بلغ مراده . قال كليلة : هبك وصلت إلى الأسد ، فما توفيقك عنده الّذى ترجو أن تنال به المنزلة والحُظوة لديه؟ قال دمنة : لو دنوت منه وعرفت أخلاقه ، لرفقت فى متابعته وقلّة الخلاف له . وإذا أراد أمرا هو فى نفسه صواب ، زيّنته له وصبّرته عليه ، وعرّفته بمـا فيه من النفع والخير ، وشجّعته عليه وعلى الوصول إليه ، حتّى يزداد به سرورا . وإذا أراد أمرا يخاف عليه ضرّه وشينه ، بصّرته بما فيه من الضر والشين ، وأوقفته على مافى تركه من النفع والزين ، بحسب ماأجد إليه السبيل . وأنا أرجو أن أزداد بذلك عند الأسد مكانة ويرى منى مالايراه من غيرى : فإنّ الرجل الأديب الرفيق لو شاء ان يبطل حقّا أو يحقّ باطلا لفعل : كالمصوّر الماهر الذى يصوّر فى الحيطان صورا كأنّها خارجة وليست بخارجة ، وأخرى كأنّها داخلة

وليست بداخلة . قال كليلة : أما إن قلت هذا أو قلت هذا فإنى أخاف عليك من السلطان فإن صحبته خطرة . وقد قالت العلماء : إن أمورا ثلاثة لا يجترئ عليهن إلا أهوج ، ولا يسلم منهن إلا قليل ، وهى : صحبة السلطان ، وائتمان النساء على الأسرار ، وشرب السم للتجربة . إنما شبه العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقى الذى فيه الثمار الطيبة والجواهر النفيسة والأدوية النافعة . وهو مع ذلك معدن السباع والنمور والذئاب وكل ضار مخوف . فالارتقاء إليه شديد ، والمقام فيه أشد . قال دمنة : صدقت فيما ذكرت ، غير أنه من لم يركب الأهوال ، لم ينل الرغائب ، ومن ترك الأمر الذى لعله يبلغ فيه حاجته هيبة ومخافة لما لعله أن يتوقاه ، فليس ببالغ جسيما . وقد قيل : إن خصالا ثلاثا لن يستطيعها أحد إلا بمعونة من علو همة وعظيم خطر : منها عمل السلطان وتجارة البحر ومناجزة[1] العدو . وقد قالت العلماء فى الرجل الفاضل الرشيد : إنه لا يرى إلا فى مكانين ، ولا يليق به غيرهما : إما مع الملوك مكرما ، وإما مع النساك متعبدا ، كالفيل إنما جماله وبهاؤه فى مكانين : إما أن تراه وحشيا أو مركبا للملوك . قال كليلة : خار[2] الله لك فيما عزمت عليه .

ثم إن دمنة انطلق حتى دخل على الأسد فسلم عليه . فقال الأسد لبعض جلسائه : من هذا ؟ فقال : فلان بن فلان . قال : قد كنت أعرف أباه . ثم سأله أين تكون ؟ قال : لم أزل ملازما باب الملك ، رجاء أن يحضر أمر فأعين الملك فيه بنفسى ورأيى : فإن أبواب الملوك تكثر

(١) مقاتلة (٢) جعل لك فيه الخير

فيها الأمور التى ربّما يحتاج فيها إلى الذى لا يؤبه[1] له؛ وليس أحد يصغر أمره إلا وقد يكون عنده بعض الغناء والمنافع على قدره؛ حتى العود الملقى فى الأرض ربما نفع، فيأخذه الرجل فيكون عدّته عند الحاجة إليه. فلمّا سمع الأسد قول دمنة أعجبه، وظن أنّ عنده نصيحة ورأيا. فأقبل على من حضر فقال: إنّ الرجل ذا العلم والمروءة يكون خامل الذكر خافض المنزلة، فتأبى منزلته إلّا أن تشبّ وترتفع؛ كالشعلة من النار يضربها صاحبها وتأبى إلّا ارتفاعا. فلمّا عرف دمنة أنّ الأسد قد عجب منه قال: إنّ رعيّة الملك تحضر باب الملك، رجاء أن يعرّف ما عندها من علم وافر. وقد يقال: إنّ الفضل فى أمرين: فضل المقاتل على المقاتل والعالم على العالم. وإنّ كثرة الأعوان إذا لم يكونوا مختبرين ربما تكون مضرة على العمل: فإنّ العمل ليس رجاؤه بكثرة الأعوان ولكن بصالحى الأعوان. ومثل ذلك مثل الرجل الذى يحمل الحجر الثقيل، فيثقل به نفسه، ولا يجد له ثمنا. والرجل الذى يحتاج إلى الجذوع لا يجزئه القصب وإن كثر. فأنت الآن أيها الملك حقيق ألّا تحقر مروءة أنت تجدها عند رجل صغير المنزلة: فإنّ الصغير ربما عظم، كالعصب يؤخذ من الميتة فإذا عمل منه القوس أكرم، فتقبض عليه الملوك وتحتاج إليه فى البأس واللهو.

وأحبّ دمنة أن يرى القوم أنّ ما ناله من كرامة الملك إنّما هو لرأيه ومروءته وعقله: لأنّهم عرفوا قبل ذلك أنّ ذلك لمعرفته أباه، فقال: إنّ السلطان لا يقرّب الرجال لقرب آبائهم، ولا يبعدهم لبعدهم، ولكن

(١) يفطن

ينبغى أن ينظر إلى كلّ رجل بما عنده : لأنّه لاشىء اقرب إلى الرجل من جسده ومن جسده مايدْوَى(١) حتّى يؤذيه ولا يدفع ذلك عنه إلّا بالدواء الّذى يأتيه من بعد .

فلما فرغ دمنة من مقالته هذه أُعْجِبَ الملك به إعجابا شديدا، وأحسن الرّد عليه، وزاد فى كرامته . ثمّ قال بجلسائه : ينبغى للسلطان ألّا يلج فى تضييع حقّ ذوى الحقوق . والناس فى ذلك رجلان: رجل طبعه الشراسة، فهو كالحية إن وطئها الواطئ فلم تلدغه، لم يكن جديرا أن يغرّه ذلك منها، فيعود إلى وطئها ثانيا فتلدغه؛ ورجل أصل طباعه السهولة، فهو كالصندل البارد الذى إذا أفرط فى حكّه صار حارّا مؤذيا .

ثمّ إنّ دمنة استأنس بالأسد وخلا به . فقال له يوما : أرى الملك قد أقام فى مكان واحد لايبرح منه، فما سبب ذلك؟ فبينما هما فى هذا الحديث إذ خار شتربة خُوَارًا شديدا : فهَيّجَ الأسدَ، وكره أن يخبر دمنة بما ناله؛ وعلم دمنة أنّ ذلك الصوت قد أدخل على الأسد ريبةً(٢) وهيبة . فسأله : هل راب الملك سماع هذا الصوت ؟ قال لم يَرِبْنِي شىء سوى ذلك . قال دمنة : ليس الملكُ بحقيقٍ أن يدع مكانه لأجل صوت . فقد قالت العلماء : إنّه ليس من كلّ الأصوات تجب الهيبة . قال الأسد : وما مثل ذلك؟

قال دمنة : زعموا أن ثعلبا أتى أجَمةً(٣) فيها طبل معلّق على شجرة، وكلّما هبّت الريحُ على قضبانِ تلكَ الشجرةِ حرّكتها ، فضربت الطبل فسُمع له صوت عظيم؛ فتوجّهَ الثعلبُ نحوه لأجل ماسَمِعَ مِنْ عِظَم

(١) يمرض (٢) ظنّا لما يخاف منه (٣) الشجر الكثير الملتف

صوته؛ فلمّا أتاه وجده ضخمًا، فأيقن فى نفسه بكثرة الشحم واللحم. فعالجه حتّى شقّه. فلمّا رآه أجوف لاشىء فيه، قال: لاأدرى لعلّ أفشل الأشياء أجهرها صوتا وأعظمها جثّة. وإنّما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنّ هذا الصوت الّذى راعنا، لو وصلنا إليه، لوجدناه أيسر ممّا فى أنفسنا. فإن شاء الملك بعثنى وأقام بمكانه حتّى آتيه ببيان هذا الصوت. فوافق الأسد قوله، فأذن له بالذهاب نحو الصوت.
فانطلق دمنة إلى المكان الّذى فيه شتربة. فلمّا فصل دمنة من عند الأسد، فكّر الأسد فى أمره، وندم على إرسال دمنة حيث أرسله، وقال فى نفسه: ماأصبت فى ائتمانى دمنة، وقد كان ببابى مطروحا، فإنّ الرجل إذا كان يحضر باب الملك، وقدأبطلت حقوقه من غير جُرم كان منه، أوكان مبغيّا عليه عند سلطانه، أوكان عنده معروفا بالشره والحرص، أوكان قد أصابه ضرّ وضيق فلم ينعشه، أوكان قد اجترم جرما فهو يخاف العقوبة منه، أوكان يرجو شيئا يضرّ الملك وله منه نفع، أو يخاف فى شىء ممّا ينفعه ضرّا، أوكان لعدوّ الملك مسالمًا، ولمسالمه محاربا، فليس السلطان بحقيق أن يعجل بالاسترسال إليه، والثقة به، والائتمان له: فإنّ دمنة داهية أريب. وقد كان ببابى مطروحا مجفوّا. ولعلّه قد احتمل علىّ بذلك ضغنا، ولعلّ ذلك يحمله على خيانتى وإعانة عدوّى ونقيصتى عنده؛ ولعلّه صادف صاحب الصوت أقوى سلطانا منّى فيرغب به عنّى ويميل معه علىّ. ثمّ قام من مكانه فمشى غير بعيد، فبصر بدمنة مقبلا نحوه، فطابت نفسه بذلك، ورجع إلى مكانه؛ ودخل دمنة على الأسد فقال له: ماذا صنعت؟

وماذا رأيت ؟ قال : رأيت ثورا هو صاحب الخوار والصوت الذى سمعته . قال : فما قوته ؟ قال : لاشوكةَ له . وقد دنوت منه وحاورته محاورة الأكفاء فلم يستطع لى شيئا . قال الأسد : لايغرّنك ذلك منه ولا يصغرنّ عندك أمره : فإنّ الريحَ الشديدة لاتعبأ بضعيف الحشيش ، لكنها تحطم طوال النخل وعظيم الشجر . قال دمنة : لاتهابنّ أيها الملك منه شيئا ؛ ولا يكبرنّ عليك أمره : فأنا آتيك به ليكون لك عبدا سامعا مطيعا . قال الأسد : دونك وما بدا لك .

فانطلق دمنة إلى الثور، فقال له غير هائب ولا مكترث : إنّ الأسد أرسلنى إليك لآتيه بك . وأمرنى ، إن أنت عجِلت إليه طائعا ، أن أؤمّنك على ماسلف من ذنبك فى التأخّر عنه وتركك لقاءه ؛ وإن أنت تأخّرت عنه وأحجمت ، أن أعجّل الرجعة إليه فأخبره . قال له شتربة : ومن هو هذا الأسد الّذى أرسلك إلىّ ؟ وأين هو ؟ وما حاله ؟ قال دمنة : هو ملك السباع ، وهو بمكان كذا ، ومعه جند كثير من جنسه . فرَعَبَ شتربةَ من ذكر الأسد والسباع . وقال : إن أنت جعلت لى الأمان على نفسى أقبلت معك إليه . فأعطاه دمنة من الأمان ماوثق به . ثمّ أقبل والثور معه ، حتّى دخلا على الأسد فأحسن الأسد إلى الثور وقرّبه؛ وقال له : متى قدمت هذه البلاد ؟ وما أقدمكها ؟ فقصّ شتربة عليه قصّته . فقال له الأسد آصحبنى وآلزمنى : فإنّى مكرمك . فدعا له الثور وأثنى عليه .

ثمّ إنَّ الأسَدَ قرّبَ شتربَةَ وأكْرَمَهُ وأنِس به وأْتَمَنَهُ على أسراره وشاورَه فى أمره، ولم تَزِدْهُ الأيامُ إلاّ عجبًا به ورغبة فيه وتَقْرِيبًا منه؛

حتى صار أخصّ أصحابه عنده منزلة . فلمّا رأى دمنة أنّ الثور قد اختصّ بالأسد دونه ودون أصحابه ، وأنّه قد صار صاحب رأيه وخلواته ولهوه، حسده حسدا عظيما، وبلغ منه غيظه كلّ مبلغ : فشكا ذلك إلى أخيه كليلة، وقال له : ألا تعجب يا أخي من عجز رأيي، وصنعي بنفسي ؟ ونظري فيما ينفع الأسد ، وأغفلت نفع نفسي حتى جلبت إلى الأسد ثورا غلبني على منزلتي .

قال كليلة : أخبرني عن رأيك وما تريد أن تعزم عليه في ذلك .
قال دمنة : أمّا أنا فلست اليوم أرجو أن تزداد منزلتي عند الأسد فوق ما كانت عليه ، ولكن ألتمس أن أعود إلى ما كنت عليه : فإنّ أمورا ثلاثة، العاقل جدير بالنظر فيها، والاحتيال لها بجهده : منها النظر فيما مضى من الضرّ والنفع ، فيحترس من الضرّ الذي أصابه فيما سلف لئلاّ يعود إلى ذلك الضرّ، ويلتمس النفع الذي مضى ويحتال لمعاودته ؛ ومنها النظر فيما هو مقيم فيه من المنافع والمضارّ، والاستيثاق بما ينفع والهرب ممّا يضرّ ؛ ومنها النظر في مستقبل ما يرجو من قبل النفع ، وما يخاف من قبل الضرّ، فيستتمّ ما يرجو ويتوقّى ما يخاف بجهده . وإنّي لمّا نظرت في الأمر الذي به أرجو أن تعود منزلتي، وما غلبت عليه ممّا كنت فيه، لم أجد حيلة ولا وجها إلّا الاحتيال لآكل العشب هذا، حتّى أفرّق بينه وبين الحياة: فإنّه إن فارق الأسد، عادت لي منزلتي . ولعلّ ذلك يكون خيرا للأسد : فإنّ إفراطه في تقريب الثور خليق أن يشينه ويضرّه في أمره . قال كليلة : ما أرى على الأسد في رأيه في الثور ومكانه منه ومنزلته عنده شينا ولا شرّا . قال دمنة :

إنّما يُؤْتَى[1] السلطان ويفسُد أمْرُه من قبل ستة أشياء : الحرمان والفتنةُ والهوى والفظاظةُ والزمانُ والخُرْق .

فأمّا الحرمانُ فأَنْ يُحْرَمَ صالحَ الأعوانِ والنصحاءِ والساسة من أهل الرأى والنجدةِ والأمانةِ وتَرْكُ التفقّدِ لمن هو كذلك . (وأمّا الفتنةُ فهو تحارُبُ الناسِ) ووقوع الحرب بينهم . وأمّا الهوى فالغَرام بالحديث واللهو والشراب والصيد وما أشبه ذلك . وأمّا الفظاظة فهى إفراط الشدّة حتّى يَجْمَحَ اللسان بالشتم واليد بالبطش فى غير موضعهما . وأمّا الزمان فهو ما يصيبُ الناسَ من السنينَ والموت ونقص الثمرات والغزوات وأشباه ذلك . وأمّا الخُرْقُ فإعمالُ الشدّةِ فى مَوضِع اللِّين، واللِّينُ فى موضع الشدّة . وإنّ الأسد قد أُغْرِمَ بالثور إغراما شديدا هو الّذى ذكرت لك أنّه خليق أنْ يُشِينَه ويَضُرَّه فى أمره . قال كليلة : وكيف تُطِيقُ الثور وهو أشدّ منك وأكرمُ على الأسد منك وأكثر أعوانا ؟ قال دمنة : لا تنظر إلى صِغَرى وضعفى : فإنّ الأمورَ ليست بالضعف ولا القوّة ولا الصغر ولا الكبر فى الجثّة : فربّ صغيرٍ ضعيف قد بلغ بحيلته ودهائه ورأيه ما يَعْجِز عنه كثير من الأقوياء . أَوَ لَم يَبلُغْك أنّ غُرابا ضعيفا احتالَ لأَسْوَدَ حتى قتله ؟ قال كليلة : وكيف كانَ ذلك ؟

قال دمنة : زَعَموا أنّ غُرابا كان له وكْرٌ فى شجرة على جبل ؛ وكان قريبًا منه جُحر ثعبان أسْودَ ، فكان الغرابُ إذا فَرَّخَ عمد الأسودُ إلى فراخه فأكلها ؛ فبلغ ذلك من الغراب وأحزنه ، فشكا ذلك

(١) أُتِىَ فلانٌ كعُنِىَ أشرف عليه العدو، والمراد فُتِحَ بابُ الشرِّ عليه

إلى صديق له من بنات آوى ، وقال له : أريد مشاورتك فى أمر قد عزمت عليه ؛ قال : وماهو؟ قال الغراب : قد عزمت أن أذهب إلى الأسود إذا نام ، فأنقر عينيه ، فأفقأهما ، لعلّى أستريح منه . قال ابن آوى : بئس الحيلة الّتى احتلت ؛ فالتمس أمرا تصيب فيه بغيتك من الأسود ، من غير أن تغرّر بنفسك وتخاطر بها . وإيّاك أن يكون مثلك مثل العُلْجُوم[1] الّذى أراد قَتْلَ السرطان[2] فقتلَ نفسه . قال الغراب : وكيف كان ذلك ؟

قال ابن آوى : زعموا أنّ عُلْجُوما عشّش فى أجمة كثيرة السمك ؛ فعاش بها ماعاش ؛ ثمّ هَرِمَ فلم يستطع صيدا ؛ فأصابه جوعٌ وجهد شديد ؛ فجلس حزينا يلتمس الحيلة فى أمره ؛ فمرّ به سرطانٌ ، فرأى حالته وما هو عليه من الكآبة والحزن ؛ فدنا منه وقال : مالى أراكَ أيّها الطائر هكذا حزينا كئيبا ؟ قالَ العلجوم : وكيف لا أحزنُ وقد كنتُ أعيشُ من صيدِ ماهاهنا من السمك؟ وإنّى قد رأيت اليوم صيّادَيْنِ قد مرّا بهذا المكان ؛ فقال أحدهما لصاحبه : إنّ هاهنا سمكا كثيرا أفلا نصيده أوّلا ؟ فقال الآخر : إنّى قد رأيت فى مكانٍ كذا سمكا أكثرَ من هذا السمك ؛ فلنبدأ بذلك ، فإذا فرغنا منه جئنا إلى هذا فأفنيناه . وقد علمت أنّهما إذا فرَغا ممّا هناك ، انتهيا إلى هذه الأجمة فاصطادا ما فيها ؛ فإذا كان ذلك فهو هلاكى ونفادُ مدّتى . فانطلق السّرطانُ من ساعته إلى جماعة السمك فأخبرهنّ بذلك ؛ فأقبلْنَ إلى العُلْجوم فاستشرنه ؛ وقلن له : إنّا أتيناك لتشير علينا : فإنّ ذا العقلِ لا يدَعُ

(١) طائر أبيض (٢) حيوان بحرى معروف

مشاورة عدوّه . قال العلجوم : أمّا مكابرة الصيادين فلا طاقة لى بها ؛ ولا أعلم حيلة إلّا المصير إلى غدير قريب من هاهنا ، فيه سمك ومياه عظيمة وقصب ؛ فإن استطعتن الانتقال إليه ، كان فيه صلاحكنّ وخصبكنّ . فقلن له : ما يمنّ علينا بذلك غيرك . فجعل العلجوم يحمل فى كلّ يوم سمكتين حتّى ينتهى بهما إلى بعض التلال فيأكلهما ؛ حتّى إذا كان ذات يوم جاء لأخذ السمكتين ، فجاءه السرطان ؛ فقال له : إنّى أيضا قد أشفقت من مكانى هذا واستوحشت منه فاذهب بى إلى ذلك الغدير ؛ فاحتمله وطار به ، حتّى إذا دنا من التلّ الّذى كان يأكل السمك فيه نظر السرطان فرأى عظام السمك مجموعة هناك ؛ فعلم أنّ العلجوم هو صاحبها ؛ وأنّه يريد به مثل ذلك . فقال فى نفسه : إذا لقى الرّجل عدوّه فى المواطن الّتى يعلم أنّه فيها هالك ، سواء قاتل أم لم يقاتل ؛ كان حقيقا أن يقاتل عن نفسه كرما وحفاظا[1] ، ثمّ أهوى بكلبتيه[2] على عنق العلجوم ، فعصره فمات ؛ وتخلّص السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهنّ بذلك . وإنّما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنّ بعض الحيلة مهلكة للمحتال . ولكنّى أدلك على أمر ، إن أنت قدرت عليه ، كان فيه هلاك الأسود ، من غير أن تهلك به نفسك ، وتكون فيه سلامتك . قال الغراب : وما ذاك ؟

قال ابن آوى : تنطلق فتبصّر فى طيرانك : لعلّك أن تظفر بشىء من حلىّ النساء فتخطفه ؛ ولا تزال طائرا واقعا ، بحيث لا تفوت العيون ،

(١) أنفة (٢) كلبتا السّرطان هما قرناه اللذان يشبهان الأداة التى يأخذ بها الحدّاد الحديد المحمى أو التى يخرج بها النجار المسامير من الخشب (الكماشة)

حتّى تأتى بحر الأسود فترمى بالحلىِ عنده . فإذا رأى الناس ذلك أخذوا حليّهم وأراحوك من الأسود . فانطلق الغراب محلّقا (١) فى السماء؛ فوجد امرأة من بنات العظماء فوق سطح تغتسل؛ وقد وضعت ثيابها وحليّها ناحية ؛ فانقضّ واختطف من حليّها عقدا ، وطار به ، فتبعه الناس ؛ ولم يزل طائرا واقعا ، بحيث يراه كلّ أحد ؛ حتّى انتهى إلى بحر الأسود ؛ فألقى العِقْد عليه ، والناسُ ينظرون إليه . فلمّا أتوه أخذوا العقد وقتلوا الأسود . وإنّما ضربتُ لك هذا المثل لتعلم أنّ الحِيلةَ تجزئ مالا تجزئ القوّة . قال كليلة : إنّ الثورَ لو لم يجتمع مع شدّته رأيه لكان كما تقول . ولكن له مع شدّته وقوّته حسنَ الرأى والعقل . فماذا تستطيع له ؟ قال دمنة : إن الثور لَكَمَا ذكرتَ فى قوّته ورأيه ، ولكنّه مقرٌّ لى بالفضل؛ وأنا خليقٌ أنْ أصرَعَهُ كما صرعَتْ الأرنبُ الأسدَ . قال كليلة : وكيف كان ذلك ؟

قال دمنة : زعموا أنّ أسدا كان فى أرض كثيرة المياهِ والعشب ؛ وكان فى تلك الأرضِ من الوحوشِ فى سعة المياه والمرعى شىءٌ كثيرٌ ؛ إلّا أنّه لم يكن ينفعها ذلك : لخوفِها من الأسَدِ ؛ فاجتمعتْ وأتتْ إلى الأسد ، فقالت له : إنّك لتُصِيبُ منّا الدّابّةَ بعد الجهد والتعب ؛ وقد رأينا لك رأيا فيه صَلَاحٌ لَكَ وأمْنٌ لنا . فإن أنت أمّنْتنا ولم تخفنا ، فلك علينا فى كلّ يوم دابّة نرسِلُ بها إليك فى وقتِ غَدَائكَ : فرضِى الأسدُ بذلك ، وصالحَ الوحوشَ عليه ، ووفينَ له به . ثمّ إنّ أرنبا أصابتها القُرْعَةُ وصارت غَدَاءَ الأسَدِ ؛ فقالت للوحوش : إن أنتن رَفَقْتُنّ بى

(١) مُستديرا فى طيرانه كالحَلْقة

فيما لايضرّ كنّ، رجوت أن أريحكنّ من الأسد . فقالت الوحوش : وما الّذي تكلّفيننا من الأمور؟ قالت : تأمرن الذى ينطلـق بى إلى الأسـد أن يمهلنى ريثما أبطئ عليه بعض الإبطاء . فقلن لها : ذلك لك . فانطلقت الأرنب متباطئـة ، حتّى جاوزت الوقت الّذى كان يتغدّى فيه الأسد . ثمّ تقدّمت إليه وحدها رويدا ، وقد جاع ، فغضب وقام من مكانه نحوها ، فقال لها : من أين أقبلت؟ قالت : أنا رسول الوحوش إليك : بعثنى ومعى أرنب لك ، فتبعنى أسد فى بعض تلك الطريق ، فأخذها منى ، وقال : أنا أولى بهـذه الأرض وما فيها من الوحش . فقلت : إنّ هذا غداء الملك أرسلنى به الوحوش إليه . فلا تغصبنّه ، فسبّك وشتمك . فأقبلت مسرعة لأخبرك . فقال الأسد : انطلق معى فأرينى موضع هذا الأسـد . فانطلقت الأرنب إلى جبّ فيه ماء غامر صاف ، فاطّلعت فيه ، وقالت : هـذا المكان . فاطّلع الأسد ، فرأى ظلّه وظلّ الأرنب فى المـاء ، فلم يشكّ فى قولها ، ووثب إليه ليقاتله ، فغرق فى الجبّ . فانقلبت الأرنب إلى الوحوش فأعلمتهنّ صنيعها بالأسد . قال كليلة : إن قدرت على هلاك الثور بشىء ليس فيه مضرّة للأسـد فشأنك : فإنّ الثور قد أضرّ بى وبك وبغيرنا من الجند ، وإن أنت لم تقدر على ذلك إلّا بهلاك الأسد ، فلا تقدم عليه ، فإنّه غدر منى ومنك . ثمّ إنّ دمنة ترك الدخول على الأسد أياما كثيرة ، ثمّ أتاه على خلوة منه ، فقال له الأسد : ما حبسك عنّى؟ منذ زمان لم أرك . ألا لخير كان انقطاعك؟ قال دمنة : فليكن خيرا أيّها الملك . قال الأسد : وهل حدث أمر ؟ قال دمنة : حدث مالم يكن الملك

يريده ولا أحد من جنده . قال : وما ذاك ؟ قال : كلام فظيع .
قال : أخبرني به . قال دمنة إنه كلام يكرهه سامعه ، ولا يشجع عليه
قائله . وإنك أيها الملك لذو فضيلة ، ورأيك يدلك على أن يوجعني
أن أقول ما تكره ، وأثق بك أن تعرف نصحي وإيثاري إياك على
نفسي . وإنه ليعرض لي أنك غير مصدقي فيما أخبرك به ، ولكني إذا
تذكرت وتفكرت أن نفوسنا ، معاشر الوحوش ، متعلقة بك لم أجد
بدا من أداء الحق الذي يلزمني وإن أنت لم تسألني وخفت ألا
تقبل مني فإنه يقال : من كتم السلطان نصيحته والإخوان رأيه فقد
خان نفسه . قال الأسد : فما ذاك ؟

قال دمنة : حدثني الأمين الصدوق عندي أن شتربة خلا برءوس
جندك ، وقال : قد خبرت الأسد وبلوت رأيه ومكيدته وقوته :
فاستبان لي أن ذلك يؤول منه إلى ضعف وعجز ، وسيكون لي وله شأن
من الشؤون . فلما بلغني ذلك علمت أن شتربة خوان غدار ، وأنك
أكرمته الكرامة كلها ، وجعلته نظير نفسك ، وهو يظن أنه مثلك .
وأنك متى زلت عن مكانك صار له ملكك ، ولا يدع جهدا إلا
بلغه فيك . وقد كان يقال : إذا عرف الملك من الرجل أنه قد ساواه
في المنزلة والحال ، فليصرعه ، فإن لم يفعل به ذلك ، كان هو المصروع .
وشتربة أعلم بالأمور وأبلغ فيها ، والعاقل هو الذي يحتال للأمر قبل
تمامه ووقوعه : فإنك لا تأمن أن يكون ولا تستدركه . فإنه يقال :
الرجال ثلاثة : حازم وأحزم منه وعاجز ، فأحد الحازمين من إذا

نزل به الأمر لم يدهش له، ولم يذهب قلبه شَعاعاً(١)، ولم تعي به حيلته ومكيدته التي يرجو بها المخرج منه؛ وأحزم من هذا المتقدّم ذو العُدّة الّذي يعرف الابتلاء قبل وقوعه؛ فيعظّمه إعظاماً، ويحتال له حتّى كأنّه قد لزمه: فيحسم(٢) الداء قبل أن يبتلى به؛ ويدفع الأمر قبل وقوعه. وأمّا العاجز فهو فى تردّد وتمنّ وتوان حتّى يهلك . ومن أمثال ذلك مثل السمكات الثلاث. قال الأسد: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أنّ غديراً كان فيه ثلاث سمكات: كيّسة وأكيس منها وعاجزة؛ وكان ذلك الغدير بنجوة(٣) من الأرض لا يكاد يقربه أحد؛ وبقربه نهر جار. فاتّفق أنّه اجتاز بذلك النهر صيّادان؛ فأبصرا الغدير، فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا ما فيه من السمك. فسمع السمكات قولهما: فأمّا أكيسهنّ لما سمعت قولهما، ارتابت بهما، وتخوّفت منهما؛ فلم تعرّج(٤) على شىء حتّى خرجت من المكان الّذى يدخل فيه الماء من النهر الى الغدير. وأمّا الكيّسة فإنّها مكثت مكانها حتّى جاء الصيّادان؛ فلمّا رأتهما، وعرفت ما يريدان، ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء؛ فإذا بهما قد سدّا ذلك المكان؛ فحينئذ قالت: فرّطت، وهذه عاقبة التفريط؛ فكيف الحيلة على هذه الحال؟ وقلّما تنجح حيلة العجلة والإرهاق(٥)، غير أنّ العاقل لا يقنط من منافع الرأى، ولا ييأس على حال، ولا يدع الرأى والجهد. ثمّ إنّها تماوتت فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة، وتارة على

(١) متفرقا (٢) يقطع (٣) مرتفع من الأرض (٤) لم تقف
(٥) الضيق والعسر

بطنها، فأخذها الصيادان فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير، فوثبت إلى النهر فنجت. وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت.

قال الأسد: قد فهمت ذلك، ولا أظن الثور يغشني ويرجو لي الغوائل(١). وكيف يفعل ذلك ولم يرَ مني سوءاً قط؟ ولم أدع خيراً إلا فعلته معه؟ ولا أمنية إلا بلغته إياها؟. قال دمنة: إن اللئيم لا يزال نافعاً ناصحاً حتى يرفع إلى المنزلة التي ليس لها بأهل، فإذا بلغها التمس ما فوقها، ولا سيما أهل الخيانة والفجور: فإن اللئيم الفاجر لا يخدم السلطان ولا ينصح له إلا من فرق(٢). فإذا استغنى وذهبت الهيبة عاد إلى جوهره؛ كذنب الكلب الذي يربط ليستقيم فلا يزال مستوياً ما دام مربوطاً، فإذا حل انحنى واعوج كما كان. واعلم أيها الملك أنه من لم يقبل من نصحائه ما يثقل عليه مما ينصحون له به، لم يحمد رأيه، كالمريض الذي يدع ما يبعث له الطبيب، ويعمد إلى ما يشتهيه. ويحق على موازر السلطان أن يبالغ في التحضيض له على ما يزيد سلطانه قوة ويزينه، والكف عما يضره ويشينه، وخير الإخوان والأعوان أقلهم مداهنة في النصيحة، وخير الأعمال أحلاها عاقبة، وخير النساء الموافقة لبعلها، وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار، وأشرف الملوك من لم يخالطه بطر، وخير الأخلاق أعونها على الورع. وقد قيل: لو أن امرأ توسد النار وافترش الحيات، كان أحق ألا يهنئه النوم. والرجل إذا أحس من صاحبه بعداوة يريده بها، لا يطمئن إليه، وأعجز الملوك آخذهم بالهوينا، وأقلهم نظراً في مستقبل الأمور، وأشبههم بالفيل الهائج

(١) الدواهي (٢) خوف

الّذى لا يلتفت إلى شىء: فإن حزبه أمر تهاون به؛ وإن أضاع الأمور حمّل ذلك على قرنائه. قال له الأسد: لقد أغلظت فى القول؛ وقول الناصح مقبول محمول. وإن كان شتربة معاديا لى، كما تقول، فإنّه لا يستطيع لى ضرّا؛ وكيف يقدر على ذلك وهو آكل عشب وأنا آكل لحم؟ وإنّما هو لى طعام، وليس علىّ منه مخافة. ثمّ ليس إلى الغدر به سبيل بعد الأمان الّذى جعلته له، وبعد إكرامى له، وثنائى عليه. وإن غيّرت ما كان منى وبدّلته، سفهت رأيى وجهّلت نفسى وغدرت بذمّتى. قال دمنة: لا يغرّنّك قولك: هو لى طعام وليس علىّ منه مخافة: فإنّ شتربة إن لم يستطعك بنفسه إحتال لك من قبل غيره. ويقال: إن استضافك ضيف ساعة من نهار، وأنت لا تعرف أخلاقه فلا تأمنه على نفسك؛ ولا تأمن أن يصلك منه أو بسببه ما أصاب القملة من البرغوث. قال الأسد: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أنّ قملة لزمت فراش رجل من الأغنياء دهرا، فكانت تصيب من دمه وهو نائم لا يشعر، وتدبّ دبيبا رفيقا؛ فمكثت كذلك حينا حتّى استضافها ليلة من الليالى برغوث؛ فقالت له: بت الليلة عندنا فى دم طيّب وفراش لين؛ فأقام البرغوث عندها حتّى إذا أوى الرجل إلى فراشه وثب عليه البرغوث فلدغه لدغة أيقظته، وأطارت النوم عنه؛ فقام الرجل وأمر أن يفتّش فراشه؛ فنظر فلم ير إلّا القملة؛ فأخذت فقصعت[1] وفرّ البرغوث. وإنّما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنّ صاحب الشر لا يسلم من شرّه أحد؛ وإن هو ضعف

(١) قتلت بالظفر

عن ذلك جاء الشر بسببه . وإن كنت لا تخاف من شتربة ، فخف غيره من جندك الذين قد حملهم(١) عليك وعلى عداوتك . فوقع فى نفس الأسد كلام دمنة . فقال : فما الذى ترى إذا ؟ وبماذا تشير ؟ قال دمنة : إن الضرس لا يزال متأكلا ، ولا يزال صاحبه منه فى ألم وأذى حتى يفارقه . والطعام الذى قد عفن فى البطن ، الراحة فى قذفه . والعدو المخوف ، دواؤه قتله . قال الأسد : لقد تركتنى أكره مجاورة شتربة إياى ؛ وأنا مرسل إليه ، وذاكر له ما وقع فى نفسى منه ؛ ثم آمره باللحاق حيث أحب . فكره دمنة ذلك ، وعلم أن الأسد متى كلم شتربة فى ذلك وسمع منه جوابا عرف باطل ما أتى به ، واطلع على غدره وكذبه ، ولم يخف عليه أمره . فقال للأسد : أما إرسالك إلى شتربة فلا أراه لك رأيا ولا حزما ؛ فلينظر الملك فى ذلك : فإن شتربة متى شعر بهذا الأمر ، خفت أن يعاجل الملك بالمكابرة . وهو إن قاتلك ، قاتلك مستعدا ؛ وإن فارقك ، فارقك فراقا يليك منه النقص ، ويلزمك منه العار . مع أن ذوى الرأى من الملوك لا يعلنون عقوبة من لم يعلن ذنبه ؛ ولكن لكل ذنب عندهم عقوبة : فلذنب العلانية عقوبة العلانية ، ولذنب السر عقوبة السر . قال الأسد : إن الملك إذا عاقب أحدا عن ظنة(٢) ظنها من غير تيقن بجرمه ، فنفسه عاقب وإياها ظلم . قال دمنة : أما إذا كان هذا رأى الملك ، فلا يدخلن عليك شتربة إلا وأنت مستعد له ؛ وإياك أن تصيبك منه غرة أو غفلة : فإنى لا أحسب الملك حين يدخل عليه إلا سيعرف أنه قد هم بعظيمة .

(١) أغراهم (٢) تهمة

ومن علامات ذلك أنك ترى لونه متغيرا ، وترى أوصاله ترعد ، وتراه ملتفتا يمينا وشمالا ، وتراه يهز قرنيه فعل الذى هم بالنطاح والقتال .
قال الأسد : سأكون منه على حذر ، وإن رأيت منه ما يدل على ما ذكرت علمت أن ما فى أمره شك .

فلما فرغ دمنة من حمل الأسد على الثور ، وعرف أنه قد وقع فى نفسه ما كان يلتمس ، وأن الأسد سيتحذر الثور ، ويتهيأ له ، أراد أن يأتى الثور ليغريه بالأسد ، وأحب أن يكون إتيانه من قبل الأسد مخافة أن يبلغه ذلك فيتأذى به . فقال : أيها الملك ألا آتى شتربة فأنظر إلى حاله وأمره ، وأسمع كلامه : لعلى أطلع على سره ، فأطلع الملك على ذلك ، وعلى ما يظهر لى منه ؟ فأذن له الأسد فى ذلك . فانطلق فدخل على شتربة كالكئيب الحزين . فلما رآه الثور رحب به ، وقال : ما كان سبب انقطاعك عنى ؟ فإنى لم أرك منذ أيام ، ولعلك فى سلامة ! قال دمنة : ومتى كان من أهل السلامة من لا يملك نفسه ، وأمره بيد غيره ممن لا يوثق به ، ولا ينفك على خطر وخوف . حتى ما من ساعة تمر ويأمن فيها على نفسه . قال شتربة : وما الذى حدث ؟ قال دمنة : حدث ما قدر وهو كائن . ومن ذا الذى غالب القدر ؟ ومن ذا الذى بلغ من الدنيا جسيما من الأمور فلم يبطر ؟ ومن ذا الذى بلغ مناه فلم يغتر ؟ ومن ذا الذى تبع هواه فلم يخسر ؟ ومن ذا الذى طلب من اللئام فلم يحرم ؟ ومن ذا الذى خالط الأشرار فسلم ؟ ومن ذا الذى صحب السلطان فدام له منه الأمن والإحسان ؟
قال شتربة : إنى أسمع منك كلاما يدل على أنه قد رابك من الأسد

رَيب ، وهالَك منهُ أمْر . قال دمنة : أَجَلْ ، لَقَدْ رابَني مِنْهُ ذلِكَ ؛ ولَيسَ هُوَ في أمْرِ نَفْسِي . قال شتْرَبة : فَفِي نَفْسِ مَنْ رابَكَ ؟ قالَ دِمْنَة : قد تعلَمَ ما بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، وتعلَمَ حقّك عليّ ، وما كُنْتُ جَعَلْتُ لَكَ من العَهْدِ والمِيثاقِ أَيّامَ أَرْسَلَنِي الأَسَدُ إلَيْكَ ، فلم أَجِدْ بُدًا منْ حِفْظِكَ واطّلاعِكَ عَلى ما اطَّلَعْتُ علَيْهِ ممَّا أخافُ عَلَيْكَ مِنْهُ . قال شتْرَبة : وما الّذِي بَلَغكَ ؟ قال دمنة : حدّثَنِي الخَبِيرُ الصّدُوقِ الّذي لا مِرْيَةَ في قَوْلِهِ أَنّ الأسَدَ قال لِبَعْضِ أَصْحابِه وجُلسائهُ : قد أَعْجَبَنِي سِمَنُ الثَّوْرِ، ولَيْسَ لِي إلَى حَياتِه حاجةٌ ؛ فأنا آكله ومطعم أصحابي من لحمه . فلمّا بَلَغَنِي هذا القول ، وعرفت غدره ونَقْضَ عَهْدِهِ ، أَقْبَلْتُ إلَيْكَ لأَقْضِي حقك ، وتحْتالُ أنتَ لِأَمْرِكَ . فلمّا سمِع شتْرَبة كلامَ دِمْنة ، وتذكّر ما كان دِمْنةُ جعَلَ لهُ من العَهْدِ والمِيثاقِ ، وفكّر في أمرِ الأسد ، ظنّ أنّ دِمْنَةَ قَدْ صَدَقَهُ ونصح له ؛ وَرأى أنّ الأمْرَ شَبِيهٌ بِما قالَ دمنة . فأهمه ذلك ، وقال : ما كان للأسَدِ أن يغدر بي ولم آتِ إليهِ ذَنْباً ، ولا إلى أحدٍ مِنْ جُنْدِه ، منذ صحبته ؛ ولا أَظُنّ الأَسَدَ إلّا قد حُمِلَ عليّ بالكذب وشُبِّهَ[1] عليه أمري : فإنّ الأسد قد صحبه قَوْمُ سَوْءٍ ، وَجَرّبَ مِنْهُمْ الكَذِبَ وأموراً هي تُصَدِّقَ عِنْدَهُ ما بَلَغهُ من غيرهم : فإنّ صحبة الأشرار ربما أورثت صاحبها سوءَ ظَنٍّ بالاخيار ، وحملته تجربته على الخطإ كخطإ البطّة التي زعموا أنّها رأت في الماء ضوءَ كَوْكَبٍ ، فظنّته سمكة ، فحاولت أن تصيدها ؛ فلمّا جرّبت ذلك مرارا ، عَلِمَتْ أنه ليس بشيءٍ يُصَادُ فتركته .

---

(١) لُبِّسَ

ثمّ رأت من غد ذلك اليوم سمكة ، فظنّت أنها مثل الّذى رأته بالأمس ، فتركتها ولم تطلب صيدها . فإن كان الأسد بلغه عنّى كذب فصدّقه علىّ وسَمِعَه فىّ ، فما جَرَى عَلَى غيْرِى يجْرِى علىّ . وإن كان لم يبلغه شىء ، وأراد السوء بى من غير علّة ، فإنّ ذلك لمن أعجب الأمور . وقد كان يقال : إنّ من العجب أن يطلب الرجل رضا صاحبه ولا يرضى . وأعجب من ذلك أن يلتمس رضاه فيسخط . فإذا كانت المَوْجِدَة[1] عن علّة ، كان الرّضا موجودا والعفو مأمولا . وإذا كانت عن غير علّة ، انقطع الرجاء : لأنّ العلّة إذا كانت الموجدة فى ورودها ، كان الرّضا مأمولا فى صدورها .

قد نظرت : فلا أعلم بينى وبين الأسد جُرْما ، ولا صغير ذنب ، ولا كبيره . ولعمرى ما يستطيع أحد أطال صحبة صاحب أن يحترس فى كُلّ شَىْءٍ مِنْ أَمْرِهِ ، ولا أن يتحفّظ من أن يكون منه صغيرة أو كبيرة يكرهها صاحبه ؛ ولكنّ الرجل ذا العقل وذا الوفاء إذا سقط عِنْدَهُ صاحبه سقطة نظر فيها ، وعرف قدر مبلغ خطئه عمدا كان أو خطأ . ثمّ ينظر هل فى الصفح عنه أمر يخاف ضرره وشينه ؟ فلا يؤاخذ صاحبه بشىء يجد فيه إلى الصفح عنه سبيلا . فإن كان الأسد قد اعتقد علىّ ذنبا ، فلست أعلمه ؛ إلّا أنّى خالفته فى بعض رأيه نصيحة له ؛ فعساه أن يكون قد أنزل أمرى على الجراءة عليه والمخالفة له ؛ ولا أجد لى فى هذا المحضر إثما ما : لأنّى لم أخالفه فى شىء إلا ماقد ندر من مخالفة الرّشد والمنفعة والدين ؛ ولم أجاهر

(١) الغضب

بشيء من ذلك على رءوس جنده وعند أصحابه ؛ ولكنّي كنت أخلو به وأكلّمه سرّا كلام الهائب الموقر ؛ وعلمت أنّه من التمس الرُّخَص[(١)] من الإخوان عند المشاورة ، ومن الأطباء عند المرض ، ومن الفقهاء عند الشبهة ، أخطأ منافع الرأى ، وازداد فيما وقع فيه من ذلك تورّطا[(٢)] ، وحمل الوزر . وإن لم يكن هذا ، فعسَى أن يكون ذلك من بعض سكرات السلطان : فإنّ مصاحبة السّلطان خطرة ، وإن صوحِب بالسّلامة والثقة والمودّة وحسن الصّحبة . وإن لم يكن هذا ، فبعض ما أوتيت من الفضل قد جعل لى فيه الهلاك . وإن لم يكن هذا ولا هذا ، فهو إذا من مواقع القضاء والقدر الّذى لايدفع ؛ والقدر هو الذى يسلب الأسد قوّته وشدّته ، ويدخله القبر ؛ وهو الّذى يحمل الرجل الضعيف على ظهر الفيل الهائج ؛ وهو الّذى يسلّط على الحيّة ذات الحُمَة من ينزع حُمَتها ويلعب بها ؛ وهو الّذى يجعل العاجز حازما ، ويثبّط[(٣)] الشهم ، ويوسع على المُقْتِر[(٤)] ، ويشجّع الجبان ، ويجبّن الشجاع عند ماتعتريه المقادير من العلل الّتى وضعت عليها الأقدار .

قال دمنة : إنّ إرادة الأسد بك ليست من تحميل الأشرار ولا سكرة السلطان ولا غير ذلك ، ولكنّها الغدر والفجور منه : فإنّه فاجر خوّان غدّار : لطعامه حلاوة وآخره سمّ مميت . قال شتربة : فأرانى قد استلذذت الحلاوة إذ ذقتها : وقد انتهيت إلى آخرها الّذى هو الموت ؛ ولولا الحَيْن[(٥)] ما كان مقامى عند الأسد ، وهو آكل لحم وأنا

(١) جمع رخصة وهى التسهيل (٢) ارتباكا (٣) يعوّقه (٤) الفقير
(٥) الهلاك والمحنة

آكل عشب. فأنا فى هذه الورطة كالنحلة التى تجلس على نَور النَّيلَوفَر[1] إذ تستلذ ريحه وطعمه، فتحبسها تلك اللذّة؛ فإذا جاء الليل ينضمّ عليها، فترتبك فيه وتموت. ومن لم يرض من الدنيا بالكفاف الذى يغنيه، وطَمَحت[2] عينه إلى ماسوى ذلك، ولم يتخوّف عاقبتها، كان كالذباب الّذى لا يرضى بالشجرة والرياحين، ولا يقنعه ذلك، حتّى يطلب الماء الّذى يسيل من أذن الفيل، فيضربه الفيل بآذانه فيهلكه. ومن يبذل ودّه ونصيحته لمن لا يشكره، فهو كمن يبذر فى السّباخ. ومن يشر على المعجب، فهو كمن يشاور الميت أو يسارّ الأصمّ. قال دمنة: دع عنك هذا الكلام واحتل لنفسك. قال شتربة: بأىّ شىء أحتال لنفسى، إذا أراد الأسد أكلى، مع ماعرّفتنى من رأى الأسد وسوء أخلاقه؟ وأعلم أنّه لو لم يرد بى إلّا خيرا، ثمّ أراد أصحابه بمكرهم وفجورهم هلاكى لقدروا على ذلك: فإنّه إذا اجتمع المكرة الظلمة على البرىء الصحيح، كانوا خلقاء أن يهلكوه، وإن كانوا ضعفاء وهو قوىّ؛ كما أهلك الذئب والغراب وابن آوى الجمل، حين اجتمعوا عليه بالمكر والخديعة والخيانة. قال دمنة: وكيف كان ذلك:

قال شتربة: زعموا أنّ أسدا كان فى أجمة مجاورة لطريق من طرق الناس؛ وكان له أصحاب ثلاثة: ذئب وغراب وابن آوى؛ وأنّ رعاة مرّوا بذلك الطريق، ومعهم جمال، فتخلّف منها جمل، فدخل تلك الأجمة حتى انتهى إلى الأسد؛ فقال له الأسد: من اين أقبلت؟ قال: من موضع كذا. قال: فما حاجتك؟ قال: ما يأمرنى به

(١) ضرب من الرياحين (٢) ارتفعت

الملك . قال : تقيم عندنا فى السعة والأمن والخصب . فأقام الأسد والجمل معه زمنا طويلا . ثمّ إنّ الأسد مضى فى بعض الأيام لطلب الصيد، فلقى فيلا عظيما، فقاتله قتالا شديدا، وأفلت منه مثقلا مثخنا بالجراح، يسيل منه الدم، وقد خدشه الفيل بأنيابه . فلمّا وصل إلى مكانه، وقع لا يستطيع حراكا، ولا يقدر على طلب الصيد، فلبث الذئب والغراب وابن آوى أيّاما لا يجدون طعاما : لأنّهم كانوا يأكلون من فضلات الأسد وطعامه؛ فأصابهم جوع شديد وهزال، وعرف الأسد ذلك منهم؛ فقال لقد جَهِدتم[1] واحتجتم إلى ما تأكلون . فقالوا : لا تهمّنا أنفسنا : لكنّا نرى الملك على ما نراه . فليتنا نجد ما يأكله ويصلحه . قال الأسد : ما أشكّ فى نصيحتكم، ولكن انتشروا لعلكم تصيبون صيدا تأتوننى به؛ فيصيبنى ويصيبكم منه رزق . فخرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد؛ فتنحّوا ناحية، وتشاوروا فيما بينهم، وقالوا : مالنا ولهذا الآكل العشب الّذى ليس شأنه من شأننا، ولا رأيه من رأينا؟ ألا نزيّن للأسد فيأكله ويطعمنا من لحمه؟ قال ابن آوى : هذا ممّا لا نستطيع ذكره للأسد : لأنّه قد أمّن الجمل، وجعل له من ذمّته عهدا . قال الغراب : أنا أكفيكم أمر الأسد . ثمّ انطلق فدخل على الأسد؛ فقال له الأسد : هل أصبت شيئا؟ قال الغراب : إنما يصيب من يسعى ويبصر . وأمّا نحن فلا سعى لنا ولا بصر : لما بنا من الجوع؛ ولكن قد وفّقنا لرأى واجتمعنا عليه؛ إن وافقنا الملك فنحن له مجيبون . قال الأسد : وما ذاك؟ قال الغراب :

---

(١) جَهِد حصل له مشقة

هذا الجمل آكل العشب المتمرّغ بيننا من غير منفعة لنا منه ، ولا ردّ عائدة ، ولا عمل يعقب مصلحة . فلمّا سمع الأسد ذلك غضب وقال : ما أخطأ رأيَك ، وما أعجز مقالَك ، وأبعدك من الوفاء والرحمة! وما كنت حقيقا أن تجترئ عليّ بهذه المقالة ، وتستقبلني بهذا الخطاب ؛ مع ما علمت من أنّي قد أمّنت الجمل ، وجعلت له من ذمّتي . أو لم يبلغك أنّه لم يتصدّق متصدّق بصدقة هي أعظم أجرا ممن أمّن نفسا خائفة ؟ وحقن دما مهدرا ، وقد أمّنته ولست بغادر به .

قال الغراب : إنّي لأعرف ما يقول الملك ؛ ولكن النفس الواحدة يفتدى بها أهل البيت ؛ وأهل البيت تفتدى بهم القبيلة ؛ والقبيلة يفتدى بها أهل المصر ؛ وأهل المصر فداء الملك . وقد نزلت بالملك الحاجة ؛ وأنا أجعل له من ذمّته مخرجا ، على ألّا يتكلّف الملك ذلك ، ولا يليه بنفسه ، ولا يأمر به أحدا ؛ ولكنّا نحتال بحيلة لنا وله فيها إصلاح وظفر . فسكت الأسد عن جواب الغراب عن هذا الخطاب . فلمّا عرف الغراب إقرار الأسد أتى أصحابه ، فقال لهم : قد كلّمت الأسد في أكله الجمل ؛ على أن نجتمع نحن والجمل عند الأسد ، فنذكر ما أصابه ، ونتوجّع له اهتماما منّا بأمره ، وحرصا على صلاحه ؛ ويَعرض كلّ واحد منّا نفسه عليه تجملا ليأكله ، فيردّ الآخران عليه ، ويسفّهان رأيه ، ويبيّنان الضرر في أكله . فإذا فعلنا ذلك ، سلمنا كلّنا ورضي الأسد عنّا . ففعلوا ذلك ، وتقدّموا إلى الأسد ؛ فقال الغراب : قد احتجت أيّها الملك إلى ما يقوّيك ؛ ونحن أحقّ أن نهب أنفسنا لك : فإنّا بك نعيش ؛ فإذا هلكت فليس لأحد منّا بقاء بعدك ،

ولا لنا فى الحياة من خيرة ؛ فليأكلنى الملك : فقد طبت بذلك نفسا .
فأجابه الذئب وابن آوى أن اسكت ؛ فلا خير للملك فى أكلك ؛ وليس
فيك شبع . قال ابن آوى لكن أنا أشبع الملك ، فليأكلنى : فقد
رضيت بذلك ، وطبت عنه نفسا . فردّ عليه الذئب والغراب بقولهما :
إنّك لمنتن قذر . قال الذئب : إنّى لست كذلك ، فليأكلنى الملك ،
فقد سمحت بذلك ، وطبت عنه نفسا ؛ فاعترضه الغراب وابن آوى
وقالا : قد قالت الأطبّاء : من أراد قتل نفسه فليأكل لحم ذئب .
فظنّ الجمل أنّه إذا عرض نفسه على الأكل ، التمسوا له عذرا ، كما
التمس بعضهم لبعض الأعذار ، فيسلم ويرضى الأسد عنه بذلك ،
وينجو من المهالك . فقال : لكن أنا فى للملك شبع ورِىّ ، ولحمى طيب
هنى ، وبطنى نظيف ، فليأكلنى الملك ، ويطعم أصحابه وخدمه : فقد
رضيت بذلك ، وطابت نفسى عنه ، وسمحت به . فقال الذئب والغراب
وابن آوى : لقد صدق الجمل وكرم ، وقال ماعرف . ثمّ إنّهم وثبوا
عليه فمزّقوه .

وإنّما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنّه إن كان أصحاب الأسد قد
اجتمعوا على هلاكى ، فإنّى لست أقدر أن أمتنع منهم ، ولا أحترس ؛
وإن كان رأى الأسد لى على غير ماهم عليه من الرأى فىّ ، فلا ينفعنى
ذلك ، ولا يغنى عنّى شيئا . وقد يقال : خير السلاطين من عدل
فى الناس . ولو أنّ الأسد لم يكن فى نفسه لى إلا الخير والرحمة ، لغيّرته
كثرة الأقاويل : فإنّها إذا كثرت لم تلبث دون أن تذهب الرقة والرأفة .
لا ترى أنّ الماء ليس كالقول ؛ وأنّ الحجر أشدّ من الإنسان : فالماء

إذا دام انحداره على الحجر لم يلبث حتى يثقبه ويؤثّر فيه . وكذلك القول في الإنسان . قال دمنة : فماذا تريد أن تصنع الآن ؟ قال شتربة : ماأرى إلّا الاجتهاد والمجاهدة بالقتال : فإنّه ليس للمصلّي في صلاته ، ولا للمتصدّق في صدقته ، ولا للورع في ورعه من الأجر ما للمجاهد عن نفسه ، إذا كانت مجاهدته على الحقّ . قال دمنة : لا ينبغي لأحد أن يخاطر بنفسه ، وهو يستطيع غير ذلك ؛ ولكنّ ذا الرأي جاعل القتال آخر الحيل ، وبادئ قبل ذلك بما استطاع من رفق وتمحّل . وقد قيل : لا تحقرنّ العدوّ الضعيف المهين ، ولا سيما إذا كان ذا حيلة ويقدر على الأعوان ؛ فكيف بالأسد على جراءته وشدّته ؟ فإنّ من حَقَر عدوّه لضعفه أصابه ما أصاب وكيل البحر من الطّيطَوَى . قال شتربة : وكيف كان ذلك ؟

قال دمنة : زعموا أنّ طائرا من طيور البحر يقال له الطيطوى[1] كان وطنه على ساحل البحر ، ومعه زوجة له ، فلمّا جاء أوان تفريخهما قالت الأنثى للذكر : لو التمسنا مكانا حريزا نفرخ فيه : فإنّي أخشى من وكيل البحر إذا مدّ الماء أن يذهب بفراخنا . فقال لها : أَفْرِخي مكانك : فإنّه موافق لنا ؛ والماء والزهر منّا قريب . قالت له : ياغافل ليحسن نظرك : فإنّي أخاف وكيل البحر أن يذهب بفراخنا . فقال لها : أفرخي مكانك : فإنّه لا يفعل ذلك . فقالت له : ما أشدّ تعنّتك[2] ! أما تذكر وعيده وتهدّده إيّاك ؟ ألا تعرف نفسك وقدرك ؟ فأبى أن يطيعها . فلمّا أن كثرت عليه ولم يسمع قولها ، قالت له : إنّ من لم يسمع قول الناصح

(١) الطّيطوى ضَرْبٌ من القطا (٢) التعنت ادخال المشقة

يصيبه ما أصاب السُّلَحْفاة حين لم تسمع قول البطّتين . قال الذكر : وكيف كان ذلك ؟

قالت الأنثى : زعموا أنّ غديرا كان عنده عشب ، وكان فيه بطتان ؛ وكان فى الغدير سُلَحْفَاة ، بينها وبين البطتين مودّة وصداقة . فاتّفق أن غيض ذلك الماء ، فجاء البطّتان لوداع السلحفاة ، وقالتا : السلام عليك ، فإنّنا ذاهبتان عن هذا المكان لأجل نقصان الماء عنه . فقالت : إنّما يبين نقصان الماء على مثلى : فإنّى كأنّى السفينة لا اقدر على العيش إلّا بالماء . فأمّا أنتما فتقدران على العيش حيث كنتما . فاذهبا بى معكما . قالتا لها : نعم . قالت : كيف السبيل الى حملى ؟ قالتا : نأخذ بطرفى عود ، وتتعلّقين بوسطه ؛ ونطير بك فى الجوّ . وإيّاك ، إذا سمعت الناس يتكلّمون ، أن تنطق . ثمّ أخذتاها فطارتا بها فى الجوّ . فقال الناس : عجب : سلحفاة بين بطّتين ، قد حملتاها . فلمّا سمعت ذلك قالت : فقأ الله أعينكم أيّها الناس . فلمّا فتحت فاها بالنطق وقعت على الأرض فماتت . قال الذكر : قد سمعت مقالتك ! فلا تخافى وكيل البحر . فلمّا مدّ الماء ذهب بفراخهما . فقالت الأنثى : قد عرفت فى بدء الأمر أنّ هذا كائن . قال الذكر : سوف أنتقم منه . ثمّ مضى إلى جماعة الطير فقال لهنّ : إنّكنّ أخواتى وثقاتى : فأعنّنى . قلن : ماذا تريد أن نفعل ؟ قال : تجتمعن وتذهبن معى إلى سائر الطير ، فنشكو إليهنّ مالقيت من وكيل البحر ، ونقول لهنّ : إنّكنّ طير مثلنا : فأعنّنا . فقالت له جماعة الطير : إنّ العنقاء هى سيدتنا وملكتنا : فاذهب بنا إليها حتّى نصيح بها ، فتظهر لنا ، فنشكو إليها

ما نالك من وكيل البحر، ونسألها أن تنتقم لنا منه بقوة ملكها . ثمّ إنهنّ ذهبن إليها مع الطيطوى ، فاستغثنها ، وصحن بها ، فتراءت لهنّ فأخبرنها بقصتهنّ ، وسألنها أن تسير معهنّ إلى محاربة وكيل البحر ، فأجابتهنّ إلى ذلك . فلمّا علم وكيل البحر أنّ العنقاء قد قصدته فى جماعة الطير خاف من محاربة ملك لاطاقة له به . فردّ فراخ الطيطوى ، وصالحه فرجعت العنقاء عنه .

وإنّما حدّثتك بهذا الحديث لتعلم أنّ القتال مع الأسد لا أراه لك رأيا . قال شتربة : فما أنا بمقاتل الأسد، ولا ناصب له العداوة سرّا ولا علانية ، ولا متغيّر له عمّا كنت عليه ، حتّى يبدو لى منه ما أتخوّف فأغالبه . فكره دمنة قوله ، وعلم أنّ الأسد إن لم ير من الثور العلامات التى كان ذكرها له اتّهمه وأساء به الظنّ . فقال دمنة لشتربة : اذهب إلى الأسد فستعرف حين ينظر إليك ما يريد منك . قال شتربة : وكيف أعرف ذلك؟ قال دمنة : سترى الأسد حين تدخل عليه مقعيا على ذنبه ، رافعا صدره إليك ، مادّا بصره نحوك ، قد صرّ أذنيه[1] ، وفغر فاه ، واستوى للوثبة . قال شتربة : إن رأيت هذه العلامات من الأسد عرفت صدقك فى قولك . ثمّ إنّ دمنة لمّا فرغ من حمل الأسد على الثور ، والثور على الأسد توجّه إلى كليلة . فلمّا التقيا ، قال كليلة : إلام انتهى عملك الذى كنت فيه ؟ قال دمنة : قريب من الفراغ على ما أحبّ وتحبّ . ثمّ إنّ كليلة ودمنة انطلقا جميعا ليحضرا قتال الأسد والثور ، وينظرا ما يجرى بينهما ، ويعاينا ما يؤول

(١) نصبهما للاستماع

إليه أثرهما . وجاء شتربة، فدخل على الأسد، فرآه مُقعياً كما وصفه له دمنة، فقال: ما صاحب السلطان إلا كصاحب الحية التي في مبيته ومقيله، فلا يدري متى تهيج به. ثم إن الأسد نظر إلى الثور فرأى الدلالات التي ذكرها له دمنة: فلم يشك أنه جاء لقتاله. فواثبه، ونشأ بينهما الحرب، واشتد قتال الثور والأسد، وطال، وسالت بينهما الدماء. فلما رأى كليلة أن الأسد قد بلغ منه ما قد بلغ. قال لدمنة: أيها الفسل[1] ما أنكر جهلتك وأسوأ عاقبتك في تدبيرك! قال دمنة: وما ذاك؟ قال كليلة: جرح الأسد وهلك الثور. وإن أخرق الخرق من حمل صاحبه على سوء الخلق والمبارزة والقتال، وهو يجد إلى غير ذلك سبيلا. وإن العاقل يدبر الأشياء ويقيسها قبل مباشرتها: فما رجا أن يتم له منها أقدم عليه، وما خاف أن يتعذر عليه منها انحرف عنه، ولم يلتفت إليه. وإني لأخاف عليك عاقبة بغيك هذا: فإنك قد أحسنت القول ولم تحسن العمل. أين معاهدتك إياي أنك لا تضر بالأسد في تدبيرك؟ وقد قيل: لا خير في القول إلا مع العمل، ولا في الفقه إلا مع الورع، ولا في الصدقة إلا مع النية، ولا في المال إلا مع الجود، ولا في الصدق إلا مع الوفاء، ولا في الحياة إلا مع الصحة، ولا في الأمن إلا مع السرور.

واعلم أن الأدب يذهب عن العاقل الطيش، ويزيد الأحمق طيشاً، كما أن النهار يزيد كل ذي بصر نظرا، ويزيد الخفاش سوء النظر.

---

(١) الفسل الرذل الذي لا مروءة له

وقد أذكرني أمرك شيئا سمعته : فإنه يقال : إن السلطان إذا كان صالحا، ووزراؤه وزراء سوء، منعوا خيره، فلا يقدر أحد أن يدنو منه. ومثله في ذلك مثل الماء الطيب الذي فيه التماسيح : لا يقدر أحد أن يتناوله، وإن كان إلى الماء محتاجا . وأنت يادمنة أردت ألا يدنو من الأسد أحد سواك . وهذا أمر لايصح ولايتم أبدا . وذلك للمثل المضروب : إن البحر بأمواجه، والسلطان بأصحابه . ومن الحمق الحرص على التماس الإخوان بغير الوفاء لهم، وطلب الآخرة بالرياء، ونفع النفس بضر الغير . وماعظتي وتأديبي إياك إلا كما قال الرجل للطائر : لاتلتمس تقويم مالا يستقيم، ولا تعالج تأديب من لايتأدب . قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال كليلة : زعموا أن جماعة من القردة كانوا سكانا في جبل، فالتمسوا في ليلة باردة ذات رياح وامطار نارا، فلم يجدوا، فرأوا يراعة[1] تطير كأنها شرارة نار، فظنوها نارا، وجمعوا حطبا كثيرا فألقوه عليها، وجعلوا ينفخون طمعا أن يوقدوا نارا يصطلون[2] بها من البرد . وكان قريبا منهم طائر على شجرة، ينظرون إليه وينظر إليهم، وقد رأى ماصنعوا، فجعل يناديهم ويقول : لاتتعبوا فإن الذي رأيتموه ليس بنار . فلما طال ذلك عليه عزم على القرب منهم لينهاهم عما هم فيه، فمر به رجل فعرف ماعزم عليه . فقال له : لاتلتمس تقويم مالا يستقيم : فإن الحجر المانع[3] الذي لاينقطع لاتجرب عليه السيوف، والعود الذي لاينحني لا يعمل منه القوس : فلاتتعب . فأبى الطائر أن يطيعه، وتقدم

(١) اليراع ذباب يطير بالليل كأنه نار (٢) يستدفئون (٣) الصلد

إلى القردة ليخوّفهم انّ اليراعة ليست بنار . فتناوله بعض القردة فضرب به الأرض فمات . فهذا مثلى معك فى ذلك . ثمّ قد غلب عليك الخبّ(١) والفجور، وهما خِلّتا سوء، والخبّ شرّهما عاقبة . ولهذا مثل . قال دمنة : وماذلك المَثل؟

قال كليلة : زعموا أنّ خبًّا(٢) ومغفّلا اشتركا فى تجارة وسافرا، فبينما هما فى الطريق، إذ تخلّف المغفّل لبعض حاجته، فوجد كيسًا فيه ألف دينار، فأخذه ، فأحسّ به الخبّ، فرجعا إلى بلدهما، حتّى إذا دنوا من المدينة، قعدا لاقتسام المال . فقال المغفّل : خذ نصفه وأعطنى نصفه، وكان الخبّ قد قرّر فى نفسه أنْ يذهب بالألف جميعه . فقال له : لانقتسم : فإنّ الشركة والمفاوضة أقرب إلى الصّفاء والمخالطة، ولكن آخذ نفقة ، وتأخذ مثلها ، وندفن الباقى فى أصل هذه الشّجرة : فهو مكان حريز، فإذا احتجنا جئنا أنا وأنت فنأخذ حاجتنا منه، ولا يعلم بموضعنا أحد. فأخذا منه يسيرا، ودفنا الباقى فى أصل دوحة(٣)، ودخلا البلد . ثمّ إنّ الخبّ خالف(٤) المغفل إلى الدنانير فأخذها، وسوّى الأرض كما كانت . وجاء المغفّل بعد ذلك بأشهر فقال للخبّ : قد احتجت إلى نفقة فانطلق بنا نأخذ حاجتنا ، فقام الخبّ معه وذهبا إلى المكان فحفرا : فلم يجدا شيئًا . فأقبل الخبّ على وجهه يلطمه يقول : لاتغترّ بصحبة صاحب : خالفتنى إلى الدّنانير فأخذتها . فجعل المغفّل يحلف ويلعن آخذها ولا يزداد الخبّ إلّا شدّة فى اللطم . وقال : ماأخذها

(١) الخِداع (٢) الخَبُّ المفسد الخدّاع اللئيم (٣) شجرة عظيمة (٤) قصد الدنانير مخالفا له

غيرك . وهل شعر بها أحد سواك؟ ثمّ طال ذلك بينهما، فترافعا إلى القاضى ، فاقتص القاضى قصّتهما، فادّعى الخبّ أنّ المغفّل اخذها ، وجحد المغفّل. فقال للخبّ : ألك على دعواك بيّنة؟ قال : نعم الشجرة التى كانت الدنانير عندها تشهد لى أنّ المغفّل أخذها . وكان الخبّ قد أمر أباه أن يذهب فيتوارى فى الشجرة بحيث إذا سئلت أجاب . فذهب أبو الخبّ فدخل جوف الشجرة . ثمّ إنّ القاضى لما سمع ذلك من الخبّ أكبره، وانطلق هو وأصحابه والخبّ والمغفّل معه، حتّى وافى الشجرة، فسألها عن الخبر. فقال الشيخ من جوفها : نعم المغفّل أخذها . فلمّا سمع القاضى ذلك اشتدّ تعجّبه . فدعا بحطب وأمر أن تحرق الشجرة . فأضرمت حولها النيران : فاستغاث أبو الخبّ عند ذلك . فأخرج وقد أشرف على الهلاك . فسأله القاضى عن القصّة فأخبره بالخبر، فأوقع بالخبّ ضربا ، وبأبيه صفعا(١) ، وأركبه مشهورا(٢)، وغرّم الخبّ الدنانير، فأخذها وأعطاها المغفّل .

وإنّما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنّ الخبّ والخديعة ربما كان صاحبهما هو المغبون . وإنّك يادمنة جامع للخبّ والخديعة والفجور. وإنّى أخشى عليك ثمرة عملك، مع أنّك لست بناج من العقوبة : لأنك ذولونين ولسانين . وإنّما عذوبة ماء الأنهار مالم تبلغ إلى البحار . وصلاح أهل البيت مالم يكن فيهم المفسد . وإنّه لا شىء أشبه بك من الحيّة ذات اللسانين التى فيها السمّ : فإنّه قد يجرى من لسانك كسمّها . وإنّى لم أزل لذلك السمّ من لسانك خائفا، ولما يحل بك

(١) الصفع ضرب القفا (٢) شهره كشهّره أظهره فى شُنْعَة

متوقعا؛ والمفسد بين الإخوان والأصحاب كالحيّة يربيها الرجل ويطعمها ويمسحها ويكرمها، ثمّ لايكون له منها غير اللدغ . وقد يقال : آلزم ذا العقل وذا الكرم، وآسترسل إليهما، وإيّاك ومفارقتهما؛ وآصحب الصاحب إذا كان عاقلا كريما أو عاقلا غير كريم : فالعاقل الكريم كامل، والعاقل غير الكريم آصحبه، وإن كان غير محمود الخليقة، وآحذر من سوء أخلاقه وانتفع بعقله؛ والكريم غير العاقل الزمه، ولا تدع مواصلته، وإن كنت لاتحمد عقله، وانتفع بكرمه، وانفعه بعقلك؛ والفرار كلّ الفرار من اللئيم الأحمق . وإنّى بالفرار منك لجدير . وكيف يرجو إخوانك عندك كرما وودّا وقد صنعت بملكك الّذى أكرمك وشرّفك ما صنعت ؟ وإنّ مثلك مثل التاجر الّذى قالَ : إنّ أرضًا تأكلُ جرذانُها(١) مائةَ مَنٍّ(٢) حَدِيدًا، لَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ على بُزَاتِها أَنْ تَخْتَطِفَ الأَفْيَالَ . قالَ دِمْنَةُ : وكَيْفَ كَانَ ذلك؟

قال كليلة : زَعَمُوا أنّه كان بأرضِ كذا تاجرٌ، فأراد الخروجَ إلى بعضِ الوجُوهِ لابتغاءِ الرِّزْق؛ وكَانَ عندَه مائةُ مَنٍّ حَدِيدًا؛ فأَوْدَعَهَا رجلا من إخوانه، وذهب فى وجهه . ثمّ قدم بعد ذلك بمدّة؛ فجاء وآلتمَسَ الحديدَ، فقال له : إنه قدْ أكلتْه الجرذانُ . فقال قد سمعتُ أنّه لاشىءَ أقطعُ من أنيابِها للحديدِ . ففرِحَ الرجُلُ بتصْديقِه على ما قال وآدّعى . ثمّ إنّ التاجرَ خرجَ، فلقىَ آبنًا للرجلِ؛ فأخَذَهُ وذَهبَ به إلى منزِله؛ ثمّ رَجَعَ إليهِ الرّجُلُ من الغد فقالَ له: هل عندكَ علم بابنِي؟ فقال له التاجرُ : إنّى لمّا خرجت من عندك بالأمسِ، رأيت

(١) من نوع الفيران مُفرده جُرَذ (٢) المَنُّ رطلان

بازِيًا قد اختطفَ صبيًّا، ولعلّهُ ابنُكَ . فلطم الرجل على رأسه وقال : ياقوم هل سمعتم أو رأيتم أنّ البزاة تخطف الصبيان؟ فقال : نعم . وإنّ أرضًا تأكل جرذانها مائة منّ حديدًا ليس بعجب أن تختطف بزاتها الفيلة . قال له الرجل : أنا أكلتُ حديدَكَ وهذا ثمنه، فاردد عليّ ابني . وإنما ضربت لك هذا المثلَ لتعلم أنّكَ إذا غدرتَ بصاحبكَ فلا شكّ أنّكَ بمَنْ سِواهُ أغدرُ؛ وأنهُ اذا صاحبَ أحدٌ صاحبا وغدر بمن سواه فقد علم صاحبه أنّه ليس عنده للمودّة موضع : فلا شيء أضيع من مودّةٍ تُمنحُ من لاوفاء له ، وحباء يصطنع عند من لا شكر له ، وأدب يحمل إلىّ من لا يتأدّبُ به ولا يسمعه ، وسرّ يستودع من لايحفظه : فإنّ صُحبةَ الأخيارِ تورثُ الخيرَ، وصحبةَ الأشرارِ تورثُ الشرّ : كالريح إذا مرّتْ بالطّيبِ حملت طيبا، وإذا مرّت بالنّتْن حملت نتنا ، وقد طالَ وثقُلَ كلامى عليك . فانتهى كليلةُ من كلامه إلى هذا المكانِ وقد فرغ الأسدُ من الثورِ . ثمّ فكّر فى قتله بعد أن قتله وذهبَ عنه الغضب . وقال : لقد فجعنى شتربةُ بنفسهِ ؛ وقد كانَ ذا عقلٍ ورأى وخلقٍ كريم ، ولا أدرى لعلّه كان بريئا أو مكذوبا عليه ؛ فحزن وندم على ما كان منه ، وتبيّن ذلك فى وجهه ؛ وبَصُرَ به دمنة ، فترك محاورة كليلةَ ، وتقدّم إلى الأسدِ فقال له : ليهنئكَ الظّفرُ إذْ أهلَكَ اللهُ أعداءَكَ . فماذا يحزُنكَ أيّها الملك؟ قال: أنا حزينٌ على عقلِ شتربة ورأيِهِ وأدَبِهِ ! قال له دمنة : لاترْحَمْهُ أيّها الملكُ : فإنّ العاقلَ لا يَرحمُ من يَخافه . وإنّ الرجلَ الحازمَ ربما أبغضَ الرجُلَ وكَرِهَهُ، ثمّ قرّبهُ وأدْناه : لِمَا يعلمُ عنده من الغنَى والكفاءة ، فعْلَ الرجلِ المتكارِه على الدواءِ

الشنيع رجاء منفعته. وربما أحبَّ الرجل، وعزّ عليه، فأقصاه وأهلكه، مخافة ضرره؛ كالّذى تلدغه الحيّة فى إصبعه فيقطعها، ويتبرّأ منها مخافة أن يسرى سمّها إلى بدنه. فرضى الأسد بقول دمنة. ثمّ علم بعد ذلك بكذبه وغدره وفجوره فقتله شرّ قتلة (انقضى باب الأسد والثور)

باب الفحص عن أمر دمنة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوفُ: قد حدّثتنى عن الواشى الماهر المحتال، كيف يُفسِدُ بالنميمةِ المودّةَ الثّابتةَ بينَ المتحابّيْن. فحدّثنى حينئذٍ بما كان من حال دمنة وما آل أمره إليه بعد قتلِ شتربةِ، وما كانَ من معاذيرهِ عندَ الأسدِ وأصحابِه حينَ راجَعَ الأسدُ رأيَهُ فى الثور، وتحقّق النميمةَ من دمنة، وما كانت حجّتهُ الّتى احتجّ بها؛ قال الفيلسوف: أنا وجدتُ فى حديث دمنة أنّ الأسدَ حينَ قتلَ شتربةَ ندِم على قتلِه، وذكر قديمَ صحبتِهِ وجسيمَ خدمتِه، وأنّه كان أكرمَ أصحابِهِ عليه، وأخصَّهم منزلةً لديه، وأقربهم وأدناهم إليه؛ وكان يواصِلُ له المشورةَ دون خَواصّه. وكان من أخصّ أصحابه عنده بعد الثّورِ النّمِرُ. فاتّفقَ أنّه أمسى النَّمِرُ ذاتَ ليلةٍ عندَ الأسدِ؛ فخرج من عنده جوفَ الليلِ يريد منزله، فاجتاز على منزل كليلة ودمنة. فلمّا انتهى إلى البابِ، سمِعَ كليلةَ يعاتبُ دمنةَ على ما كانَ منه، ويلومُهُ على النميمةِ واستعمالِها؛ خصوصًا مع الكَذِبِ والبهتان فى حقّ الخاصّة. وعَرَفَ النمرُ عِصْيانَ دمنةَ وتركَ القبول له. فوقف يستمع ما يجرى بينهما؛ فكان فيما قال كليلة لدمنة: لقد ارتكبت مركبًا صعبًا، ودخلتَ مدخلاً ضيّقًا،

وجنيت على نفسك جناية موبقة، وعاقبتها وخيمة؛ وسوف يكون مصرعك شديدا، إذا انكشف للأسد أمرك، واطّلع عليه، وعرف غدرك ومحالك[1]، وبقيت لا ناصر لك؛ فيجتمع عليك الهوان والقتل، مخافة شرك، وحذرا من غوائلك؛ فلست بمتخذك بعد اليوم خليلا، ولا مفش إليك سرا: لأن العلماء قد قالوا: تباعد عمن لا رغبة فيه. وأنا جدير بمباعدتك، والتماس الخلاص لى مما وقع فى نفس الأسد من هذا الأمر.

فلما سمع النمر هذا من كلامهما قفل راجعا، فدخل على أم الأسد، فأخذ عليها العهود والمواثيق أنها لا تفشى ما يسر إليها، فعاهدته على ذلك، فأخبرها بما سمع من كلام كليلة ودمنة. فلما أصبحت دخلت على الأسد، فوجدته كئيبا حزينا مهموما: لما ورد عليه من قتل شتربة. فقالت له: ما هذا الهم الذى قد أخذ منك، وغلب عليك؟ قال: يحزننى قتل شتربة، إذا تذكرت صحبته ومواظبته على خدمتى، وما كنت أسمع من نصيحته، وأسكن إليه من مشاورته، وأقبل من مناصحته. قالت أم الأسد: إن أشد ما شهد امرؤ على نفسه، وهذا خطأ عظيم؛ كيف أقدمت على قتل الثور بلا علم ولا يقين؟ ولولا ما قالت العلماء فى إذاعة الأسرار، وما فيها من الإثم والشنار[2]، لذكرت لك وأخبرتك بما علمت. قال الأسد: إن أقوال العلماء لها وجوه كثيرة، ومعان مختلفة. وإنى لأعلم صواب ما تقولين: وإن كان عندك رأى فلا تطويه عنى؛ وإن كان قد أسر إليك أحد سرا فأخبرينى به،

(١) كيدك واحتيالك (٢) الشنار أقبح العيب والعار

وأطلعيني عليه، وعلى جملة الأمر . فأخبرته بجميع ما ألقاه إليها النمر من غير أن تخبره باسمه . وقالت : إني لم أجهل قول العلماء في تعظيم العقوبة وتشديدها، وما يدخل على الرجل من العار في إذاعة الأسرار، ولكني أحببت أن أخبرك بما فيه المصلحة لك ؛ وإن وصل خطؤه وضرره إلى العامة : فإضرارهم على خيانة الملك مما لا يدفع الشر عنهم، وبه يحتج السفهاء، ويستحسنون ما يكون من أعمالهم القبيحة . وأشد معارهم(١) إقدامهم على ذي الحزم . فلما قضت أم الأسد هذا الكلام، استدعى أصحابه وجنده فأدخلوا عليه . ثم أمر أن يؤتى بدمنة . فلما وقف بين يدي الأسد، ورأى ما هو عليه من الحزن والكآبة، التفت إلى بعض الحاضرين فقال : ما الذي حدث ؟ وما الذي أحزن الملك ؟ فالتفتت أم الأسد إليه وقالت : قد أحزن الملك بقاؤك ولو طرفة عين ؛ ولن يدعك بعد اليوم حيا ! قال دمنة : ما ترك الأول للآخر شيئا : لأنه يقال : أشد الناس في توقي الشر، يصيبه الشر قبل المستسلم له . فلا يكونن الملك وخاصته وجنوده المثل السوء ؛ وقد علمت أنه قد قيل : من صحب الأشرار، وهو يعلم حالهم، كان أذاه من نفسه : ولذلك انقطعت النساك بأنفسها عن الخلق، واختارت الوحدة على المخالطة، وحب العمل لله على حب الدنيا وأهلها . ومن يجزي بالخير خيرا وبالإحسان إحسانا إلا الله ؟ ومن طلب الجزاء على الخير من الناس، كان حقيقا أن يحظى بالحرمان ؛ إذ يخطئ الصواب في خلوص العمل لغير الله تعالى وطلب الجزاء من الناس . وإن أحق ما رغبت فيه رعية

(١) المعار جمع معرة وهي الاثم والخيانة والأذى .

الملك هو محاسن الأخلاق ومواقع الصواب وجميل السير، وقد قالت العلماء: من صدّق ما ينبغى أن يكذّب، وكذّب ما ينبغى أن يصدّق، خرج من مصافّ العقلاء، وكان جديرا بالازدراء. فينبغى ألّا يعجّل الملك فى أمرى بشبهة، ولست أقول هذا كراهة للموت: فإنّه وإن كان كريها، لامنجى منه. وكلّ حىّ هالك. ولو كانت لى مائة نفس وأعلم أنّ هوى الملك فى إتلافهنّ، لَطبت له بذلك نفسا. فقال بعض الجند: لم ينطق بهذا لحبّه الملك، ولكن لخلاص نفسه، وٱلتماس العذر لها. فقال له دمنة: ويلك! وهل علىّ فى ٱلتماس العذر لنفسى عيب؟ وهل أحد أقرب إلى الإنسان من نفسه؟ وإذا لم يلتمس لها العذر، فلمن يلتمسه؟ لقد ظهر منك ما لم تكن تملك كتمانه من الحسد والبغضاء؛ ولقد عرف من سمع منك ذلك أنّك لا تحبّ لأحد خيرا؛ وأنّك عدوّ نفسك، فمن سواها بالأولى. فمثلك لا يصلح أن يكون مع البهائم، فضلا عن أن يكون مع الملك، وأن يكون ببابه. فلمّا أجابه دمنة بذلك، خرج مكتئبا حزينا مستحيا. فقالت أمّ الأسد لدمنة: لقد عجبت منك، أيّها المحتال، فى قلّة حيائك، وكثرة وقاحتك، وسرعة جوابك لمن كلمك. قال دمنة: لأنّك تنظرين إلىّ بعين واحدة، وتسمعين منّى بأذن واحدة، مع أنّ شقاوة جدّى قد زوت[1] عنّى كلّ شىء؛ حتّى لقد سعوا إلى الملك بالنميمة علىّ، ولقد صار من بباب الملك لاستخفافهم به، وطول كرامته إيّاهم، وما هم فيه من العيش والنعمة، لا يدرون فى أىّ وقت ينبغى لهم الكلام؟ ولا متى يجب عليهم السكوت؟ قالت: ألا تنظرون إلى هذا الشقى، مع عظم

---

(١) نحّت وأبعدت

ذنبه، كيف يجعل نفسه بريئا كمن لاذنب له؟ قال دمنة : إنّ الّذين يعملون غير أعمالهم ليسوا على شيء؛ كالّذى يضع الرماد موضعا ينبغى أن يضع فيه الرمل، ويستعمل فيه السرجين[1]؛ والرجل الّذى يلبس لباس المرأة، والمرأة الّتى تلبس لباس الرجل، والضيف الّذى يقول: أنا ربّ البيت، والّذى ينطق بين الجماعة بما لا يُسأل عنه . وإنّما الشقىّ من لايعرف الأمور ولا أحوال الناس، ولا يقدر على دفع الشرّ عن نفسه، ولا يستطيع ذلك . قالت أمّ الأسد : أتظنّ أيّها الغادر المحتال بقولك هذا أنّك تخدع الملك، ولايسجنك ؟ قال دمنة : الغادر الّذى لا يأمن عدوّه مكره، وإذا استمكن من عدوّه قتله على غير ذنب . قالت أمّ الأسد : أيها الغادر الكذوب، أتظنّ أنّك ناج من عاقبة كذبك؟ وأنّ محالك هذا ينفعك مع عظم جرمك؟ قال دمنة: الكذوب الّذى يقول مالم يكن، ويأتى بما لم يقل ولم يفعل، وكلامى واضح مبين . قالت أمّ الأسد : العلماء منكم هم الّذين يوضّحون أمره بفصل الخطاب . ثمّ نهضت فخرجت . فدفع الأسد دمنة إلى القاضى، فأمر القاضى بحبسه، فألقى فى عنقه حبل، وانطلق به إلى السجن .

فلمّا انتصف الليل أخبر كليلة أنّ دمنة فى الحبس . فأتاه مستخفيا؛ فلمّا رآه وماهو عليه من ضيق القيود، وحرج المكان، بكى، وقال له : ماوصلت إلى ماوصلت إليه إلّا لاستعمالك الخديعة والمكر، وإضرابك عن العظة؛ ولكن لم يكن لى بدٌّ فيما مضى من إنذارك والنصيحة لك

(١) السرجينُ بكسر أوله الزبل

والمسارعة إليك فى خلوص الرغبة فيك : فإنّه لكلّ مقام مقال، ولكلّ موضع مجـال . ولو كنت قصّرت فى عظتك، حين كنت فى عافية، لكنت اليوم شريكك فى ذنبك؛ غير انّ العجب دخل منك مدخلا قهر رأيك ، وغلب على عقلك ؛ وكنت أضرب لك الأمثال كثيرا ، وأذكرك قول العلماء. وقد قالت العلماء : إنّ المحتال يموت قبل أجله . قال دمنة : قد عرفت صدق مقالتك . وقد قالت العلماء : لاتجزع من العذاب، إذا وقفت منك على خطيئة ؛ ولأن تعذّب فى الدنيـا بجرمك، خير من أن تعذّب فى الآخرة بجهنم مع الإثم . قال كليلة : قد فهمت كلامك ؛ ولكن ذنبك عظيم، وعقاب الأسد شديد أليم . وكان بقربهما فى السجن فَهْد[1] مُعتقَــل[2] يسمع كلامهما ، ولا يريانه ؛ فعرف معاتبــة كليلة لدمنة على سوء فعله، وما كان منــه؛ وأنّ دمنة مقرّ بسوء عمله، وعظيم ذنبــه؛ فحفظ المحاورة بينهما ، وكتمها ليشهد بها إن سئل عنها . ثمّ إنّ كليلة انصرف إلى منزله ، ودخلت أمّ الأسد حين أصبحت على الأسد ، وقالت له : ياسيّد الوحوش ، حوشيت[3] أن تنسى ماقلت بالأمس؛ وأنّك أمرت به لوقته؛ وأرضيت به ربّ العباد . وقد قالت العلماء : لا ينبغى للإنسان أن يتوانى فى الجدّ للتقوى؛ بل لاينبغى أن يدافع عن ذنب الأثيم . فلمّا سمع الأسد كلام أمّه، أمر أن يحضر النمر، وهو صاحب القضاء . فلمـا حضر قال له وللجَوّاس[4] العـادل : اجلسا فى موضع الحكم، وناديا فى الجند صغيرهم وكبـيرهم أن يحضروا وينظروا فى حال دمنــة ، ويبحثوا عن شأنه ،

(١) نوع من السباع (٢) محبوس (٣) نزهت (٤) الأسد

ويفحصوا عن ذنبه ، ويثبتوا قوله وعذره فى كتب القضاء ، وارفعا إلىّ ذلك يوما فيوما . فلما سمع ذلك النمر والجوّاس العادلُ وكان هذا الجوّاس عمّ الأسد ، قالا : سمعا وطاعة لما أمر الملك . وخرجا من عنده ، فعملا بمقتضى ما أمرهما به ، حتّى إذا مضى من اليوم الّذى جلسوا فيه ثلاث ساعات ، أمر القاضى أن يؤتى بدمنة ، فأُتِىَ به ، فأُوقِفَ بين يديه ، والجماعة حضور . فلمّا استقرّ به المكان نادى سيّد الجمع بأعلى صوته : أيّها الجمع ، إنّكم قد علمتم أنّ سيّد السباع لم يزل منذ قتل شتربة خائر[1] النفس ، كثير الهمّ والحزن ، يرى أنّه قد قتل شتربة بغير ذنب ، وأنّه أخذه بكذب دمنة ونميمته . وهذا القاضى قد أمر أن يجلس مجلس القضاء ، ويبحث عن شأن دمنة . فمن علم منكم شيئا فى أمر دمنة من خير أو شرّ ، فليقل ذلك ، وليتكلّم به على رءوس الجمع والأشهاد ، ليكون القضاء فى أمره بحسب ذلك ، فإذا استوجب القتل فالتثبّت فى أمره أولى ، والعجلة من الهوى ، ومتابعة الأصحاب على الباطل ذلّ . فعندها قال القاضى : أيّها الجمع اسمعوا قول سيّدكم ، ولا تكتموا ما عرفتم من أمره ، واحذروا فى الستر عليه ثلاث خصال : إحداهنّ ، وهى أفضلهن ، ألّا تزدروا فعله ، ولا تعدّوه يسيرا : فمن أعظم الخطايا قتل البرىء الّذى لاذنب له بالكذب والنميمة ، ومن علم من أمر هذا الكذّاب الّذى اتّهم البرىء بكذبه ونميمته شيئا ، فستر عليه ، فهو شريكه فى الإثم والعقوبة . والثانية إذا اعترف المذنب بذنبه ، كان أسلم له ، وأحرى بالملك وجنده أن يعفوا عنه ويصفحوا . والثالثة

(١) ضعيفها

ترك مراعاة أهل الذمّ والفجور، وقطع أسباب مواصلاتهم ومودّتهم عن الخاصّة والعامّة؛ فمن علم من أمر هذا المحتال شيئاً، فليتكلّم به على رءوس الأشهاد ممّن حضر، ليكون ذلك حجّة عليه؛ وقد قيل : إنّه من كتم شهادة ميّت، أُلجم بلجام من نار يوم القيامة؛ فليقل كلّ واحد منكم ماعلم . فلمّا سمع ذلك الجمع كلامه، أمسكوا عن القول. فقال دمنة : مايسكّتكم؟ تكلّموا بما علمتم؛ واعلموا أنّ لكلّ كلمة جواباً . وقد قالت العلماء : من يشهد بما لم يَرَ، ويقول مالا يعلم، أصابه ما أصاب الطبيب الّذى قال لما لا يعلمه : إنّى أعلمه. قالت الجماعة : وكيف كان ذلك؟

قال دمنة : زعموا أنّه كان فى بعض المدن طبيبٌ له رفق وعلم؛ وكان ذا فطنة فيما يجرى على يديه من المعالجات ؛ فكبر ذلك الطبيب وضعف بصره . وكان لملك تلك المدينة ابنة قد زوّجها لابن أخ له؛ فعرض لها مايعرض للحوامل من الأوجاع . فجىء بهذا الطبيب؛ فلمّا حضر، سأل الجارية عن وجعها وما تجد، فأخبرته، فعرف داءها ودواءها، وقال: لو كنت أبصر، لجمعت الأخلاط على معرفتى بأجناسها؛ ولا أثق فى ذلك بأحد غيرى . وكان فى المدينة رجل سفيه، فبلغه الخبر، فأتاهم وادّعى علم الطبّ، وأعلمهم أنه خبيرٌ بمعرفة أخلاط الأدوية والعقاقير[1]، عارفٌ بطبائع الأدوية المركّبة والمفردة؛ فأمره الملك أن يدخل خزانة الأدوية، فيأخذ من أخلاط الدواء حاجته؛ فلمّا دخل السفيه الخزانة، وعرضت عليه الأدوية، ولا يدرى ما هى، ولا له بها معرفة، أخذ فى جملة ماأخذ منها صُرّة فيها سمٌّ قاتل لوقته، وخلطه

(١) مفرده عقّار.

فى الأدوية ، ولا علم له به ، ولا معرفة عنده بجنسه . فلما تمت أخلاط الأدوية سقى الجارية منه ، فماتت لوقتها . فلما عرف الملك ذلك ، دعا بالسفيه ، فسقاه من ذلك الدواء ، فمات من ساعته . وإنما ضربت لكم هذا المثل لتعلموا مايدخل على القائل والعامل من الزلة بالشبهة فى الخروج عن الحد ، فمن خرج منكم عن حده أصابه ما أصاب ذلك الجاهل ، ونفسه الملومة . وقد قالت العلماء : ربما جزى المتكلم بقوله . والكلام بين أيديكم : فانظروا لأنفسكم .

فتكلم سيد الخنازير ، لإدلاله وتيهه بمنزلته عند الأسد ، فقال : يأهل الشرف من العلماء ، اسمعوا مقالتى ، وعوا بأحلامكم كلامى ، فالعلماء قالوا فى شأن الصالحين : إنهم يعرفون بسيماهم ؛ وأنتم ، معاشر ذوى الاقتدار ، بحسن صنع الله لكم ، وتمام نعمته لديكم ، تعرفون الصالحين بسيماهم وصورهم ، وتخبرون الشىء الكبير بالشىء الصغير ، وهاهنا أشياء كثيرة تدل على هذا الشقى دمنة ، وتخبر عن شره ؛ فاطلبوها على ظاهر جسمه : لتستيقنوا وتسكنوا الى ذلك . قال القاضى لسيد الخنازير : قد علمت ، وعلم الجماعة الحاضرون ، أنك عارف بما فى الصور من علامات السوء ؛ ففسر لنا ما تقول ، وأطلعنا على ما ترى فى صورة هذا الشقى . فأخذ سيد الخنازير يذم دمنة ، وقال : إن العلماء قد كتبوا وأخبروا : أنه من كانت عينه اليسرى أصغر من عينه اليمنى وهى لا تزال تختلج ، وكان أنفه مائلا الى جنبه الأيمن ، فهو شقى خبيث . قال له دمنة : شأنك عجب ، أيها القذر ، ذو العلامات الفاضحة القبيحة ، ثم العجب من جراءتك على طعام الملك ، وقيامك

بين يديه ، مع ما بجسمك من القذر والقبح ، ومع ما تعرفه أنت ويعرفه غيرك من عيوب نفسك ؛ أفتتكلم فى النيِّق الجسم الذى لا عيب فيه ؟ ولستُ أنا وحدى أطّلع على عيبك ؛ لكن جميع من حضر قد عرف ذلك . وقد كان يَحْجُزُنِي عن إظهاره ما بينى وبينك من الصداقة . فأمّا إذْ قدْ كذبت علىّ وبَهَتَّنِي(١) فى وجهى ، وقمت بعداوتى ، فقلت ما قلت فىّ بغير علم على رءوس الحاضرين ، فإنّى أقتصر على إظهار ماأعرف من عيوبك ، وتعرف الجماعة ؛ وحُقّ على من عرفك حَقّ معرفتك أن يمنع الملك من استعماله إياك على طعامه : فلو كلّفت أن تعمل الزراعة لكنت جديرا بالخذلان فيها . فالأحرى بك ألّا تدنو إلى عمل من الأعمال ، وألّا تكون دبّاغاً ولا حجّاما لعامىّ فضلاً عن خاصّ خدمة الملك . قال سيّدُ الخنازير : أتقول لى هذهِ المقالة ، وتلقانى بهذا الملقَ ؟ قال دمنة : نعم ، وحقا قلتُ فيكَ ، وإيّاك أعنى ، أيّها الأعرج المكسور الأفدع(٢) الرجل ، المنفوخ البطن ، الأفلح(٣) الشفتين ، السيئ المنظر والمخبر . فلمّا قال ذلك دمنة ، تغيّر وجه سيّد الخنازير واستعبر(٤) واستحى ، وتلجلج لسانه ، واستكان(٥) وفتر نشاطه . فقال دمنة ، حين رأى انكساره وبكاءه : إنّما ينبغى أن يطول بكاؤك ، إذا اطّلع الملك على قذرك وعيوبك فعزلك عن طعامه ، وحال بينك وبين خدمته ، وأبعدك عن حضرته . ثمّ إنّ شَغْبَرَا كان الأسدُ قد جرّبَه فوجد فيه أمانةً وصِدْقاً ، فرتّبه فى خدمته ، وأمره أن يحفَظَ ما يجرى بينهم ، ويطلعه على ذلك .

---

(١) قلت علىّ مالم أفعل (٢) الأعوج (٣) المشقوق (٤) جرت عَبرته وحزن (٥) ذَل

فقام الشغبر فدخل على الأسد فحدّثه بالحديث كلّه على جليّته. فأمر الأسد بعزل سيّد الخنازير عن عمله؛ وأمر ألّا يُدْخَلَ عليه، ولا يرى وجهه؛ وأمر بدمنة أن يُسْتجن، وقد مضى من النهار أكثره؛ وجميعُ ما جرى وقالوا وقال قد كتب وختم عليه بخاتم النمر؛ ورجع كلّ واحد منهم إلى منزله.

ثمّ إنّ شَغْبَرا (ابن آوى) يُقَالُ له روزبة، كان بينه وبين كليلة إخاءٌ ومودّة؛ وكان عند الأسد وجيهاً، وعليه كريماً؛ واتفق أنّ كليلة أخذه الوجدُ إشفاقاً وحذرا على نفسه وأخيه، فمرض ومات؛ فانطلق هذا الشغبر إلى دمنة، فأخبره بموت كليلة؛ فبكى وحزن؛ وقال: ما أصنع بالدنيا بعد مفارقةِ الأخِ الصَّفِيّ! ولكن أَحْمَدُ الله تعالى حيث لم يمت كليلة حتّى أبقَى لى من ذوى قرابتى أخاً مثلكَ: فإنّى قد وثقت بنعمةِ اللهِ تعالى وإحسانِه إلىّ فيما رأيتُ من اهتمامِكِ بى ومراعاتِك لى، وقد علمت أنّك رجائى وركنى فيما أنا فيه؛ فأريد من إنعامك أن تنطلق إلى مكان كذا، فتنظر إلى ما جمعته أنا وأخى بحيلتنا وسعينا ومشيئة الله تعالى، فتأتينى به؛ ففعل الشغبر ما أمره به دمنة. فلمّا وضع المال بين يديه أعطاه شطْرَه، وقال له: إنّك على الدخول والخروج على الأسد أقدر من غيرك؛ فتفرّغ لشأنى، واصرف اهتمامك إلىّ؛ واسمع ما أذكر به عند الأسد، إذا رفع إليه ما يجرى بينى وبين الخصوم؛ وما يبدو من أمّ الأسد فى حقّ، وما ترى من متابعة الأسد لها، ومخالفته إيّاها فى أمرى؛ واحفظ ذلك كلّه. فأخذ الشغبر ما أعطاه دمنة وانصرف عنه على هذا العهد. فانطلق إلى منزله فوضع

المال فيه . ثمّ إنّ الأسد بكر من الغد فجلس ، حتّى إذا مضى من النهار ساعتان ، استأذن عليه أصحابه ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه ، ووضعوا الكتاب بين يديه . فلمّا عرف قولهم وقول دمنة دعا أمّه فقرأ عليها ذلك . فلمّا سمعت ما فى الكتاب نادت بأعلى صوتها : إن أنا أغلظت فى القول فلا تلمنى : فإنّك لست تعرف ضرّك من نفعك . أليس هذا ممّا كنت أنهاك عن سماعه : لأنّه كلام هذا المجرم المسىء إلينا ، الغادر بذمّتنا ؟ ثمّ إنّها خرجت مغضبة ، وذلك بعين الشغبر الّذى آخاه دمنة وبسمعه . فخرج فى أثرها مسرعا ، حتّى أتى دمنة ، فحدّثه بالحديث . فبينما هو عنده إذْ جاء رسولٌ ، فانطلق بدمنة إلى الجمع عند القاضى . فلمّا مثل بين يدى القاضى استفتح سيّد المجلس فقال : يادمنة ، قد أنبأنى بخبرك الأمين الصادق ، وليس ينبغى لنا أن نفحص عن شأنك أكثر من هذا : لأنّ العلماء قالوا : إنّ الله تعالى جعل الدنيا سبباً ومصداقاً للآخرة : لأنّها دار الرسل والأنبياء الدالّين على الخير ، الهادين إلى الجنة ، الداعين إلى معرفة الله تعالى . وقد ثبت شأنك عندنا ، وأخبرنا عنك من وثقنا بقوله ، إلّا أنّ سيّدنا أمرنا بالعود فى أمرك ، والفحص عن شأنك ، وإن كان عندنا ظاهرا بيّنا . قال دمنة : أراك أيّها القاضى لم تتعوّد العدل فى القضاء ، وليس فى عدل الملوك دفع المظلومين ومن لا ذنب له إلى قاض غير عادل ، بل المخاصمة عنهم والذود . فكيف ترى أن أقتل ولم أخاصم ؟ وتعجّل ذلك موافقة لهواك ، ولم تمض بعد ذلك ثلاثة أيّام . ولكن صدق الّذى قال : إنّ الذى تعوّد عمل البرّ هيّن عليه عمله ، وإن أضر به . قال القاضى :

إنّا نجد فى كتب الأوّلين : أن القاضى ينبغى له أن يعرف عمل المحسن والمسىء، ليجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته؛ فإذا ذهب إلى هذا ازداد المحسنون حرصا على الإحسان، والمسيئون اجتنابا للذنوب. والرأى لك، يادمنة، أن تنظر الّذى وقعت فيه، وتعترف بذنبك، وتقرّ به، وتتوب . فأجابه دمنة : إنّ صالحى القضاة لايقطعون بالظنّ، ولايعملون به، لا فى الخاصّة ولا فى العامّة : لعلمهم أنّ الظنّ لايغنى من الحقّ شيئا. وأنتم إن ظننتم أنّى مجرم فيما فعلت، فإنّى أعلم بنفسى منكم ؛ وعلمى بنفسى يقين لاشكّ فيه؛ وعلمكم بى غاية الشكّ؛ وإنّما قبح أمرى عندكم أنّى سعيت بغيرى، فما عذرى عندكم إذا سعيت بنفسى كاذبا عليها ، فأسلمتها للقتل والعطب، على معرفة منّى ببراءتى وسلامتى ممّا قُرِفْتُ[1] به؟ ونفسى أعظم الأنفس علىّ حرمة وأوجبها حقّا. فلو فعلت هذا بأقصاكم وأدناكم، لما وسعنى فى دينى، ولا حسن بى فى مروءتى، ولا حقّ لى أن أفعله؛ فكيف أفعله بنفسى ؟ فاكفف أيها القاضى عن هذه المقالة : فإنّها إن كانت منك نصيحة، فقد أخطأت موضعها ؛ وإن كانت خديعة ، فإنّ أقبح الخداع ما نظرته وعرفت أنّه من غير أهله؛ مع أنّ الخداع والمكر ليسا من أعمال صالحى القضاة، ولا تُقاة الولاة

واعلم أنّ قولك ممّا يتخذه الجهّال والأشرار سنّة يقتدون بها : لأنّ أمور القضاء يأخذ بصوابها أهل الصواب، وبخطئها أهل الخطإ والباطل والقليلو الورع ؛ وأنا خائف عليك أيها القاضى من مقالتك هذه أعظم

(١) اتهمت

الرزايا والبلايا ؛ وليس من البلاء والمصيبة أنّك لم تزل فى نفس الملك والجند والخاصّة والعامّة فاضـلا فى رأيك، مقنعا فى عدلك، مرضيا فى حكمك وعفافك وفضـلك ؛ وإنّما البـلاء كيف أنسيت ذلك فى أمرى .

فلمّا سمع القاضى ذلك من لفظ دمنة، نهض فرفعه إلى الأسد على وجهه، فنظر فيه الأسد، ثم دعا أمّه فعرضه عليها . فقالت حين تدبّرت كلام دمنة للأسد : لقد صار اهتمامى بمـا أتخوّف من احتيال دمنة لك بمكره ودهـائه ، حتّى يقتلك أو يفسـد عليك أمرك ، أعظمَ من اهتمامى بمـا سلف من ذنبـه إليك فى الغشّ والسعاية ، حتّى قتلت صديقك بغير ذنب . فوقع قولها فى نفسـه . فقال لها : أخبرينى عن الّذى أخبرك عن دمنة بمـا أخبرك، فيكون حجّة لى فى قتلى دمنـة . فقـالت : إنّى لأكره أن أفشى سرّ من استكتمنيه ؛ فلا يَهْنِئُنى سرورى بقتل دمنة إذا تذكرت أنّى استظهرت عليـه بركوب مانهت عنه العلمـاء من كشف السرّ ؛ ولكنّى أطالب الّذى استودعنيه أن يجعلنى فى حلّ من ذكـره لك ؛ ويقوم هو بعلمه وما سمع منـه . ثمّ انصرفت ، وأرسلت إلى النمر، وذكرت له مايحقّ عليه من حسن معاونته الأسد على الحقّ ، وإخراج نفسه من الشهادة الّتى لايكتمها مثله ، مع مايحقّ عليه من نصر المظلومين، وتثبيت حجّة الحقّ فى الحياة والممـات : فإنّه قد قالت العلماء : من كتم حجّة ميت أخطأ حجّته يوم القيامة. فلم تزل به، حتّى قام فدخل على الأسد ، فشهد عنده بما سمع من إقرار دمنة . فلمّا شهد النمر بذلك، أرسـل الفهدُ المحبوس الّذى

سمع إقرار دمنة وحفظه إلى الأسد فقال : إنّ عندى شهادة . فأخرجوه . فشهد على دمنة بما سمع من إقراره . فقال لهما الأسد : ما منعكما أن تقوما بشهادتكما، وقد علمتما أمرنا واهتمامنا بالفحص عن أمر دمنة ؟ فقال كلّ واحد منهما : قد علمنا أنّ شهادة الواحد لاتوجب حكما فكرهنا التعرّض لغير ما يمضى به الحكم؛ حتّى إذا شهد أحدنا قام الآخر بشهادته، فقبل الأسد قولهما . وأمر بدمنة أن يقتل فى حبسه : فقتل أشنع قتلة . فمن نظر فى هذا فليعلم أنّ من أراد منفعة نفسه بضرّ غيره بالخِلابة[1] والمكر، فإنّه سيجزى على خِلابته ومكره.

(انقضى باب الفحص عن أمر دمنة)

باب الحمامة المطوّقة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت مثل المتحابّين كيف قطع بينهما الكذوب، وإلى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك . فحدّثنى، إن رأيت، عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض؟ قال الفيلسوف: إنّ العاقل لايعدل بالإخوان شيئا . فالإخوان هم الأعوان على الخير كلّه ، والمؤاسون عندماينوب من المكروه . ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوّقة والجرذ والظبي والغراب. قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال بيدبا : زعموا أنّه كان بأرض سَكَاوَنْدجِيْنَ، عند مدينة داهرَ، مكان كثير الصيد، ينتابه الصيّادون؛ وكان فى ذلك المكان شجرة كثيرة

(١) الخديعة بلطف القول

الأغصان ملتفّة الورق ، فيها وكر غراب . فبينما هو ذات يوم ساقط في وكره إذ بَصُر بصيّاد قبيح المنظر، سيّئ الخلق، على عاتقه شبكة، وفي يده عصا ، مقبلا نحو الشجرة؛ فَذُعِـــرَ[(١)] منه الغراب ؛ وقال : لقد ساق هذا الرجل ، إلى هذا المكان : إمّا حَيْني وإمّا حَيْن غيري . فلأثبتنّ مكاني حتّى أنظر ماذا يصنع . ثمّ إنّ الصيّاد نصب شبكته، ونثر عليها الحبّ، وكَمَنَ[(٢)] قريبا منها؛ فلم يلبث إلّا قليلا، حتّى مرّت به حمامة يقال لها المطوّقة، وكانت سيّدة الحمام، ومعها حمام كثير؛ فعميت هي وأصحابها عن الشرك، فوقعن على الحبّ يلتقطنه، فَعَلِقْن في الشبكة كلّهنّ ؛ وأقبل الصياد فرحا مسرورا ؛ فجعلت كلّ حمـــامة تضطرب في حبائلهـــا ، وتلتمس الخلاص لنفسها . قالت المطوّقة : لا تخاذلْن[(٣)] في المعالجة، ولا تكن نفس إحداكنّ أهمّ إليهـــا من نفس صاحبتها؛ ولكن نتعـــاون جميعا ، فنقلع الشبكة ، فينجو بعضنا ببعض ؛ فقلعن الشبكة جميعهنّ بتعاونهم، وعلون في الجوّ؛ ولم يقطع الصياد رجاءه منهنّ وظنّ أنهنّ لايجاوزن إلّا قريبا ويَقعن . فقال الغراب : لأتبعهنّ وأنظر مايكون منهنّ . فالتفتت المطوّقة فرأت الصياد يتبعهنّ . فقالت للحمام : هـــذا الصياد مجدّ في طلبكنّ؛ فإن نحن أخذنا في الفضاء لم يخف عليه أمرنا، ولم يزل يتبعنا؛ وإن نحن توجّهنا إلى العمران خفي عليه أمرنا، وانصرف . وبمكان كذا جرذ هو لي أخ؛ فلو انتهينا إليه قطع عنا هذا الشرك . ففعلن ذلك . وأيس الصياد منهنّ وانصرف . وتبعهن الغراب . فلما انتهت الحمامة المطوّقة إلى الجرذ، أمرت الحمام أنـــ يسقطن ،

---

(١) خاف (٢) توارى (٣) لاتتركن مساعدة بعضكن

فوقعن ؛ وكان للجرذ مائة جحر للمخاوف ؛ فنادته المطوّقة باسمه ، وكان اسمه زيرك ، فأجابها الجرذ من جحره : من أنت؟ قالت : أنا خليلتك المطوّقة . فأقبل إليها الجرذ يسعى ، فقال لهـا : ما أوقعك فى هـذه الورطة ؟ قالت له : ألم تعـلم أنّه ليس من الخير والشرّ شىء إلّا وهو مقدّر على من تصيبه المقادير، وهى الّتى أوقعتنى فى هذه الورطة[1]؛ فقد لايمتنع من القدر من هو أقوى منّى وأعظم أمرا ؛ وقد تنكسف الشمس والقمر إذا قضى ذلك عليهما . ثمّ إنّ الجرذ أخذ فى قرض العقد الّذى فيه المطوّقة . فقالت له المطوّقة : ابدأ بقطع عقـد سائر الحمام، وبعد ذلك أقبل على عقدى ؛ وأعادت ذلك عليه مرارا ، وهو لا يلتفت إلى قولها ؛ فلمّا أكثرت عليه القول وكرّرت ، قال لها : لقد كررت القول علىّ كأنّك ليس لك فى نفسك حاجة ، ولا لك عليهـا شفقة ، ولا ترعين لها حقا . قالت : إنّى أخاف ، إن أنت بدأت بقطع عقدى ، أن تَمَلّ وتكسل عن قطع ما بقى ؛ وعرفت أنّك إن بدأت بهنّ قبلى ، وكنت أنا الأخيرة ، لم ترض ، وإن أدركك الفتور ، أن أبقى فى الشرك . قال الجرذ : هذا ممّا يزيد الرغبة والمودّة فيك . ثمّ إنّ الجرذ أخذ فى قرض الشبكة حتّى فرغ منها ، فانطلقت المطوّقة وحمامها معها .

فلمّـا رأى الغراب صنع الجرذ ، رغب فى مصادقته ؛ فجاء وناداه باسمه ، فأخرج الجرذ رأسه ، فقال له : ماحاجتك ؟ قال : إنى أريد مصادقتك . قال الجرذ : ليس بينى وبينك تواصل ؛ وإنّمـا العاقل ينبغى له أن يلتمس ما يجد إليه سبيلا ، ويترك التمـاس ما ليس إليه

(١) كل أمر تعسر النجاة منه

سبيل ، فإنّما أنت الآكل ، وأنا طعام لك . قال الغراب : إنّ أكلى إياك ، وإن كنت لى طعاما ، ممّا لايغنى عنى شيئا ، وإنّ مودّتك آنس لى مما ذكرت ، ولست بحقيق ، إذا جئت أطلب مودّتك ، أن تردّنى خائبا . فإنّه قد ظهر لى منك من حسن الخلق مارغّبنى فيك ، وإن لم تكن تلتمس إظهار ذلك : فإنّ العاقل لايخفى فضله ، وإن هو أخفاه ، كالمسك الّذى يكتم ثمّ لايمنعه ذلك من النشر الطيّب والأرج الفائح . قال الجرذ . إنّ أشدّ العداوة عداوة الجوهر : وهى عداوتان : منها ماهو متكافئ كعداوة الفيل والأسد . فإنّه ربما قتل الأسد الفيل أوالفيل الأسد ، ومنها ماقوّته من أحد الجانبين على الآخر كعداوة ما بينى وبين السّنّور وبينى وبينك : فإنّ العداوة الّتى بيننا ليست تضرّك ، وإنّما ضررها عائد علىّ : فإنّ الماء لو أطيل إسخانه لم يمنعه ذلك من إطفائه النار إذا صبّ عليها ، وإنّما مصاحب العدوّ ومصالحه كصاحب الحيّة يحملها فى كمّه ، والعاقل لا يستأنس إلى العدوّ الأريب

قال الغراب : قد فهمت ما تقول ، وأنت خليق أن تأخذ بفضل خليقتك ، وتعرف صدق مقالتى ، ولا تصعب علىّ الأمر بقولك : ليس إلى التواصل بيننا سبيل : فإنّ العقلاء الكرام لايبتغون على معروف جزاء ، والمودّة بين الصالحين سريع اتصالها ، بطىء انقطاعها . ومثل ذلك مثل الكوز من الذهب : بطىء الانكسار ، سريع الإعادة ، هين لإصلاح ، إن أصابه ثلم أو كسر ، والمودّة بين الأشرار سريع انقطاعها ، بطىء اتصالها . ومثل ذلك مثل الكوز من الفخار ، سريع الانكسار ، ينكسر من أدنى عيب ، ولا وصل له أبدا . والكريم يودّ الكريم ، واللئيم

لا يودّ أحدا إلّا عن رغبة أو رهبة . وأنا إلى ودّك ومعروفك محتاج : لأنّك كريم ؛ وأنا ملازم لبابك ، غير ذائق طعاما ، حتّى تؤاخينى . قال الجرذ : قد قبلت إخاءك : فإنّى لم أردد أحدا عن حاجة قط ؛ وإنّما بدأتك بما بدأتك به إرادة التوثّق لنفسى ؛ فإن أنت غدرت بى لم تقل : إنى وجدت الجرذ سريع الانخداع . ثمّ خرج من بحره ، فوقف عند الباب . فقال له الغراب : ما يمنعك من الخروج إلىّ ، والاستئناس بى ؟ فهل فى نفسك بعد ذلك منّى ريبة ؟ قال الجرذ : إنّ أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين ، ويتواصلون عليهما ، وهما ذات النفس ، وذات اليد . فالمتباذلون ذات النفس هم الأصفياء ؛ وأمّا المتباذلون ذات اليد فهم المتعاونون الّذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض . ومن كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا ، فإنّما مثله فيما يبذل ويعطى كمثل الصياد وإلقائه الحبّ للطير ، لا يريد بذلك نفع الطير ، وإنّما يريد نفع نفسه . فتعاطى ذات النفس أفضل من تعاطى ذات اليد . وإنّى وثقت منك بذات نفسك ، ومنحتك من نفسى مثل ذلك ، وليس يمنعنى من الخروج إليك سوء ظنّ بك ؛ ولكن قد عرفت أنّ لك أصحابا جوهرهم كجوهرك ، وليس رأيهم فىّ كرأيك .

قال الغراب : إنّ من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقا ، ولعدوّ صديقه عدوّا ؛ وليس لى بصاحب ولا صديق من لا يكون لك محبّا ؛ وإنّه يهون على قطيعة من كان كذلك من جوهرى . ثمّ إنّ الجرذ خرج إلى الغراب ، فتصافحا وتصافيا ، وأنس كلّ واحد منهما بصاحبه ؛ حتّى إذا مضت لهم أيام قال الغراب للجرذ : إنّ بحرك

قريب من طريق الناس ، وأخاف أن يرميك بعض الصبيان بحجر ؛ ولى مكان فى عزلة ، ولى فيه صديق من السلاحف ، وهو مخصب من السمك ؛ ونحن واجدون هناك ماناكل ؛ فأريد أن أنطلق بك إلى هناك لنعيش آمنين . قال الجرذ : إنّ لى أخبارا وقصصا سأقصّها عليك إذا انتهينا حيث تريد ، فافعل ماتشاء . فأخذ الغراب بذنب الجرذ ، وطار به حتّى بلغ به حيث أراد . فلمّا دنا من العين الّتى فيها السُّلَحْفَاة ، بصرت السلحفاة بغراب ومعه جرذ ، فذعرت منه ، ولم تعلم أنّه صاحبها ؛ فناداها ، فخرجت إليه ، وسألته من أين أقبلت ؟ فأخبرها بقصته حين تبع الحمام ، وما كان من أمره وأمر الجرذ حتى انتهى إليها . فلمّا سمعت السلحفاة شأن الجرذ ، عجبت من عقله ووفائه ، ورحبت به ، وقالت له : ما ساقك إلى هذه الأرض ؟ قال الغراب للجرذ : اقصص علىّ الأخبار الّتى زعمت أنّك تحدّثنى بها ، فأخبرنى بها مع جواب ماسألت السلحفاة : فإنها عندك بمنزلتى . فبدأ الجرذ وقال :

كان منزلى أوّل أمرى بمدينة ماروت فى بيت رجل ناسك ؛ وكان خاليا من الأهل والعيال ؛ وكان يؤتى فى كل يوم بسَلّة من الطعام فيأكل منها حاجته ويعلق الباقى ؛ وكنت أرصد الناسك ، حتّى يخرج وأثب إلى السلّة ، فلا أدع فيها طعاما إلّا أكلته ، وأرمى به إلى الجرذان . فجهد الناسك مرارا أن يعلّق السلّة مكانا لا أناله فلم يقدر على ذلك ؛ حتّى نزل به ذات ليلة ضيف ، فأكلا جميعا ؛ ثمّ أخذا فى الحديث ، فقال الناسك للضيف : من أىّ أرض أقبلت ؟ وأين تريد الآن ؟ وكان الرجل قد جاب الآفاق ، ورأى عجائب ؛ فأنشأ يحدّث الناسك

عمّا وطئ من البلاد ، ورأى من العجائب ؛ وجعل الناسك خلال ذلك يصفّق بيديه ، ليُنفّرني عن السلّة ؛ فغضب الضيف وقال : أنا أحدّثك وأنت تهزأ بحديثي ! فما حملك على أن سألتني ؟ فاعتذر إليه الناسك ، وقال : إنما أصفّق بيدي لأنفر جرذا قد تحيرت في أمره ، ولست أضع في البيت شيئا إلّا وأكله . فقال الضيف : جرذ واحد يفعل ذلك أم جرذان كثيرة؟ فقال الناسك : جرذان البيت كثيرة ، ولكن فيها جرذ واحد هو الّذي غلبني ، فما أستطيع له حيلة . قال الضيف : لقد ذكرتني قول الّذي قال : لأمرٍ ما باعت هذه المرأة سمسما مقشورا بغير مقشور ! قال الناسك : وكيف كان ذلك ؟

قال الضيف : نزلت مرّة على رجل بمكان كذا ، فتعشينا ، ثم فرش لي . وانقلب الرجل على فراشه ، فسمعته يقول في آخر الليل لامرأته : إنّي أريد أن أدعو غدا رهطا ليأكلوا عندنا ، فاصنعي لهم طعاما . فقالت المرأة : كيف تدعو الناس إلى طعامك ، وليس في بيتك فضل عن عيالك؟ وأنت رجل لاتبقي شيئا ولا تدّخره . قال الرجل : لاتندمي على شيء أطعمناه وأنفقناه : فإنّ الجمع والادّخار ربما كانت عاقبته كعاقبة الذئب . قالت المرأة : وكيف كان ذلك؟

قال الرجل : زعموا أنه خرج ذات يوم رجل قانص ، ومعه قوسه ونُشّابه[1] فلم يجاوز غير بعيد ، حتّى رمى ظبيا ، فحمله ورجع طالبا منزله ؛ فاعترضه خنزير برّيّ فرماه بنشابة نفذت فيه ؛ فأدركه الخنزير وضربه بأنيابه ضربة أطارت من يده القوس ، ووقعا ميتين ؛ فأتى عليهم ذئب

(١) جمع نُشّابة وهي السهم

فقـال : هذا الرجل والظبي والخنزير يكفيني أكلهم مدة؛ ولكن أبدأ بهذا الوتر فآكله ، فيكون قوت يومي ؛ فعالج الوتر حتّى قطعه؛ فلمّـا انقطع طارت سِيَةُ[1] القوس،فضربت حلقه فمات. وإنّمـا ضربت لكِ هذا المثـل لتعلمي أنّ الجمع والادّخار وخيم العاقبة . فقالت المرأة : نعم ماقلت ! وعندنا من الأرز والسمسم ما يكفي ستّة نَفَر أو سبعة؛ فأنا غادية على اصـطناع الطعام؛ فادع من أحببت . وأخذت المرأة حين أصبحت سمسما فقشرته ، وبسطته في الشمس ليجفّ ؛ وقالت لغلام لهم : اطرد عنه الطير والكلاب؛ وتفرّغت المرأة لصنعها؛ وتغافل الغلام عن السمسم؛ فجاء كلب ، فعاث[2] فيه ؛ فاستقذرته المرأة ، وكرهت أن تصـنع منه طعاما مّا ؛ فذهبت به إلى السوق ، فأخذت به مقايضـة سمسما غير مقشور : مثـلا بمثل، وأنا واقف في السوق ؛ فقال رجل : لأمر مّا باعت هذه المرأة سمسما مقشورا بغير مقشور . وكذلك قولي في هذا الجرذ الّذي ذكرت أنه على غير علة مّا يقدر على ما شكوت منـه . فالتمس لي فأسا لعلّي أحتفر جحره فأطلع على بعض شأنه ! فاستعار الناسك من بعض جيرانه فأسا ، فأتى بها الضيف ؛ وأنا حينئذ في جحر غير جحري ، أسمع كلامهـما ، وفي جحري كيس فيه مائة دينار، لا أدري من وضعها، فاحتفر الضيف حتّى انتهى إلى الدنانير فأخذها وقال للناسك : ماكان هـذا الجرذ يقوى على الوثوب حيث كان يثب إلّا بهـذه الدنانير : فإنّ المـال جعل له قوة وزيادة في الرأي والتمكّن . وسـترى بعد هذا أنه لا يقدر على الوثوب حيث

(١) طرفها (٢) أفسده

كان يثب. فلمّا كان من الغد اجتمع الجرذان الّتى كانت معى فقالت: قد أصابنا الجوع، وأنت رجاؤنا. فانطلقت ومعى الجرذان إلى المكان الذى كنت أثب منه إلى السلّة، فحاولت ذلك مرارا: فلم أقدر عليه. فاستبان للجرذان نقص حالى؛ فسمعتهنّ يقلن: انصرفن عنه، ولا تطمعن فيما عنده: فإنا نرى له حالا لا نحسبه إلا قد احتاج معها إلى من يعوله. فتركننى، ولحقن بأعدائى، وجفوننى، وأخذن فى غيبتى عند من يعادينى ويحسدنى. فقلت فى نفسى: ما الإخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلّا بالمال. ووجدت من لا مال له، إذا أراد أمرا، قعد به العدم عمّا يريده: كالماء الّذى يبقى فى الأودية من مطر الشتاء: لا يمرّ إلى نهر، ولا يجرى إلى مكان، فتشربه أرضه. ووجدت من لا إخوان له لا أهل له، ومن لا ولد له لا ذكر له، ومن لا مال له لا عقل له، ولا دنيا ولا آخرة له: لأنّ الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه: فإنّ الشجرة النابتة فى السباخ، المأكولة من كلّ جانب، كحال الفقير المحتاج إلى ما فى أيدى الناس. ووجدت الفقر رأس كلّ بلاء، وجالبا إلى صاحبه كلّ مقت، ومعدن النميمة. ووجدت الرجل إذا افتقر اتّهمه من كان له مؤتمنا، وأساء به الظنّ من كان يظنّ فيه حسنا: فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعا. وليس من خَلّة هى للغنىّ مدح إلّا وهى للفقير ذمّ: فإن كان شجاعا قيل: أهوج؛ وإن كان جوادا سمّى مبذّرا؛ وإن كان حليما سمى ضعيفا؛ وإن كان وقورا سمّى بليدا. فالموت أهون من الحاجة الّتى تحوج صاحبها إلى المسألة، ولا سيما مسألة الأشحّاء واللئام: فإنّ الكريم لو كلف أن يدخل يده

فى فم الأفعى، فيخرج منه سمّا فيبتلعه، كان ذلك أهون عليه، وأحبّ إليه، من مسألة البخيل اللئيم . وقد كنت رأيت الضيف حين أخذ الدنانير فقاسمها الناسك، فجعل الناسك نصيبه فى خريطة عند رأسه لمّا جنّ الليل، فطمعت أن أصيب منها شيئا فأردّه إلى جحرى، ورجوت أن يزيد ذلك فى قوّتى، ويراجعنى بسببه بعض أصدقائى . فانطلقت إلى الناسك وهو نائم، حتّى انتهيت عند رأسه، ووجدت الضيف يقظان، وبيده قضيب، فضربنى على رأسى ضربة موجعة، فسعيت إلى جحرى . فلمّا سكن عنى الألم، هيّجنى الحرص والشره، فخرجت طمعا كطمعى الأوّل، وإذا الضيف يرصدنى، فضربنى ضربة أسالت منّى الدم؛ فتقلّبت ظهرا لبطن إلى جحرى، فخررت مغشيّا علىّ، فأصابنى من الوجع ما بغض إلى المال، حتّى لا أسمع بذكره إلّا تداخلنى من ذكر المال رِعْدَة وهيبة . ثم تذكّرت فوجدت البلاء فى الدنيا إنما يسوقه الحرص والشره، ولا يزال صاحب الدنيا فى بليّة وتعب ونصب؛ ووجدت تَجَشُّم[1] الأسفار البعيدة فى طلب الدنيا أهون علىّ من بسط اليد إلى السخىّ بالمال؛ ولم أر كالرضا شيئا، فصار أمرى إلى أن رضيت وقنِعت، وانتقلت من بيت الناسك إلى البرّيّة؛ وكان لى صديق من الحمام، فسيقت إلىّ بصداقته صداقة . ثمّ ذكر لى الغراب ما بينك وبينه من المودّة، وأخبرنى أنّه يريد إتيانك، فأحببت أن آتيك معه، فكرهت الوحدة، فإنّه لاشىء من سرور الدنيا يعدل صحبة الإخوان، ولا غمّ فيها يعدل البعد عنهم.

(١) تكلّف الأمر على مشقة

وجربت: فعلمت أنّه لاينبغى للعاقل أن يلتمس من الدنيا غير الكفاف الذى يدفع به الأذى عن نفسه: وهو اليسير من المطعم والمشرب، إذا اشتمل على صحّة البدن ورفاهة البال. ولو أنّ رجلا وهبت له الدنيا بما فيها، لم يك ينتفع من ذلك إلّا بالقليل الّذى يدفع به عن نفسه الحاجة: فأقبلت مع الغراب إليك على هذا الرأى، وأنا لك أخ، فلتكن منزلتى عندك كذلك.

فلمّا فرغ الجرذ من كلامه أجابته السلحفاة بكلام رقيق عذب، وقالت: قد سمعت كلامك، وما أحسن ماتحدّثت به! إلّا أنّى رأيتك تذكر بقايا أمور هى فى نفسك. واعلم أنّ حسن الكلام لايتمّ إلّا بحسن العمل، وأنّ المريض الّذى قد علم دواء مرضه إن لم يتداو به، لم يغن علمه به شيئا، ولم يجد لدائه راحة ولا خفة. فاستعمل رأيك، ولاتحزن لقلّة المال: فإنّ الرجل ذا المروءة قد يكرم على غير مال: كالأسد الذى يهاب، وإن كان رابضا؛ والغنى الّذى لا مروءة له يهان، وإن كان كثير المال: كالكلب لايحفل به، وإن طوّق وخُلْخِل[1] بالذهب. فلا تكبرنّ عليك غربتك: فإنّ العاقل لاغربة له: كالأسد الذى لاينقلب إلّا معه قوته. فلتحسن تعاهدك لنفسك: فإنّك إذا فعلت ذلك جاءك الخير يطلبك كما يطلب الماء انحداره. وإنّما جعل الفضل للحازم البصير بالأمور؛ وأمّا الكسلان المتردّد فإنّ الفضل لايصحبه. وقد قيل فى أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء: ظلّ الغمامة

(١) يمكن أن يكون مأخوذا من المُخَلْخَل وهو موضع الخَلْخَال وإلا فإنّ كلمة خَلْخَل لم ترد صريحا إلا فى معنى خَلْخَل العظم أخذ ماعليه من اللحم.

فى الصيف ، وخُلّة الأشرار ، والبناء على غير أساس ، والمال الكثير: فالعاقل لا يحزن لقلّته ، وإنّما مال العاقل عقله ، وما قدّم من صالح عمله ؛ فهو واثق بأنّه لا يسلب ما عمل ، ولا يؤاخذ بشىء لم يعمله ؛ وهو خليق ألّا يغفل عن أمر آخرته : فإنّ الموت لا يأتى إلّا بغتة ، ليس له وقت معيّن . وأنت عن موعظتى غنى بما عندك من العلم . ولكن رأيت أن أقضى مالك من حقّ قبلنا : لأنّك أخونا ، وما عندنا من النصح مبذول لك .

فلمّا سمع الغراب كلام السلحفاة للجرذ ، وردّها عليه ، وملاطفتها إيّاه فرح بذلك ؛ وقال : لقد سررتنى ، وأنعمت علىّ ، وأنت جديرة أن تسرّى نفسك بمثل ما سررتنى به . وإن أولى أهل الدنيا بشدّة السرور من لا يزال رَبْعه من إخوانه وأصدقائه من الصالحين معمورا ، ولا يزال عنده منهم جماعة يسرّهم ويسرّونه ، ويكون من وراء أمورهم وحاجاتهم بالمرصاد : فإنّ الكريم إذا عثر لا يأخذ بيده إلّا الكرام : كالفيل إذا وحل لا تخرجه إلّا الفيلة .

فبينما الغراب فى كلامه ، إذ أقبل نحوهم ظبى يسعى ، فذُعِرَت منه السلحفاة ، فغاصت فى الماء ، وخرج الجرذ إلى جحره ، وطار الغراب ، فوقع على شجرة . ثم إنّ الغراب حلّق فى السماء لينظر هل للظبى طالب ؟ فنظر فلم ير شيئا ؛ فنادى الجرذ والسلحفاة ، وخرجا ؛ فقالت السلحفاة للظبى ، حين رأته ينظر إلى الماء : اشرب إن كان بك عطش ، ولا تخف : فإنّه لا خوف عليك . فدنا الظبى ، فرحّبت به السلحفاة وحيّته ، وقالت له : من أين أقبلت ؟ قال : كنت أسنح[1]

(١) السانح من الصيد مامر من المياسر الى الميامن والبارح ضده

بهذه الصحارى، فلم تزل الأساورة[١] تطردنى من مكان إلى مكان، حتّى رأيت اليوم شبحا ، نخفت أن يكون قانصا . قالت : لا تخف : فإنّا لم نرهاهنا قانصا قطّ ؛ ونحن نبذل لك ودّنا ومكاننا ، والماء والمرعى كثيران عندنا : فارغب فى صحبتنا . فأقام الظبى معهم ، وكان لهم عريش[٢] يجتمعون فيه، ويتذاكرون الأحاديث والأخبار. فبينما الغراب والجرذ والسلحفاة ذات يوم فى العريش، غاب الظبى، فتوقّعوه ساعة، فلم يأت . فلمّا أبطأ أشفقوا[٣] أن يكون قد أصابه ، عَنَتٌ[٤]، فقال الجرذ والسلحفاة للغراب: أنظر هل ترى مما يلينا شيئا؟ فحلّق الغراب فى السماء، فنظر: فإذا الظبى فى الحبائل مقتنصا، فانقض مسرعا، فأخبرهما بذلك، فقالت السلحفاة والغراب للجرذ : هذا أمر لا يرجى فيه غيرك، فأغث أخاك . فسعى الجرذ مسرعا ، فأتى الظبى ، فقال له : كيف وقعت فى هذه الورطة وأنت من الاكياس[٥]؟ قال الظبى : هل يغنى الكَيس مع المقادير شيئا ؟ فبينما هما فى الحديث إذ وافتهما السلحفاة، فقال لها الظبى : ما أصبت بمجيئك إلينا : فإنّ القانص لو انتهى إلينا وقد قطع الجرذ الحبائل اسْتَبَقْتُهُ عدوا، وللجرذ أجحار كثيرة ، والغراب يطير ، وأنت ثقيلة: لاسعى لك ولا حركة، وأخاف عليك القانص . قالت: لاعيش مع فراق الأحبّة ، وإذا فارق الأليف أليفه فقد سلب فؤاده، وحرم سروره، وغشى بصره . فلم ينته كلامها حتّى وافى القانص، ووافق ذلك فراغ الجرذ من قطع الشرك ؛ فنجا الظبى بنفسه، وطار

---

(١) جمع أُسوار وهو الرامى بالسهام (٢) مكان يستظل به (٣) خافوا (٤) وقوع فى أمر شاق (٥) جمع كيّس وهو الفطن الظاريف

الغراب محلّقـا، ودخل الجرذ بعض الأجحار، ولم يبق غير السلحفاة؛ ودنا الصياد فوجد حبالته مقطّعة، فنظر يمينا وشمالا فلم يجد غير السلحفاة تَدبّ، فأخذها وربطها، فلم يلبث الغراب والجرذ والظبي أن اجتمعوا فنظروا القـانص قد ربط السلحفاة، فاشـتدّ حزنهم، وقال الجرذ: ما أرانا نجاوز عقبة من البلاء إلّا صرنا فى أشدّ منهـا . ولقد صدق الّذى قال: لايزال الإنسان مستمرّا فى إقباله مالم يعثر، فإذا عثر لَجَّ[1] به العثار، وإن مشى فى جَدَدِ[2] الأرض . وحذرى على السلحفاة خير الأصدقاء الّتى خُلّتها[3] ليست للمجازاة ولا لالتماس مكافأة، ولكنّهـا خلة الكرم والشرف، خلّة هى أفضل من خلّة الوالد لولده، خلّة لا يزيلها إلّا الموت . ويح لهذا الجسد الموكّل به البلاء الّذى لايزال فى تصرف وتقلب، ولا يدوم له شىء، ولا يلبث معـه أمر: كما لا يدوم للطالع من النجوم طلوع، ولا للآفل منها أفول، لكن لايزال الطالع منها آفلا، والآفل طالعـا؛ وكما تكون آلام الكلوم[4] وانتقاض الجراحات، كذلك من قَرِحتْ كلومه بفقد إخوانه بعد اجتماعه بهم . فقال الظبي والغراب للجرذ: إن حذرنا وحذرك وكلامك، وإن كان بليغا، كلّ منها لا يغنى عن السلحفاة شيئا . وإنّه كما يقال: إنمـا يختبر الناس عنـد البلاء، وذو الأمانة عنـد الأخذ والعطاء، والأهل والولد عنـد الفاقة؛ كذلك تختبر الإخوان عند النوائب . قال الجرذ: أرى من الحيلة أن تذهب، أيّها الظبي، فتقع بمنظر من القانص: كأنّك جريح؛ ويقع الغراب عليك

---

(١) تمـادى (٢) الأرض الغليظة المستوية (٣) الخُلّة الصداقة المختصّة، تكون فى عفاف وفى دَعَارة (٤) جمع كَلْم وهو الجُرح

كأنّه يأكل منك ؛ وأسعى أنا فأكون قريبا من القانص، مراقبا له ، فعلّه أن يرمى مامعه من الآلة ، ويضع السلحفاة ، ويقصدك طامعا فيك ، راجيا تحصيلك . فإذا دنا منك ففرّ عنه رويدا : بحيث لاينقطع طمعه منك ، ومكّنه من أخذك مرّة بعد مرّة ، حتّى يبعد عنّا ، وانح منه هذا النحو ما استطعت : فإنى أرجو ألّا ينصرف إلّا وقد قطعت الحبائل عن السلحفاة ، وأنجوبها . ففعل الغراب والظبي ما أمرهما به الجرذ ، وتبعهما القانص ، فاستجرّه الظبي ، حتّى أبعده عن الجرذ والسلحفاة ؛ والجرذ مقبل على قطع الحبائل ، حتّى قطعها ، ونجا بالسلحفاة ، وعاد القانص مجهودا لاغبا[1] فوجد حبالته مقطّعة . ففكّر فى أمره مع الظبي المتظلّع ، فظنّ أنّه خولط فى عقله ، وفكر فى أمر الظبي والغراب الّذى كأنّه يأكل منه ، وقرض حبالته ، فاستوحش من الأرض وقال : هذه أرض جنّ أوسحرة . فرجع موليّا لايلتمس شيئا ، ولا يلتفت إليه . واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة إلى عريشهم سالمين آمنين كأحسن ما كانوا عليه .

فإذا كان هذا الخلق مع صغره وضعفه قد قدر على التخلّص من مرابط الهلكة مرّة بعد أخرى بمودّته وخلوصها ، وثبات قلبه عليها ، واستمتاعه مع أصحابه بعضهم ببعض ؛ فالإنسان الّذى قد أعطى العقل والفهم ، وألهم الخير والشرّ ، ومنح التمييز والمعرفة ، أولى وأحرى بالتواصل والتعاضد . فهذا مثل إخوان الصفاء وائتلافهم فى الصحبة .

(انقضى باب الحمامة المتطوّقة)

---

(١) تعبًا

باب البُوم والغِربان

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سَمِعتُ مَثَلَ إِخْوانِ الصفاء، وتَعاوُنِهم، فاضرب لى مثلَ العدوّ الّذى لاينبغى أن يُغترّ به، وإنْ أظْهرَ تضرّعا وملقا . قال الفيلسوف : من اغترّ بالعدوّ الّذى لم يزل عدوّا، أصابه ما أصاب البوم من الغربان . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال بيدبا : زعموا أنّه كان فى جبل من الجبال شَجَرَةٌ من شجر الدَّوْح[1]، فيها وَكْرُ ألف غُرابٍ ، وعَلَيْهِنّ والٍ مِنْ أنفسِهنّ ؛ وكان عند هذه الشجرة كهف فيه ألف بومة ، وعليهنّ وال منهنّ . فخرج ملك البوم لبعض غُدُوَاتِهِ[2] وروحاته ؛ وفى نفسه العداوة لملك الغربان ؛ وفى نفس الغربان وملكها مثل ذلك للبوم ؛ فأغار ملك البوم فى أصحابه على الغربان فى أوكارها ، فقتل وسَبَى منها خلقا كثيرا ، وكانت الغارة ليلا ؛ فلمّا أصبحت الغربان اجتمعت إلى ملكها فقلن له : قد علمت ما لقينا الليلة من ملك البوم ، وما منا إلّا من أصبح قتيلا أو جريحا أومكسور الجناح أومنتوف الريش أومقطوف الذنب . وأشدّ ممّا أصابنا ضرّا علينا جَرَاءَتُهنّ علينا ، وعِلْمهنّ بمكاننا ، وهنّ عائداتٌ إلينا غيرُ منقطعات عنا : لعلمهنّ بمكاننا : فإنّما نحن لك ، ولك الرأى ، أيّها الملك ، فانظر لنا ولنفسك . وكان فى الغربان خَمْسَة معترَفٌ لهنّ بحسن الرأى ، يُسند إليهنّ فى الأمور، ويُلقى عليهنّ أزمّة الأحوال . وكان الملك كثيرا مايشاورهُنّ فى الأمور، ويأخذ آراءهن فى الحوادث والنوازل .

---

(١) جمع دوحة وهى الشجرة العظيمة (٢) جمع غُدْوَة وهى الذهاب فى البُكْرَة

فقال الملك للأوّل من الخمسة : ما رأيك فى هذا الأمر ؟ قال : رأيي قد سبقتنا إليه العلماء، وذلك أنّهم قالوا : ليس للعدوّ الحَنِق[١] إلّا الهرب منه . قال الملك للثانى : مارأيك أنت فى هذا الأمر ؟ قال : رأيي ما رأى هذا من الهرب . قال الملك : لا أرى لكما ذلك رأيا : أن نرحل عن أوطاننا ونخليها لعدوّنا من أوّل نكبة أصابتنا منه ، ولا ينبغى لنا ذلك ؛ ولكن نجمع أمرنا ، ونستعدّ لعدوّنا ، ونذكى[٢] نار الحرب فيما بيننا وبين عدوّنا ، ونحترس من الغِرّة[٣] إذا أقبل إلينا ، فنلقاه مستعدّين، ونقاتله قتالا غير مراجعين فيه، ولا مقصّرين عنه: وتلقى أطرافنا أطراف العدوّ، ونتحرّز بحصوننا ، وندافع عدوّنا : بالأناة مرّة ، وبالجِلاد[٤] أخرى ، حيث نصيب فرصتنا وبغيتنا ، وقد ثنينا عدوّنا عنّا .

ثمّ قال الملك للثالث : مارأيك أنت؟ قال : ما أرى ماقالا رأيا ، ولكن نبثّ العيون ، ونبعث الجواسيس، ونرسل الطلائع بيننا وبين عدوّنا، فنعلم أيريد صلحنا أم يريد حربنا أم يريد الفدية ؟ فإن رأينا أمره أمر طامع فى مال، لم نكره الصلح على خراج نؤدّيه إليه فى كلّ سنة ، ندفع به عن أنفسنا ، ونطمئنّ فى أوطاننا : فإنّ من آراء الملوك إذا اشتدّت شوكة عدوّهم ، فخافوه على أنفسهم وبلادهم ، أن يجعلوا الأموال جُنّة البلاد والملك والرعيّة . قال الملك للرابع : فما رأيك فى هذا الصلح ؟ قال لا أراه رأيا؛ بل أن نفارق أوطاننا ونصبر على الغربة وشدّة المعيشة خير من أن نضيّع أحسابنا ، ونخضع للعدو

(١) المغتاظ (٢) نوقد (٣) الغفلة (٤) المضاربة بالسيوف

الّذى نحن أشرف منه؛ مع أنّ البُوم لو عرضنا ذلك عليهنّ لما رضين منّا إلّا بالشّطط(١). ويقال فى الأمثال : قارب عدوّك بعض المقاربة : لتنال حاجتك . ولا تقاربه كلّ المقاربة : فيجترئ عليك، ويضعف جندك، وتذلّ نفسك. ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة فى الشمس: إذا أملتها قليلا زاد ظلها ، وإذا جاوزت بها الحدّ فى إمالتها نقص الظلّ . وليس عدوّنا راضيا منّا بالدون فى المقاربة . فالرأى لنا ولك المحاربة .

قال الملك للخامس : ماتقول أنت ؟ وماذا ترى : أَلقتالَ أم الصلح أم الجلاء عن الوطن ؟ قال : أمّا القتال فلا سبيل للمرء إلى قتال من لايقوى عليه، وقد يقال : إنّه من لايعرف نفسه وعدوّه ، وقاتل من لايقوى عليه، حمل نفسه على حَتْفِهَا؛ مع أنّ العاقل لايستصغر عدوّا: فإنّ من استصغر عدوه اغترّ به، ومن اغترّ بعدوّه لم يسلم منه . وأنا للبُوم شديدُ الهيْبَةِ ، وإن أَضْرَبْنَ عن قتالنا . وقد كنت أهابها قبل ذلك : فإنّ الحازم لايأمن عدوّه على كلّ حال : فإن كان بعيدا لم يأمن سطوته، وان كان مُكْثِبًا(٢) لم يأمن وثبته، وإن كان وحيدا لم يأمن مكره . وأحزم الأقوام وأَكْيَسَهم من كره القتال لاجل النفقة فيه : فإنّ مادون القتال النفقة فيه من الأموال والقول والعمل ؛ والقتال النفقة فيه من الأنفس والأبدان . فلا يكوننّ القتال للبوم من رأيك ، أيّها الملك : فإنّ من قاتل من لايقوى عليه فقد غرّر(٣) بنفسه. فإذا كان الملك مُحَصّنًا للأسرار، مُتَخَيّرا للوزراء، مُهيبًا فى أعين الناس، بعيدا من أن

(١) مجاوزة الحد (٢) قريبا (٣) عرضها للهلكة

يقدر عليه ، كان خليقا أن لا يتسلب صحيح ما أوتى من الخير . وأنت ، أيّها الملك ، كذلك . وقد استشرتنى فى أمر ، جوابك منّى عنــه ، فى بعضه علانيــة ، وفى بعضه سرّ . وللأسرار منازل : منها مايدخل فيه الرهط[1] ، ومنها مايستعان فيه بالقوم ، ومنها مايدخل فيه الرجلان . ولست أرى لهذا السرّ على قدر منزلته أن يشارك فيــه إلّا أربعُ آذان ولسانان . فنهض الملك من ساعتــه ، وخلا به ، فاستشاره ، فكان أوّل ماسأله عنــه الملك أنّه قال : هل تعلم ابتداء عداوة ما بيننا وبين البوم ؟ قال : نعم : كلمة تكلم بهــا غراب . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الغراب : زعموا أنّ جمــاعة من الكراكىّ لم يكن لهــا ملك ، فأجمعت أمرها على أن يُملّكنّ عليهــنّ ملك البوم ؛ فبينما هى فى مجمعها إذ وقع لها غراب ، فقالت : لو جاءنا هذا الغراب لاستشرناه فى أمرنا ؛ فلم يلبثن دون أن جاءهنّ الغراب . فاستشرنه ، فقــال : لو أنّ الطير بادت من الأقاليم ، وفقد الطاووس والبطّ والنعام والحمام من العالم لمــا آضطررتنّ إلى أنــ تملّكن عليكنّ البوم الّتى هى أقبح الطير منظرا ، وأسوؤها خلقا ، وأقلها عقلا ، وأشدّها غضبا ، وأبعدها من كلّ رحمة ، مع عماها وما بها مــن العشا[2] بالنهار ؛ وأشدّ من ذلك وأقبح أمورها سفهها وســوء أخلاقها ، إلّا أن ترين أن تملّكنهــا وتكنّ أنتنّ تدبّرن الأمور دونها برأيكنّ وعقولكنّ ؛ كما فعلت الأرنب الّتى زعمت أنّ القمر ملكها ، ثم عملت برأيها . قال الطير : وكيف كان ذلك ؟

(١) قوم الرجل وقبيلته (٢) سوء البصر

قال الغراب : زعموا أنّ أرضا من أراضى الفيلة تتابعت عليها السنون ، وأجدبت ، وقلّ ماؤها ، وغارت عيونها ، وذوى نبتها ، و يبس شجرها ؛ فأصاب الفيلة عطش شديد : فشكون ذلك إلى ملكهنّ ؛ فأرسل الملك رسله وروّاده فى طلب الماء ، فى كلّ ناحية. فرجع إليه بعض الرسل ، فأخبره أنّى قد وجدت بمكان كذا عينا يقال لها عين القمر ، كثيرة الماء . فتوجه ملك الفيلة بأصحابه إلى تلك العين ليشرب منها هو وفيلته . وكانت العين فى أرض للأرانب ؛ فوطئن الأرانب فى أجحارهنّ ، فأهلكن منهنّ كثيرا . فاجتمعت الأرانب إلى ملكها فقلن له : قد علمت ماأصابنا من الفيلة . فقال : ليحضر منكنّ كل ذى رأى رأيه . فتقدمت أرنب من الأرانب يقال لها : فيروز. وكان الملك يعرفها بحسن الرأى والأدب ؛ فقالت : إن رأى الملك أن يبعثنى إلى الفيلة ، ويرسل معى أمينا ، ليرى ويسمع ماأقول ، ويرفعه إلى الملك . فقال لها الملك : أنت أمينة ، ونرضى بقولك ؛ فانطلقى إلى الفيلة ، وبلّغى عنى ماتريدين . واعلمى أنّ الرسول برأيه وعقله ، ولينه وفضله ، يخبر عن عقل المرسل . فعليك باللين والرفق ، والحلم والتأنّى : فإنّ الرسول هو الّذى يلين الصدور إذا رفق ، ويخشّن الصدور إذا خَرِقَ[1] . ثمّ إنّ الأرنب انطلقت فى ليلة قمراء ، حتّى انتهت إلى الفيلة ، وكرهت أن تدنو منهنّ : مخافة أن يطأنها بأرجلهنّ ، فيقتلنها ، وإن كنّ غير متعمّدات . ثمّ أشرفت على الجبل ، ونادت ملك الفيلة ، وقالت له : إنّ القمر أرسلنى إليك ؛ والرسول غير ملوم فيما يبلّغ ، وإن أغلظ

(١) حمق

فى القول . قال ملك الفيلة : فما الرسالة؟ قالت : يقول لك : إنّ من عرف فضل قوّته على الضعفاء، فاغترّ بذلك فى شأن الأقوياء، قياسا لهم على الضعفاء ، كانت قوّته وبالا عليه . وأنت قد عرفت فضل قوّتك على الدوابّ، فغرّك ذلك؛ فعمدت إلى العين التى تسمّى باسمى، فشربت منها ، وكدّرتها . فأرسلنى إليك : فأنذرك ألّا تعود إلى مثل ذلك . وإنّك إن فعلت أغشى بصرك، وأتلف نفسك . وإن كنت فى شكّ من رسالتى، فهلمّ إلى العين من ساعتك : فإنّى موافيك بها . فعجب ملك الفيلة من قول الأرنب ، فانطلق إلى العين مع فيروز الرسول . فلما نظر إليها ، رأى ضوء القمر فيها . فقالت له فيروز الرسول : خُذ بخُرْطومك من الماء فاغسل به وجهك، واسجد للقمر. فأدخل الفيل خرطومه فى الماء، فتحرّك فخيّل للفيل أنّ القمر ارتعد. فقال : ماشأن القمر ارتعد؟ أتراه غضب من إدخالى الخُرطوم فى الماء؟ قالت فيروز الأرنب : نعم . فسجد الفيل للقمر مرّة أخرى، وتاب إليه ممّا صنع ، وشرط ألّا يعود إلى مثل ذلك هو ولا أحد من فيلته . قال الغراب : ومع ماذكرت من أمر البوم إنّ فيها الخبّ والمكر والخديعة، وشرّ الملوك المخادع ؛ ومن ابتلى بسلطان مخادع ، وخدمه ، أصابه ما أصاب الأرنب والصّفرد(١) حين احتكما إلى السّنّور . قالت الكراكى: وكيف كان ذلك؟

قال الغراب : كان لى جار من الصفاردة ، فى أصل شجرة قريبة من وكرى، وكان يكثر مواصلتى؛ ثمّ فقدته، فلم أعلم أين غاب ؛

(١) طائر جبان كنيته أبو المليح

وطالت غيبتــه عنّى . فجاءت أرنب إلى مكان الصّــفرد، فسكنته، فكرهت أن أخاصم الأرنب، فلبثت فيه زمانا . ثمّ إنّ الصفرد عاد بعد زمان، فأتى منزله، فوجد فيه الأرنب . فقال لهــا : هذا المكان لى، فانتقلى عنه . قالت الأرنب : المسكن لى، وتحت يدى؛ وأنت مدّع له . فإن كان لك حقّ فاستعدّ بإثباته علىّ . قال الصفرد : القاضى منّا قريب : فهلمّى بنا إليه . قالت الأرنب : ومن القاضى؟ قال الصفرد: إنّ بساحل البحر سنورا متعبّدا ، يصوم النهار ، ويقوم الليــل كلّه؛ ولا يؤذى دابّة، ولا يهريق دما ؛ عيشه من الحشيش وممّــا يقذفه إليه البحر. فإن أحببت تحاكمنا إليه، ورضينا به . قالت الأرنب : ما أرضانى به إذا كان كما وصفت ! فانطلقا إليه، فتبعتهما لأنظر إلى حكومة الصوّام القوّام . ثمّ إنّهما ذهبا إليه، فلمّا بصر السنور بالأرنب والصفرد مقبلين نحوه، انتصب قائمــا يصلّى ، وأظهر الخشوع والتنسّك . فعجبا لمــا رأيا من حاله، ودنوا منه هائبين له ، وسلّما عليه ، وسألاه أن يقضى بينهما . فأمرهما أن يقصّا عليه القصّة، ففعلا . فقال لهما : قد بلغنى الكبَر، وثقلت أذناى : فادنوا منى، فأسمعانى ما تقولان . فدنوا منه، وأعادا عليــه القصّة، وسألاه الحكم . فقــال قد فهمت ما قلتما، وأنا مبتــدئكما بالنصيحة قبــل الحكومة بينكما : فأنا آمركما بتقوى الله، وألّا تطلبــا إلّا الحقّ : فإنّ طالب الحق هو الذى يفلح ، وإن قضى عليه؛ وطالب الباطل مخصوم، وإن قضى له . وليس لصاحب الدنيا من دنياه شىء، لا مال ولا صديق سوى العمل الصالح يقدّمه؛ فذو العقل حقيق أن يكون سعيه فى طلب ما يبقى ويعود نفعه عليه غدا ؛ وأن

يُمْقَتَ بسعيه فيما سوى ذلك من أمور الدنيا : فإنّ منزلة المال عند العاقل بمنزلة المَدَر[١]، ومنزلة الناس عنده فيما يحبّ لهم من الخير ويكره من الشرّ بمنزلة نفسه . ثمّ إنّ السنور لم يزل يقصّ عليهما من جنس هذا وأشباهه ، حتّى أنسا إليه ، وأقبلا عليه، ودنوا منه ، ثم وثب عليهما فقتلهما . قال الغراب : ثمّ إنّ البوم تجمع — مع ماوصفت لَكُنَّ من الشؤم — سائرَ العيوب : فلا يكوننّ تمليك البوم من رأيكنّ . فلمّا سمع الكراكىّ ذلك من كلام الغراب أضربن عن تمليك البوم . وكان هناك بوم حاضر قد سمع ماقالوا ، فقال للغراب : لقد وترتنى[٢] أعظم الترة، ولا أعلم أنّه سلف منى إليك سوء أوجب هذا . وبعد فاعلم أنّ الفأس يقطع به الشجر، فيعود ينبت؛ والسيف يقطع اللحم ، ثمّ يعود فيندمل؛ واللسان لايندمل جرحه ولا تؤسى[٣] مقاطعه . والنصل من السهم يغيب فى اللحم ، ثمّ ينزع فيخرج ؛ وأشباه النصل من الكلام إذا وصلت إلى القلب لم تنزع ولم تستخرج . ولكلّ حريق مطفئ : فللنار الماء، وللسمّ الدواء، وللحزن الصبر؛ ونار الحقد لاتخبو أبدا . وقد غرستم ، معاشر الغربان ، بيلنا وبينكم شجر الحقد والعداوة والبغضاء

فلمّا قضى البوم مقالته ، ولّى مُغْضَبًا ، فأخبر ملك البوم بما جرى وبكلّ ما كان من قول الغراب ؛ ثمّ إنّ الغراب ندم على مافرط منه ، وقال : والله لقد خرقت فى قولى الّذى جلبت به العداوة والبغضاء على

(١) واحدته مَدَرَة وهو قطع الطين اليابس والحجارة (٢) أصبتنى بأذى عظيم جعل لك فى قلبي عداوة لاتمحى وحقدا لايزول (٣) تداوى

نفسى وقومى ! وليتنى لم أخبر الكراكىّ بهذه الحال ! ولا أعلمتها بهذا الأمر ! ولعلّ أكثر الطير قد رأى أكثر ممّا رأيت ، وعلم أضعاف ماعلمت ، فمنعها من الكلام بمثل ماتكلّمت اتقاء مالم أتّق ، والنظر فيما لم أنظر فيــه من حِذار العواقب ، لاسيما إذا كان الكلام أفظع كلام ، يلقى منه سامعه وقائله المكروه ممّا يورث الحقد والضغينة ، فلا ينبغى لاشباه هذا الكلام أن تسمّى كلاما ، ولكن سهاما . والعاقل ، وإن كان واثقا بقوّته وفضله ، لاينبغى أن يحمله ذلك على أن يجلب العداوة على نفســه اتّكالا على ماعنــده من الرأى والقوّة ؛ كما أنّه وإن كان عنــده الترياق(١) لاينبغى له أن يشرب السمّ اتّكالا على ماعنــده . وصاحب حسن العمل ، وإن قصر به القول فى مستقبل الأمر ، كان فضله بيّنا واضحا فى العاقبة والاختبار ؛ وصاحب حسن القول ، وإن أعجب النــاس منــه حسن صفتــه للأمور ، لم تحمد عاقبــة أمره . وأنا صاحب القول الّذى لاعاقبة له محمودة . أليس من سفهى اجترائى على التكلّم فى الأمر الجسيم لا أستشير فيه أحدا ، ولم أعمل فيه رأيا؟ ومن لم يستشر النصحاء الأولياء ، وعمل برأيه من غير تكرار النظر والرويّة ، لم يغتبط بمواقع رأيه . فمــا كان اغنانى عمّــا كسبت يومى هــذا ، وما وقعت فيه من الهمّ ! وعاتب الغراب نفسه بهــذا الكلام وأشباهه وذهب . فهذا ماسألتنى عنه من ابتداء العداوة بيننا وبين البوم

وأمّا القتــال فقد علمت رأيى فيه ، وكراهتى له ؛ ولكن عندى من الرأى والحيلة غير القتال مايكون فيه الفرج إن شاء الله تعــالى : فإنّه

(١) دواء السموم

ربّ قوم قد احتالوا بآرائهم حتى ظفروا بما أرادوا . ومن ذلك حديث الجماعة الّذين ظفروا بالناسك، وأخذوا عريضه[1]. قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الغراب : زعموا أنّ ناسكا اشترى عريضا ضخما ليجعله قربانا ؛ فانطلق به يقوده . فبصر به قوم من المَكَرة ، فأتمروا بينهم أن يأخذوه من الناسك . فعرض له أحدهم فقال له : أيّها الناسك، ماهذا الكلب الّذى معك ؟ ثمّ عرض له الآخر فقال لصاحبه : ماهذا ناسك ؛ لأنّ الناسك لا يقود كلبا . فلم يزالوا مع الناسك على هذا ومثله حتّى لم يشكّ أنّ الذى يقوده كلب ؛ وأنّ الذى باعه إيّاه سحر عينه ، فأطلقه من يده ؛ فأخذه الجماعة المحتالون ومضوا به . وإنّما ضربت لك هذا المثل لما أرجو أن نصيب من حاجتنا بالرفق والحيلة . وإنّى أريد من الملك أن ينقرنى على رءوس الأشهاد ، و ينتف ريشى وذنبى ؛ ثمّ يطرحنى فى أصل هذه الشجرة ، ويرتحل الملك هو وجنوده إلى مكان كذا . فأرجو أنّى أصبر وأطّلع على أحوالهم ، ومواضع تحصينهم وأبوابهم ، فأخادعهم وآتى إليكم لنهجم عليهم ، وننال منهم غرضنا إن شاء الله تعالى .

قال الملك : أتطيب نفسك لذلك ؟ قال : نعم ، وكيف لا تطيب نفسى لذلك وفيه أعظم الراحات للملك وجنوده ؟ ففعل الملك بالغراب ما ذكر ؛ ثمّ ارتحل عنه . فجعل الغراب يئنّ ويهمس[2] حتّى رأته البوم وسمعته يئن ؛ فأخبرن ملكهنّ بذلك ، فقصد نحوه ليسأله عن الغربان .

(١) العريض من المَعَز ما أتى عليه سنة (٢) الهمس الصوت الخفىّ

فلما دنا منه أمر بوما أن يسأله فقال له : من انت ؟ وأين الغربان ؟ فقال : أمّا اسمى ففلان، وأمّا ماسألتنى عنه فإنّى أحسبك ترى أنّ حالى حال من لايعلم الأسرار . فقيل لملك البوم : هذا وزير ملك الغربان وصاحب رأيه ؛ فلنسأله بأىّ ذنب صنع به ماصنع ؟ فسئل الغراب عن أمره فقال : إنّ ملكنا استشار جماعتنا فيكنّ : وكنت يومئذ بمحضر من الأمر؛ فقال : أيّهـا الغربان، ماترون فى ذلك ؟ فقلت : أيّها الملك، لا طاقة لنـا بقتال البوم : لأنّهنّ أشدّ بطشا ، وأحدّ قلبا منّا . ولكن أرى أن نلتمس الصلح ؛ ثمّ نبذل الفدية فى ذلك؛ فإن قبلت البوم ذلك منّا ، وإلّا هربنا فى البلاد . وإذا كان القتال بيننا وبين البوم كان خيرا لهنّ وشرّا لنـا، فالصلح أفضل من الخصومة . وأمرتهنّ بالرجوع عن الحرب؛ وضربت لهنّ الأمثـال فى ذلك؛ وقلت لهنّ : إنّ العدوّ الشديد لايردّ بأسه وغضبه مثل الخضوع له : ألا ترين إلى الحشيش كيف يسلم من عاصف الريح للينه وميله معهـا حيث مالت . فعصيننى فى ذلك؛ وزعمن أنّهنّ يردن القتال، واتّهمننى فيما قلت، وقلن : إنّك قد مالأت (١) البوم علينا؛ ورددن قولى ونصيحتى، وعذّبننى بهذا العذاب، وتركنى الملك وجنوده وارتحل . ولا علم لى بهنّ بعد ذلك :

فلمّـا سمع ملك البوم مقـالة الغراب قال لبعض وزرائه : ماتقول فى الغراب ؟ وماترى فيه ؟ قال : ماأرى إلّا المعاجلة له بالقتل : فإنّ هذا أفضل عُدَد الغربان ، وفى قتله لنـا راحة من مكره ، وفقده على

(١) ساعدت

الغربان شديد . ويقال : من ظفر بالساعة الّتى فيها ينجح العمل ، ثمّ لايعاجله بالّذى ينبغى له ، فليس بحكيم . ومن طلب الأمر الجسيم ، فأمكنه ذلك فأغفله ، فاته الأمر ؛ وهو خليق ألّا تعود الفرصة ثانية . ومن وجد عدوّه ضعيفا ، ولم ينجز قتله ، ندم إذا استقوى ولم يقدر عليه .

قال الملك لوزير آخر : ما ترى أنت فى هذا الغراب ؟ قال : أرى ألّا تقتله : فإنّ العدوّ الذليل الذى لا ناصر له أهل لان يستبقى ويرحم ويصفح عنه ، لاسيما المستجير الخائف : فإنّه أهل لأن يؤمّن .

قال ملك البوم لوزير آخر من وزرائه : ماتقول فى الغراب ؟ قال : أرى أن تستبقيه وتحسن إليه : فإنّه خليق أن ينصحك . والعاقل يرى معاداة بعض أعدائه بعضا ظفرا حسنا ؛ ويرى اشتغال بعض الأعداء ببعض خلاصا لنفسه منهم ، ونجاة كنجاة الناسك من اللص والشيطان حين اختلفا عليه . قال الملك له : وكيف كان ذلك ؟

قال الوزير : زعموا أنّ ناسكا أصاب من رجل بقرة حلوبا ، فانطلق بها يقودها إلى منزله ، فعرض له لصّ أراد سرقتها ، واتبعه شيطان يريد اختطافه . فقال الشيطان للّص : من أنت ؟ قال : أنا اللص ، أريد أن أسرق هذه البقرة من الناسك إذا نام . فمن أنت ؟ قال : أنا الشيطان أريد اختطافه إذا نام وأذهب به . فانتهيا على هذا إلى المنزل ، فدخل الناسك منزله ، ودخلا خلفه ، وأدخل البقرة فربطها فى زاوية المنزل ، وتعشى ونام . فأقبل اللص والشيطان يأتمران فيه ، واختلفا على من يبدأ بشغله أوّلا : فقال الشيطان للّص : إن أنت بدأت بأخذ البقرة فربما استيقظ وصاح ، واجتمع الناس : فلا أقدر

على أخذه . فأنظرنى ريثما آخذه ، وشأنك وما تريد . فأشفق اللص إن بدأ الشيطان باختطافه فربما استيقظ ، فلا يقدر على أخذ البقرة . فقال : لا ، بل أنظرنى أنت حتّى آخذ البقرة ، وشأنك وما تريد . فلم يزالا فى المجادلة هكذا ، حتّى نادى اللص : أيّها الناسك انتبه : فهذا الشيطان يريد اختطافك ، ونادى الشيطان : أيّها الناسك انتبه : فهذا اللص يريد أن يسرق بقرتك . فانتبه الناسك وجيرانه بأصواتهما ، وهرب الخبيثان . قال الوزير الأوّل الذى أشار بقتل الغراب : أظنّ أنّ الغراب قد خدعكنّ ، ووقع كلامه فى نفس الغبىّ منكنّ موقعه ؛ فتردن أن تضعن الرأى فى غير موضعه . فمهلا مهلا أيّها الملك عن هذا الرأى . فلم يلتفت الملك إلى قوله وأمر بالغراب أن يحمل إلى منازل البوم ، ويكرم ويُستَوصَى به خيرا .

ثمّ إنّ الغراب قال للملك يوما ، وعنده جماعة من البُوم ، وفيهنّ الوزير الّذى أشار بقتله : أيّها الملك ، قد علمت ما جرى علىّ من الغربان ؛ وأنّه لا يستريح قلبى دون أخذى بثأرى منهنّ ؛ وإنّى قد نظرت فى ذلك ، فإذا بى لا أقدر على مارمت : لأنّى غراب . وقد روى عن العلماء أنّهم قالوا : من طابت نفسه بأن يحرقها ، فقد قرّب لله أعظم القربان . لا يدعو عند ذلك بدعوة إلّا استجيب له[1] . فإن رأى الملك أن يأمرنى فأحرق نفسى ، وأدعو ربى أن يحوّلنى بوما ، فأكون أشدّ عداوة وأقوى بأسا على الغربان ، لعلّى أنتقم منهنّ ! قال الوزير الّذى أشار بقتله : ما أشبهك فى خير ما تظهر وشرّ ما تخفى إلّا بالخمرة

(١) هذا فى اعتقاد الهنود الذين لم يستضيئوا بنور الإسلام

الطيبة الطعم والريح المُنْقَع فيها السمّ . أرأيت لو أحرقنا جسمك بالنار كان جوهرك وطباعك متغيّرة ! أليست أخلاقك تدور معك حيثما درت ، وتصير بعد ذلك إلى أصلك وطويّتك ؟ كالفأرة الّتى خيّرت فى الأزواج بين الشمس والريح والسحاب والجبل فلم يقع اختيارها إلّا على الجرذ . قيل له : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أنه كان ناسك مستجاب الدعوة ، فبينما هو ذات يوم جالس على ساحل البحر، إذ مرّت به حِدَأة فى رجلها دِرْصُ[1] فأرة . فوقعت منها عند الناسك ، وأدركته لها رحمة ، فأخذها ولفّها فى ورقة ، وذهب بها إلى منزله ؛ ثمّ خاف أن تشقّ على أهله تربيتها، فدعا ربه أن يحوّلها جارية : فتحوّلت جارية حسناء. فانطلق بها إلى آمرأته، فقال لها : هذه ابنتى، فاصنعى معها صنيعك بولدى . فلمّا كَبِرَت قال لها الناسك : يابنيّة آختارى من أحببت حتّى أزوّجك به . فقالت ، أمّا إذا خيّرتنى فإنّى أختار زوجا يكون أقوى الأشياء. فقال الناسك لعلّك تريدين الشمس ! ثمّ انطلق إلى الشمس فقال : أيّها الخلق العظيم، لى جارية، وقد طلبت زوجا يكون أقوى الأشياء، فهل أنت متزوّجها ؟ فقالت الشمس : أنا أدُلّك على من هو أقوى منّى : السحاب الّذى يغطّينى ، ويردّ حرّ شعاعى، ويكسف أشعّة أنوارى . فذهب الناسك إلى السحاب فقال له ما قال للشمس ، فقال السحاب : وأنا أدلّك على من هو أقوى منّى : فاذهب إلى للريح الّتى تقبل بى وتدبر، وتذهب بى شرقا وغربا . فجاء الناسك إلى الريح

(١) ولد الفارة

فقال لها كقوله للسحاب . فقالت : وأنا أدلّك على من هو أقوى منّي، وهو الجبل الّذى لا أقدر على تحريكه . فمضى إلى الجبل فقال له القول المذكور . فأجابه الجبل وقال له : أنا أدلّك على من هو أقوى منّي : الجرذ الّذى لاأستطيع الامتناع منه إذا ثقبني، واتّخذني مسكنا . فانطلق الناسك إلى الجرذ فقال له : هل أنت متزوّج هذه الجارية؟ فقال : وكيف أتزوّجها وجحرى ضيّق؟ وإنّما يتزوّج الجرذ الفأرة . فدعا الناسك ربّه أن يحوّلها فأرة كما كانت، وذلك برضا الجارية، فأعادها الله إلى عنصرها الأوّل فانطلقت مع الجرذ . فهذا مثلك، أيّها المخادع . فلم يلتفت ملك البوم إلى ذلك القول، ورفق بالغراب، ولم يزدد له إلّا إكراما، حتّى إذا طاب عيشه، ونبت ريشه، واطّلع على ماأراد أن يطّلع عليه، راغ روغة، فأتى أصحابه بما رأى وسمع . فقال للملك : أنّى قد فرغت ممّا كنت أريد، ولم يبق إلّا أن تسمع وتطيع، قال له : أنا والجند تحت أمرك، فاحتكم كيف شئت .

قال الغراب : إنّ البوم بمكان كذا، فى جبل كثير الحطب، وفى ذلك الموضع قطيع من الغنم، مع رجل راع؛ ونحن مصيبون هنالك نارا، ونلقيها فى أنقاب[1] البوم، ونقذف عليها من يابس الحطب، ونتراوح عليها ضربا بأجنحتنا، حتّى تضطرم النار فى الحطب : فمن خرج منهنّ احترق، ومن لم يخرج مات بالدخان موضعه . ففعل الغربان ذلك : فأهلكن البوم قاطبة، ورجعن إلى منازلهنّ سالمات آمنات .

---

(١) جمع نَقْب أو نُقْب بمعنى الثقب أو الطريق، والمراد بها مساكن البوم

ثمّ إنّ ملك الغربان قال لذلك الغراب : كيف صبرت على صحبة البوم، ولاصبر للأخيار على صحبة الأشرار؟ فقال الغراب : إنّ ماقلته، أيها الملك ، لكذلك . ولكن العاقل إذا أتاه الأمر الفظيع العظيم الذى يخاف من عدم تحمّله الجائحة(١) على نفسه وقومه ، لم يجزع من شدّة الصبر عليه، لما يرجو من أن يُعْقِبَه صبره حسن العاقبة، وكثير الخير؛ فلم يجد لذلك ألما ، ولم تكره نفسه الخضوع لمن هو دونه ، حتّى يبلغ حاجته . فيغتبط بخاتمة أمره، وعاقبة صبره . فقال الملك : أخبرنى عن عقول البوم : قال الغراب : لم أجد فيهنّ عاقلا إلّا الذى كان يحثهنّ على قتلى، وكان حرّضهنّ على ذلك مرارا، فكنّ أضعف شيء رأيا ! فلم ينظرن فى أمرى ، ويذكرن أنّى قد كنت ذا منزلة فى الغربان ، وأنّى أعدّ من ذوى الرأى ، ولم يتخوفن مكرى وحيلتى ، ولا قبلن من الناصح الشفيق ، ولا أَخْفَيْن دونى أسرارهنّ . وقد قال العلماء : ينبغى للملك أن يحصن أموره من أهل النميمة، ولا يطلع أحدا منهم على مواضع سرّه . فقال الملك : ماأهلك البوم فى نفسى إلّا البغى ، وضعف رأى الملك ، وموافقته وزراء السوء . فقال الغراب : صدقت أيّها الملك، إنّه قلّما ظفر أحد بغنى ولم يطغ، وقلّ من أكثر من الطعام إلّا مرض. وقلّ من وثق بوزراء السوء وسلم من أن يقع فى المهالك . وكان يقال : لا يطمعنّ ذو الكبْر فى حسن الثناء ، ولا الخبّ فى كثرة الصديق ، ولا السيئ الأدب فى الشرف، ولا الشحيح فى البرّ، ولا الحريص فى قلّة الذنوب، ولا

(١) الشدة المهلكة

الملك المحتال ، المتهاون بالأمور، الضعيف الوزراء ، فى ثبات ملكه ، وصلاح رعيّته . قال الملك : لقد احتملت مشقّة شديدة فى تصنّعك للبوم، وتضرّعك لهنّ . قال الغراب : إنّه من احتمل مشقّة يرجو نفعها، ونحّى عن نفسه الأنفة والحَمِيَّة، ووطّنها على الصبر، حمد غبّ[1] رأيه ؛ كما صبر الأسود على حمل ملك الضفادع على ظهره، وشبع بذلك وعاش . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الغراب : زعموا أنّ أسود من الحيّات كبر، وضعف بصره . وذهبت قوّته : فلم يستطع صيدا ، ولم يقدر على طعام، وأنّه انساب يلتمس شيئا يعيش به ، حتّى انتهى إلى عين كثيرة الضفادع ، قد كان يأتيها قبل ذلك ، فيصيب من ضفادعها رزقه ، فرمى نفسه قريبا منهنّ ، مظهرا للكآبة والحزن . فقال له ضفدع[2] : مالى أراك ، أيّها الأسود، كئيبا حزينا ؟ قال ومن أحرى بطول الحزن منّى ! وإنّما كان أكثر معيشتى ممّا كنت أصيب من الضفادع ، فابتليت ببلاء، وحرمت علىّ الضفادع من أجله ؛ حتّى إنى إذا التقيت ببعضها ، لا أقدر على إمساكه . فانطلق الضفدع إلى مَلِك الضفادع ، فبشّره بما سمع من الأسود . فأتى ملك الضفادع إلى الأسود . فقال له : كيف كان أمرك ؟ قال : سعيت منذ أيام فى طلب ضفدع . وذلك عند المساء، فاضطررته إلى بيت ناسك، ودخلت فى أثره فى الظلمة، وفى البيت ابن للناسك ، فأصبت إصبعه ؛ فظننت أنّها الضفدع ؛

(١) عاقبة (٢) بكسر أوله وثالثه أو فتحهما أو ضم الأوّل وفتح الثالث الواحدة بهاء والجمع ضفادع

فلدغته فمات . فخرجت هاربا ، فتبعني الناسك في أثري ، ودعا علي ، ولعنني . وقال : كما قتلت ابني البريء ظلما وتعدّيا ، أدعو عليك أن تذلّ وتصير مركبا لملك الضفادع ، فلا تستطيع أخذها ، ولا أكل شيء منها ، إلّا مايتصدّق به عليك ملكها . فأتيت إليك لتركبني ، مقرّا بذلك ، راضيا به . فرغب ملك الضفادع في ركوب الأسود ، وظنّ أنّ ذلك فخر له وشرف ، ورفعة ، فركبه واستطاب ذلك . فقال له الأسود ، قد علمت أيّها الملك أنّي محروم ، فاجعل لي رزقا أعيش به . قال ملك الضفادع : لعمري لابدّ لك من رزق يقوم بك ، إذ كنت مركبي . فأمر له بضفدعين يؤخذان في كلّ يوم ، ويدفعان إليه . فعاش بذلك ، ولم يضرّه خضوعه للعدوّ الذليل ؛ بل انتفع بذلك ، وصار له رزقا ومعيشة . وكذلك كان صبري على ما صبرت عليه ، التماسا لهذا النفع العظيم الذي اجتمع لنا فيه الأمن والظفر ، وهلاك العدوّ والراحة منه . وجدت صرعة اللين والرفق أسرع وأشدّ استئصالا للعدوّ من صرعة المكابرة : فإنّ النار لا تزيد بحدّتها وحرّها إذا أصابت الشجرة على أن تحرق مافوق الأرض منها . والماء ببرده ولينه يستأصل ماتحت الأرض منها . ويقال أربعة أشياء لا يستقلّ قليلها : النار والمرض والعدوّ والدّين . قال الغراب : وكلّ ذلك كان من رأي الملك وأدبه وسعادة جدّه . وإنّه كان يقال : إذا طلب اثنان أمرا ظفر به منهما أفضلهما مروءة . فإن اعتدلا في المروءة ، فأشدّهما عزما . فإن استويا في العزم ، فأسعدهما جدّا . وكان يقال : من حارب الملك الحازم الأريب المتضرّع الّذي لا تبطره السرّاء ، ولا تدهشه الضرّاء ، كان هو داعي

الحتف إلى نفسه، ولا سيما إذا كان مثلك، أيّها الملك العالم بفروض الأعمال، ومواضع الشدّة واللين، والغضب والرضا، والمعاجلة والأناة؛ الناظر فى أمر يومه وغده، وعواقب أعماله . قال الملك للغراب : بل برأيك وعقلك ونصيحتك ويمن طالعك كان ذلك : فإنّ رأى الرجل الواحد، العاقل الحازم، أبلغ فى هلاك العدوّ من الجنود الكثيرة، من ذوى البأس والنجدة، والعدد والعدة . وإنّ من عجيب أمرك عندى طول لُبْثك بين ظَهرَانَي البوم : تسمع الكلام الغليظ، ثمّ لم تسقط بينهنّ بكلمة ! قال الغراب : لم أزل متمسكا بأدبك، أيّها الملك : أصحب البعيد والقريب، بالرفق واللين، والمبالغة والمؤاتاة . قال الملك : أصبحت وقد وجدتك صاحب العمل، ووجدت غيرك من الوزراء أصحاب أقاويل : ليس لها عاقبة حميدة : فقد منّ الله علينا بك منّة عظيمة لم نكن قبلها نجد لذّة الطعام ولا الشراب، ولا النوم ولا القرار . وكان يقال : لا يجد المريض لذّة الطعام والنوم حتّى يبرأ؛ ولا الرجل الشره الّذى قد أطمعه سلطانه فى مال وعمل فى يده، حتّى ينجزه له؛ ولا الرجل الّذى قد ألحّ عليه عدوّه، وهو يخافه صباحا ومساء، حتّى يستريح منه قلبه . ومن وضع الحمل الثقيل عن يديه أراح نفسه . ومن أمِن عدوّه ثَلِجَ(١) صدره .

قال الغراب : أسأل الله الّذى أهلك عدوّك أن يمتعك بسلطانك، وأن يجعل فى ذلك صلاح رعيّتك، ويشركهم فى قرّة العين بملكك ! فإنّ الملك إذا لم يكن فى ملكه قرّة عيون رعيّته، فمثله مثل زَنَمَة(٢)

(١) اطمأن (٢) قطعة لحم تتدلى من عنقه

العَنْزِ الّتى يَمَصُّها، وهو يحسبها حلمة الضرع، فلا يصادف فيها خيرا . قال الملك : أيّهـا الوزير الصالح، كيف كانت سـيرة البوم وملكها، فى حروبها، وفيما كانت فيـه من أمورها؟ قال الغراب : كانت سيرته سـيرة بطر، وأشَر وخُيَلَاء، وعجز، وفخر، مع مافيه من الصـفات الذميمة . وكلّ أصحابه ووزرائه شبيه به ، إلّا الوزير الّذى كان يشـير عليه بقتـلى : فإنّه كان حكيما أريبا، فيلسوفا حازما عالمـا، قلّما يرى مثله فى علوّ الهمّة، وكمال العقل، وجودة الرأى . قال الملك : وأى خصلة رأيت منه كانت أدلّ على عقله؟ قال: خلّتان : إحداهما رأيه فى قتلى، والأخرى أنّه لم يكن يكتم صاحبه نصيحته، وإن استقلّها؛ ولم يكن كلامه كلام عنف وقسوة، ولكنّه كلام رفق ولين، حتّى إنّه ربمـا أخبره ببعض عيوبه، ولا يصرح بحقيقـة الحـال؛ بل يضرب له الأمثال، ويحدّثه بعيب غيره، فيعرف عيبه . فلا يجـد ملكه إلى الغضب عليه سبيلا . وكان ممّـا سمعته يقول لملكه: إنّه لاينبغى للملك أن يَغْفُل عن أمره: فإنّه أمر جسيم، لايظفر به من الناس إلّا قليل، ولا يدرك إلّا بالحزم؛ فإنّ الملك عزيز: فمن ظفربه فليحسن حفظه وتحصينه : فإنّه قد قيـل : إنّه فى قلّة بقائه بمنزلة قلّة بقاء الظلّ عن ورق النَّيْلَوفَر، وهو فى خفّـة زواله، وسرعة إقبـاله وإدباره كالريح؛ وفى قلة ثبـاته كاللبيب مع اللئام؛ وفى سرعة اضمحلاله كحَباب المـاء من وقع المطر . فهذا مثـل أهل العداوة الّذين لاينبغى أن يغترّ بهم؛ وإن هم أظهروا تودّدا وتضرّعا .

(انقضى باب البوم والغربان)

باب القرد والغَيْلَم[1]

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لى مثل الرجل الّذى يطلب الحاجة، فإذا ظفر بها، أضاعها. قال الفيلسوف: إنّ طلب الحاجة أهون من الاحتفاظ بها، ومن ظفر بحاجة ثمّ لم يحسن القيام بها، أصابه ما أصاب الغيلم. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا: زعموا أنّ قردا يقال له ماهر، كان ملك القردة، وكان قد كبر وهرم، فوثب عليه قرد شابّ من بيت المملكة، فتغلّب عليه، وأخذ مكانه. فخرج هاربا على وجهه، حتّى انتهى إلى الساحل، فوجد شجرة من شجر التين، فارتقى إليها وجعلها مقامه. فبينما هو ذات يوم يأكل من ذلك التين، إذ سقطت من يده تينة فى الماء، فسمع لها صوتا وإيقاعا، فجعل يأكل ويرمى فى الماء، فأطربه ذلك: فأكثر من طرح التين فى الماء، وثمّ غيلم، كلّما وقعت تينة أكلها. فلمّا كثر ذلك، ظنّ أنّ القرد إنّما يفعل ذلك لأجله، فرغب فى مصادقته، وأنِس إليه، وكلّمه، وألِفَ كلّ واحد منهما صاحبه. وطالت غيبة الغيلم عن زوجته: فجزعت عليه، وشكت ذلك إلى جارة لها، وقالت: قد خفت أن يكون قد عرض له عارض سوء فاغتاله. فقالت لها: إنّ زوجك بالساحل قد ألف قردا وألفه القرد: فهو مؤاكله ومشاربه، وهو الذى قطعه عنك، ولا يقدر أن يقيم عندك حتّى تحتالى لهلاك القرد. قالت: وكيف أصنع؟. قالت

(١) السلحفاة الذكر

جارتها : إذا وصل إليك فتمارضى، فإذا سألك عن حالك فقولى : إنّ الحكماء وصفوا لى قلب قرد . ثم إنّ الغيلم انطلق بعد مدّة إلى منزله، فوجد زوجته سيّئة الحال مهمومة،فقال لها الغيلم : مالى أراك هكذا؟ فأجابته جارتها، وقالت : إنّ زوجتك مريضة مسكينة، وقد وصف لهـا الأطباء قلب قرد، وليس لها دواء سواه . قال الغيلم : هذا أمر عسـير . من أين لنـا قلب قرد ، ونحن فى المـاء ؟ لكن سأحتال لصـديق . ثمّ انطلق إلى سـاحل البحر : فقـال له القرد يا أخى ، ماحبسك عنّى؟ قال له الغيلم: ماحبسنى عنك إلّا حيائى : فلم أعرف كيف أجازيك على إحسانك إلىّ؟ وأريد أن تتم إحسانك إلى بزيارتك لى فى منزلى : فإنّى ساكن فى جزيرة طيّبة الفاكهة . فاركب ظهرى لأسبح بك . فرغب القرد فى ذلك، ونزل فركب ظهر الغيلم، فسبح به ،حتّى إذا سبح به، عرض له قبح ماأضمر فى نفسه من الغدر، فنكّس رأسه ؛ فقال له القرد : مالى أراك مهتما؟ قال الغيلم : إنّما همى لأنّى ذكرت أنّ زوجتى شديدة المرض، وذلك يمنعنى من كثير ممّا أريد أن أبلغه من كرامتك وملاطفتك . قال القرد : إنّ الذى أعرف من حرصك على كرامتى يكفيك مؤونة التكلّف . قال الغيلم : أجل . ومضى بالقرد ساعة، ثمّ توقّف به ثانيـة : فساء ظنّ القرد وقال فى نفسـه : ما احتباس الغيلم وإبطاؤه إلّا لأمر! ولست آمنا أن يكون قلبه قد تغيّر لى، وحال عن مودّتى ، فأراد بى سوءا : فإنّه لاشىء أخفّ وأسرع تقلّبـا من القلب . وقد يقال: ينبغى للعاقل ألّا يَغْفُل عن التماس مافى نفس أهـله وولده وإخوانه وصديقه، عنـد كلّ أمر، وفى كلّ

لحظة وكلمة ، وعند القيام والقعود ، وعلى كلّ حال : فإن ذلك كلّه يشهد على مافى القلوب . وقد قالت العلماء : إذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم فى التحفّظ منه ، وليتفقّد ذلك فى لحظاته وحالاته : فإن كان مايظنّ حقّا ظفر بالسلامة ، وإن كان باطلا ظفر بالحزم ، ولم يضره ذلك ؛ ثمّ قال للغيلم : ماالذى يحبسك؟ ومالى أراك مهتمّا ، كأنّك تحدّث نفسك مرّة أخرى؟ قال : يهمّنى أنك تأتى منزلى فلا تجد أمرى كماأحبّ : لأنّ زوجتى مريضة . قال القرد : لاتهتمّ ، فإنّ الهمّ لايغنى عنك شيئا . ولكن ٱلتمس مايصلح زوجتك من الأدوية والاغذية : فإنه يقال : ليبذل ذو المال ماله فى أربعة مواضع : فى الصدقة ، وفى وقت الحاجة ، وعلى البنين ، وعلى الأزواج . قال الغيلم : صدقت . وقدقالت الأطباء : إنّه لادواء لها إلّا قلب قرد . فقال القرد فى نفسه : وا أسفاه ! لقد أدركنى الحرص والشره على كبر سنّى : حتّى وقعت فى شرّ ورطة ! ولقد صدق الذى قال : يعيش القانع الراضى مستريحا مطمئنا ، وذو الحرص والشره يعيش ماعاش فى تعب ونصب ؛ وإنّى قد احتجت الآن إلى عقلى فى التماس المخرج ممّا وقعت فيه . ثمّ قال للغيلم : وما منعك أن تعلمنى عند منزلى ، حتّى كنت أحمل قلبى معى ؟ فهذه سنّة فينا ، معاشر القردة ، إذا خرج أحدنا لزيارة صديق ، خلف قلبه عند أهله ، أو فى موضعه ، لننظر إذا نظرنا إلى حُرَم المزور وليس قلوبنا معنا . قال الغيلم : وأين قلبك لآن ؟ قال : خلفته فى الشجرة . فإن شئت فارجع بى إلى الشجرة ، حتّى آتيك به . ففرح الغيلم بذلك . وقال : لقد وافقنى صاحبى بدون

أن أغدِر به . ثم رجع بالقرد إلى مكانه . فلمّا قارب الساحل ، وثب عن ظهره ، فارتقى الشجرة . فلمّا أبطأ على الغيلم ، ناداه : ياخليلى ، احمل قلبك وانزل ، فقد حبستنى . فقال القرد : هيهات ! أتظنّ أنّى كالحمار الّذى زعم ابن آوى أنّه لم يكن له قلب ولا أذنان ؟ قال الغيلم : وكيف كان ذلك ؟

قال القرد : زعموا أنه كان أسد فى أجمة ، وكان معه ابن آوى يأكل من فواضل طعامه ، فأصاب الأسد جرب ، وضعف شديد ، وجهد ؛ فلم يستطع الصيد . فقال له ابن آوى : ما بالك ، ياسيد السباع ، قد تغيّرت أحوالك ؟ قال : هذا الجرب الذى قد أجهدنى ، وليس له دواء إلّا قلب حمار وأذناه . قال ابن آوى : ماأيسر هذا ! وقد عرفت بمكان كذا حمارا مع قَصّار[1] يحمل عليه ثيابه ، وأنا آتيك به ، ثم دَلَفَ[2] إلى الحمار فأتاه وسلّم عليه فقال له : مالى أراك مهزولا ؟ قال مايطعمنى صاحبى شيئا . فقال له : وكيف ترضى المقام معه على هذا ؟ قال : فما لى حيلة فى الهرب منه ، لست أتوجّه إلى جهة إلّا أضرّبى إنسان فكدّنى وأجاعنى . قال ابن آوى : فأنا أدلك على مكان معزول عن الناس ، لا يمرّ به إنسان ، خصيب[3] المرعى ، فيه قطيع من الحُمُر لم ترعينُ مثلها حسنا وسمنا . قال الحمار : وما يحبسنا عنها ؟ فانطلق بنا إليها ، فانطلق به ابن آوى نحو الأسد ، وتقدم ابن آوى ، ودخل الغابة على الأسد ، فأخبره بمكان الحمار . فخرج إليه وأراد أن يثبَ عليه ، فلم يستطع لضعفه ، وتخلّص الحمار منه . فأفلت

(١) مُحَوِّر الثياب (٢) معناه هنا تقدم (٣) كثير

هَلِعاً[1] على وجهه . فلمّا رأى ابن آوى أنّ الأســد لم يقدر على الحمار، قال له : أعجزت ياسيّد السباع إلى هذه الغاية؟ فقال له : إن جئتنى به مرّة أخرى، فلن ينجو منّى أبدا . فمضى ابن آوى إلى الحمار فقال له : ما الذى جرى عليك ؟ إن أحد الحمر رآك غريبا ، فخرج يتلقّاك مرحّبا بك ، ولو ثبتّ له لآنسك ، ومضى بك إلى أصحابه . فلمّا سمع الحمار كلام ابن آوى ، ولم يكن رأى أسدا قطّ ، صدّقه ، وأخذ طريقه إلى الأسد ، فسبقه ابن آوى إلى الأسد ، وأعلمه بمكانه . وقال له : استعدّ له ، فقد خدعته لك : فلا يدركنّك الضعف فى هذه النوبة : فإنّه إن أفلت فلن يعود معى أبدا . فجاش[2] جأش الأســد لتحريض ابن آوى له ، وخرج إلى موضع الحمار . فلمّا بصر به عاجله بوثبة افترسه بها . ثم قال : قد ذكرت الأطباء أنّه لا يؤكل إلّا بعد الغسل والطهور : فاحتفظ به حتّى أعود فآكل قلبه وأذنيه ، وأترك ماسوى ذلك قوتا لك . فلمّا ذهب الأسد ليغتسل ، عمد ابن آوى إلى الحمار فأكل قلبه وأذنيه ، رجاء أن يتطيّر الأسد منه ، فلا يأكل منه شيئا . ثمّ إنّ الأســد رجع إلى مكانه ، فقال لابن آوى : أين قلب الحمار وأذناه ؟ قال ابن آوى : ألم تعلم أنّه لو كان له قلب يفقه به ، وأذنان يسمع بهما ، لم يرجع إليك بعد ما أفلت ونجا من الهلكة :

وإنّما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنّى لست كذلك الحمار الّذى زعم ابن آوى أنّه لم يكن له قلب وأذنان ، ولكنّك احتلت علىّ ، وخدعتنى ، فخدعتك بمثل خديعتك ، واستدركت فارط أمرى .

---

(١) الهلع أفحش الجزع (٢) غلى والجأش وقد لا يهمز من معانيه النفس

وقد قيل : إنّ الّذى يفسده الحلم لا يصلحه إلّا العلم . قال الغيلم : صدقت ، إلّا أنّ الرجل الصالح يعترف بزلّته ، وإذا أذنب ذنبا لم يستحى أن يؤدّب : لصدقه فى قوله وفعله ، وإن وقع فى ورطة أمكنه التخلّص منها بحيلته وعقله : كالرجل الذى يعثر على الأرض، ثمّ ينهض عليها معتمدا . فهذا مثل الرجل الّذى يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها . (انقضى باب القرد والغيلم)

باب الناسك وابن عرس

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل . فاضرب لى مثل الرجل العجلان فى أمره، من غير رويّة ولا نظر فى العواقب . قال الفيلسوف : إنّه من لم يكن فى امره متثبّتا ، لم يزل نادما ، ويصير أمره إلى ما صار إليه الناسك من قتل ابن عرس ، وقد كان له ودودا . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف : زعموا أنّ ناسكا من النّسّاك كان بأرض جرجان[1] وكانت له امرأة جميلة ، فمكثا زمانا لم يرزقا ولدا ، ثمّ حملت منه بعد الإياس . فسرّت المرأة وسرّ الناسك بذلك ، فحمد الله تعالى ، وسأله أن يكون الحمل ذكرا . وقال لزوجته : أبشري : فإنى أرجو ان يكون غلاما، لنا فيه منافع، وقرّة عين، أختار له أحسن الأسماء ، وأحضر له سائر الأدباء . فقالت المرأة : ما يحملك أيها الرجل على أن تتكلّم بما لا تدرى أيكون أم لا ؟ ومن فعل ذلك أصابه

(١) بلد بفارس

ما أصاب الناسك الّذى أراق على رأسه السمنَ والعسلَ . قال لها : وكيف كان ذلك ؟

قالت : زعموا أنّ ناسكا كان يجري عليه من بيت رجلٍ تاجر، فى كل يوم، رزقٌ من السمنِ والعسل، وكان يأكلُ منه قوتَه وحاجتَه، ويرفعُ الباقِيَ، ويجعلهُ فى جَرّة ، فيعلّقها فى وَتِد فى ناحية البيت ، حتّى امتلأَتْ . فبينما الناسكُ ذات يوم مُستلقٍ على ظهره ، والعكّازةُ فى يده ، والجرّة مُعَلّقةٌ على رأسه ، تَفَكّرَ فى غلاءِ السمن والعسل ، فقال : سأَبيعُ ما فى هذه الجرّة بدينار ، وأشترى به عشرَةَ أعْنُزٍ ، فَيَحْبَلْن ويلدن فى كلّ خمسة أشهرٍ بطنا ، ولا تلبث إلّا قليلا حتّى تَصِيرَ غنما كثيرة ، إذا ولدت أولادها ؛ ثم حرّر على هذا النحو بسنين فوجد ذلك أكثر من أربعمائةِ عنز، فقال : أنا أشترى بها مائةً من البقر، بكلّ أربعةَ أعْنزٍ ثورًا أو بقرة ، وأشترى أرضا وبَذْرًا ، وأستأجر أكَرَةً(١) وأزرع على الثيران ، وأنتفع بألبانِ الإناث ونِتَاجِهَا : فلا يأتى علىّ خمْسُ سنين إلّا وقد أصبت من الزرع مالا كثيرا : فأبنى بيتا فاخرا ؛ وأشترى إماءً وعَبِيدًا ؛ وأتزوّج امرأة جميلة ، ذاتَ حُسْن ؛ ثمّ تأتى بغلام سَرِيّ نجيب، فأختار له أحسن الأسماء؛ فاذا ترعرع أدّبْتُه، وأحسنت تأديبه، وأشدّد عليه فى ذلك، فإن يقبل منّى، وإلّا ضربتُه بهذه العكّازة، وأشار بيده إلى الجرّة فكسرها، فسال ما كان فيها على وجهه . وإنما ضربت لك هذا المثل لكى لاتعجل بذكر مالا ينبغى ذكره ، وما لا تدرى أيصحّ أم لا يصحّ . فاتّعظ الناسك بما حكت

(١) جمع أكّار وهو الحرّاث

زوجته . ثمّ إنّ المرأة ولدت غلاما جميلا، ففرح به أبوه . وبعد أيّام حان لها أن تتطهّر فقالت المرأة للناسك : اقعد عند ابنك حتّى أذهب إلى الحمّام فأغتسل وأعود . ثمّ إنّها انطلقت إلى الحمّام، وخلّفت زوجها والغلام . فلم يلبث أن جاءه رسول الملك يستدعيه، ولم يجد من يخلفه عند ابنه، غير ابن عرس داجن (١) عنده، كان قد ربّاه صغيرا : فهو عنده عديل ولده . فتركه الناسك عند الصبيّ، وأغلق عليهما البيت، وذهب مع الرسول . فخرج من بعض أجحار البيت حيّة سوداء، فدنت من الغلام، فضربها ابن عرس، ثمّ وثب عليها فقتلها، ثمّ قطّعها وامتلأ فمه من دمها . ثم جاء الناسك، وفتح الباب، فالتقاه ابن عرس، كالمبشّر له بما صنع من قتل الحيّة . فلمّا رآه ملوّثا بالدم، وهو مذعور، طار عقله، وظنّ أنّه قد خنق ولده . ولم يتثبّت فى أمره، ولم يتروّ فيه، حتى يعلم حقيقة الحال، ويعمل بغير ما ظنّ من ذلك . ولكن عجّل على ابن عرس، وضربه بعكّازة كانت فى يده، على أمّ رأسه، فمات . ودخل الناسك فرأى الغلام سليما حيّا، وعنده أسود مقطّع . فلما عرف القصّة، وتبيّن له سوء فعله فى العجلة، لطم على رأسه . وقال : ليتنى لم أرزق هذا الولد، ولم أغدر هذا الغدر ! ودخلت امرأته، فوجدته على تلك الحال . فقالت له : ما شأنك ؟ فأخبرها بالخبر من حسن فعل ابن عرس وسوء مكافأته له . فقالت : هذه ثمرة العجلة ! فهذا مثل من لا يتثبّت فى أمره، بل يفعل أغراضه بالسرعة والعجلة .

(انقضى باب الناسك وابن عرس)

(١) آلف

باب الجرذ والسنّور

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لى مثل رجل كثر أعداؤه، وأحدقوا به من كل جانب؛ فأشرف معهم على الهلاك، فالتمس النجاة والمخرج بموالاة بعض اعدائه ومصالحته، فسلم من الخوف وأمن؛ ثمّ وفى لمن صالحه منهم. قال الفيلسوف: إنّ المودّة والعداوة لاتثبتان على حالة واحدة أبدا. وربما حالت المودّة إلى العداوة، وصارت العداوة ولاية وصداقة. ولهذا حوادث وعلل وتجارب، وذو الرأى يحدث لكلّ مايحدث من ذلك رأيا جديدا: أمّا من قبل العدوّ فبالبأس، وأمّا من قبل الصديق فبالاستئناس. ولا تمنع ذا العقل عداوة كانت فى نفسه لعدوّه من مقاربته والاستنجاد به على دفع مخوف أو جرّ مرغوب. ومن عمل فى ذلك بالحزم ظفر بحاجته. ومثل ذلك مثل الجرذ والسنور حين وقعا فى الورطة، فنجوا باصطلاحهما جميعا من الورطة والشدّة. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا: زعموا أنّ شجرة عظيمة كان فى أصلها جحر سنّور يقال له رومى، وكان قريبا منه جحر جرذ يقال له فريدون، وكان الصيّادون كثيرا يتداولون ذلك المكان، يصيدون فيه الوحش والطير؛ فنزل ذات يوم صيّاد، فنصب حبالته قريبا من موضع رومى، فلم يلبث أن وقع فيها. فخرج الجرذ يدب، ويطلب مايأكل، وهو حذر من رومى. فبينما هو يسعى إذ بصر به فى الشرك، فسرّ واستبشر. ثمّ التفت فرأى خلفه ابن عرس، يريد أخذه؛ وفى الشجرة بوما، يريد اختطافه؛ فتحيّر فى أمره، وخاف إن رجع وراءه أخذه ابن عرس،

وإن ذهب يمينا او شمالا اختطفه البوم ، وإن تقدّم أمامه افترسه السنّور . فقال فى نفسه : هذا بلاء قد اكتنفنى ، وشرور تظاهرت علىّ ، ومحن قد أحاطت بى . وبعد ذلك فمعى عقلى ، فلا يفزعنى أمرى ، ولا يهولنى شأنى ، ولا يلحقنى الدهش ، ولا يذهب قلبى شَعَاعا : فالعاقل لا يَفْرَقُ[1] عند سداد رأيه ، ولا يعزب عنه ذهنه على حال . وإنّما العقل شبيه بالبحر الذى لا يدرك غوره . ولا يبلغ البلاء من ذى الرأى مجهوده : فيهلكه ، وتحقّق الرجاء لا ينبغى أن يبلغ منه مبلغا يبطره ويسكره : فيعمى عليه أمره . ولست أرى لى من هذا البلاء مخلصا إلّا مصالحة السنّور : فإنّه قد نزل به من البلاء مثل ماقد نزل بى أو بعضه . ولعلّه إن سمع كلامى الّذى أكلّمه به ، ووعى عنى فصيح خطابى ، ومحض صدقى الّذى لا خلاف فيه ، ولا خداع معه : ففهمه ، وطمع فى معونتى إيّاه ، نخلص جميعا

ثمّ ان الجرذ دنا من السنور فقال له : كيف حالك ؟ قال له السنّور: كما تحبّ : فى ضنك وضيق . قال : وأنا اليوم شريكك فى البلاء ، ولست أرجو لنفسى خلاصا إلّا بالّذى أرجو لك فيه الخلاص . وكلامى هذا ليس فيه كذب ولا خديعة . وابن عرس ها هو كامن لى ، والبوم يَرْصُدنى ، وكلاهما لى ولك عدوّ . فإن جعلت لى الأمان ، قطعت حبائلك ، وخلّصتك من هذه الورطة . فإذا كان ذلك تخلّص كلّ واحد منّا بسبب صاحبه : كالسفينة والركّاب فى البحر : فبالسفينة ينجون ، وبهم تنجو السفينة . فلمّا سمع السنّور كلام الجرذ ، وعرف

(١) يخاف

أنه صادق ، قال له : إنّ قولك هذا لشبيه بالحقّ ، وأنا أيضا راغب فيما أرجو لك ولنفسى به الخلاص . ثمّ إنّك إن فعلت ذلك فسأشكرك مابقيت . قال الجرذ : فانّى سأدنو منك، فأقطع الحبائل كلّها إلّا حبلا واحدا أبقيه لأستوثق لنفسى منك . ثمّ أخذ فى قرض حبائله . ثمّ إنّ البوم وابن عرس لمّا رأيا دنو الجرذ من السنّور أيسا منه، وانصرفا. ثمّ إنّ الجرذ أبطأ على رومى فى قطع الحبائل، فقال له : مالى لا أراك مجدّا فى قطع حبائلى ؟ فإن كنت قد ظفرت بحاجتك : فتغيّرت عمّا كنت عليه ، وتوانيت فى حاجتى ، فما ذلك من فعل الصالحين : فإنّ الكريم لايتوانى فى حقّ صاحبه . وقد كان لك فى سابق مودّتى من الفائدة والنفع ما قد رأيت . وأنت حقيق أن تكافئنى بذلك ، ولا تذكر العداوة التى بينى وبينك : فالّذى حدث بينى وبينك من الصلح حقيق أن ينسيك ذلك ، مع مافى الوفاء من الفضل والأجر، وما فى الغدر من سوء العاقبة : فإنّ الكريم لايكون إلّا شكورا غير حقود ، تنسيه الخلّة الواحدة من الإحسان الخلال الكثيرة من الإساءة . وقد يقال : إنّ أعجل العقوبة عقوبة الغدر، ومن إذا تُضُرِّع إليه ، وسئل العفو، فلم يرحم، ولم يعف، فقد غدر، قال الجرذ : إنّ الصديق صديقان : طائع ومضطر، وكلاهما يلتمسان المنفعة، ويحترسان من المضرّة . فأمّا الطائع فَيُسْتَرْسَل إليه ، ويُؤْمَن فى جميع الأحوال . وأمّا المضطر ففى بعض الأحوال يسترسل إليه، وفى بعضها يتحذّر منه . ولا يزال العاقل يَرْتَهن منه بعضَ حاجاته، لبعض ما يَتّقِى ويخاف . وليس عاقبة التواصل من المتواصل إلّا طلب

عاجل النفع وبلوغ مأموله . وأنا واف لك بما جعلت لك، ومحترس منك مع ذلك، من حيث أخافك : تخوفا أن يصيبنى منك ما ألجأنى خوفه إلى مصالحتك ، وألجأك إلى قبول ذلك منّى : فإنّ لكلّ عمل حينا . فما لم يكن منه فى حينه ، فلا حسن لعاقبته . وأنا قاطع حبائلك كلّها، غير أنّى تارك عقدة واحدة أرتهنك بها، ولا أقطعها إلّا فى الساعة الّتى أعلم أنّك فيها عنّى مشغول : وذلك عند معاينتى الصيّاد . ثمّ إنّ الجرذ أخذ فى قطع حبائل السنّور . فبينما هو كذلك إذ وافى الصيّاد ، فقال له السنّور : الآن جاء الجدّ فى قطع حبائلى . فأجهد الجرذ نفسه فى القرض، حتّى إذا فرغ وثب السنور إلى الشجرة على دَهَش من الصيّاد، ودخل الجرذ بعض الأجحار ، وجاء الصيّاد فأخذ حبائله مقطّعة، ثمّ انصرف خائبا .

ثمّ إنّ الجرذ خرج بعد ذلك ، وكره أن يدنو من السنّور، فناداه السنّور : أيّها الصديق الناصح ، ذو البلاء الحسن عندى ، مامنعك من الدّنوّ إلىّ ، لا جازيك بأحسن ماأسديت إلى ؟ هلمّ إلىّ ، ولا تقطع إخائى : فإنّه من اتّخذ صديقا، وقطع إخاءه، وأضاع صداقته، حرم ثمرة إخائه، وأيس من نفعه الإخوان والأصدقاء . وإنّ يدك عندى لاتنسى ، وأنت حقيق أن تلتمس مكافأة ذلك منّى ومن إخوانى وأصدقائى . ولا تخافنّ منى شيئا. واعلم أنّ ماقبلى لك مبذول . ثمّ حلف واجتهد على صدقه فيما قال . فناداه الجرذ : ربّ صداقة ظاهرة باطنها عداوة كامنة . وهى أشدّ من العداوة الظاهرة . ومن لم يحترس منها، وقع موقع الرجل الّذى يركب ناب الفيل المغتلم، ثمّ يغلبه النعاس، فيستيقظ

تحت فراسن[1] الفيل، فيدوسه ويقتله . وإنّما سمّى الصديق صديقا: لما يرجى من نفعه، وسمّى العدوّ عدوّا: لما يخاف من ضرره . والعاقل إذا رجا نفع العدوّ أظهر له الصداقة، وإذا خاف ضرّ الصديق أظهر له العداوة . ألا ترى تتّبع البهائم أمّهاتها رجاء ألبانها ؛ فإذا انقطع ذلك انصرفت عنها . وربما قطع الصديق عن صديقه بعض ما كان يصله، فلم يخف شرّه : لأنّ أصل أمره لم يكن عداوة . فأمّا من كان أصل أمره عداوة جوهريّة ، ثمّ أحدث صداقة لحاجة حملته على ذلك، فإنّه إذا زالت الحاجة الّتى حملته على ذلك، زالت صداقته، فتحوّلت عداوة، وصار إلى أصل أمره : كالماء الّذى يسخّن بالنار، فإذا رفع عنها عاد باردا . وليس من أعدائى عدوّ أضر لى منك . وقد اضطرّنى وإيّاك حاجة إلى ماأحدثنا من المصالحة . وقد ذهب الأمر الّذى احتجت إلىّ واحتجت إليك فيه ، وأخاف أن يكون مع ذهابه عود العداوة . ولا خير للضعيف فى قرب العدوّ القوىّ ، ولا للذليل فى قرب العدوّ العزيز . ولا أعلم لك قبلى حاجة ؛ إلّا أن تكون تريد أكلى؛ ولا أعلم لى قبلك حاجة، وليس عندى بك ثقة: فإنى قد علمت أنّ الضعيف المحترس من العدوّ القوىّ أقرب إلى السلامة من القوىّ إذا اغترّ بالضعيف واسترسل إليه . والعاقل يصالح عدوّه إذا اضطر إليه، ويصانعه، ويظهر له ودّه، ويريه من نفسه الاسترسال إليه إذا لم يجد من ذلك بدّا ، ثمّ يعجل الانصراف عنه ، حين يجد إلى ذلك سبيلا . واعلم أنّ سريع الاسترسال لاتقال عثرته . والعاقل يفى لمن

(١) جمع فِرْسِن وهو بمنزلة الحافر

صالحه من أعدائه بما جعل له من نفسه، ولا يثق به كلّ الثقة، ولا يأمنه على نفسه مع القرب منه . وينبغى أن يبعد عنه ما استطاع . وأنا أودّك من بعيد، وأحبّ لك من البقاء والسلامة، ما لم أكن أحبّه لك من قبل . ولا عليك أن تجازينى على صنيعى إلا بمثل ذلك : إذ لا سبيل إلى اجتماعنا والسلام . (انقضى باب الجرذ والسنّور)

باب ابن الملك والطائر فنزة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل، فاضرب لى مثل أهل الترات[1] الذين لابدّ لبعضهم من اتّقاء بعض . قال بيدبا : زعموا أن ملكا من ملوك الهند كان يقال له بَرِيدُونُ، وكان له طائر يقال له فنزة، وكان له فرخ وكان هذا الطائر وفرخه ينطقان بأحسن منطق، وكان الملك بهما معجبا . فأمر بهما أن يجعلا عند امرأته، وأمرها بالمحافظة عليهما . واتّفق أنّ امرأة الملك ولدت غلاما، فألف الفرخ الغلام . وكلاهما طفلان يلعبان جميعا . وكان فنزة يذهب إلى الجبل كلّ يوم، فيأتى بفاكهة لا تعرف، فيطعم ابن الملك شطرها، ويطعم فرخه شطرها . فأسرع ذلك فى نشأتهما، وزاد فى شبابهما، وبان عليهما أثره عند الملك : فازداد لفنزة إكراما وتعظيما ومحبة؛ حتّى إذا كان يوم من الأيّام وفنزة غائب فى اجتناء الثمرة، وفرخه فى حجر الغلام، ذرق فى حجره؛ فغضب الغلام، وأخذ الفرخ فضرب به الأرض : فمات . ثمّ إنّ فنزة أقبل فوجد فرخه مقتولا، فصاح وحزن، وقال :

(١) جمع ترة وهى الثأر

فبعدا للملوك الّذين لا عهد لهم ولا وفاء ! ويل لمن ابتلى بصحبة الملوك الّذين لا حميّـة لهم ولا حرمة ، ولا يحبّون أحدا ولا يكرم عليهم إلّا إذا طمعوا فيما عنده من غَنَآء ، واحتاجوا إلى ما عنده من علم : فيكرمونه لذلك ، فإذا ظفروا بحاجتهم منه ، فلا ودّ ، ولا إخاء ، ولا إحسان ، ولا غفران ذنب ، ولا معرفة حقّ ! هم الّذين أمرهم مبنىّ على الرياء والفجور . وهم يستصغرون ما يرتكبونه من عظيم الذنوب ، ويستعظمون اليسير إذا خولفت فيه أهواؤهم . ومنهم هذا الكفور الّذى لا رحمة له ، الغادر بأليفه وأخيه . ثمّ وثب فى شدّة حنقه على وجه الغلام ففقأ عينه ، وطار فوقع على شُرْفَة المنزل . ثمّ إنّه بلغ الملك ذلك ، فجزع أشـدّ الجزع ، ثم طمع أن يحتال له ، فوقف قريبا منه ، وناداه ، وقال له : إنّك آمن ، فانزل يا فنزة . فقال له : أيها الملك إنّ الغادر مأخوذ بغدره ، وإنّه إن أخطأه عاجل العقوبة ، لم يخطئـه الآجل ؛ حتّى أنّه يدرك الأعقاب وأعقاب الأعقاب . وإنّ ابنك غدر بابنى ، فعجّلت له العقوبة . قال الملك : لعمرى قد غدرنا بابنك ، فانتقمت منّا : فليس لك قبلنا ، ولا لنا قبلك وتر مطلوب . فارجع إلينا آمنا . قال فنزة : لست براجع إليـك أبدا : فإنّ ذوى الرأى قد نهوا عن قرب الموتور(١) فإنه لا يزيدك لطف الحقود ولينه وتكرمته إيّاك إلّا وحشة منـه ، وسوء ظنّ به : فإنّك لا تجد للحقود الموتور أمانا هو أوثق لك من الذُّعر منه ، ولا أجود من البعـد عنه ، والاحتراس منه أولى . وقد كان يقال : إنّ العاقل يعدّ أبويه أصدقاء ، والإخوة رفقاء ، والأزواج ألفاء ، والبنين ذِكْرا ،

(١) من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه

والبنات خصماء، والأقارب غرماء، ويعدّ نفسه فريدا . وأنا الفريد الوحيد الغريب الطريد، قد تزوّدت من عندكم من الحزن عبئا ثقيلا، لا يحمله معي أحد . وأنا ذاهب . فعليك منّي السلام .

قال له الملك : إنّك لو لم تكن اجتريت(١) منّا فيما صنعناه بك، بل كان صنيعك بنا من غير ابتداء منّا بالغدر، كان الأمر كما ذكرت . وأمّا إذ كنّا نحن بدأناك ، فما ذنبك؟ وما الّذي يمنعك من الثقة بنا؟ هلمّ فارجع : فإنّك آمن . قال فنزة : اعلم أنّ الأحقاد لها في القلوب مواقع مُمكّنة موجِعة . فالألسن لا تصدق في خبرها عن القلوب، والقلب أعدل شهادة من اللسان على القلب . وقد علمت أنّ قلبي لا يشهد للسانك، ولا قلبك للساني . قال الملك : ألم تعلم أنّ الضغائن والأحقاد تكون بين كثير من الناس : فمن كان ذا عقل، كان على إماتة الحقد أحرص منه على تربيته . قال فنزة : إن ذلك لكما ذكرت؛ ولكن ليس ينبغي لذي الرأي مع ذلك أن يظنّ أنّ للموتور الحقود ناسٍ ماوتر به ، ولا مصروف عنه فكره فيه . وذو الرأي يتخوّف المكر والخديعة والحيل، ويعلم أنّ كثيرا من العدوّ لا يستطاع بالشدّة والمكابرة؛ حتّى يصاد بالرفق والملاينة : كما يصاد الفيل الوحشيّ بالفيل الداجن . قال الملك : إنّ العاقل الكريم لا يترك إلفه ، ولا يقطع إخوانه ، ولا يضيّع الحِفاظ ، وإن هو خاف على نفسه؛ حتّى إنّ هذا الخلق يكون في أوضع الدوابّ منزلة : فقد علمت أن اللعابين يلعبون بالكلاب، ثمّ يذبحونها ويأكلونها . ويرى الكلب الّذي قد ألفهم

---

(١) أجترمت: أذنبت الجناية

ذلك : فلا يدعوه إلى مفارقتهم، ولا يمنعه من ألفته إيّاهم . قال فنزة : إنّ الأحقاد مخوفة حيثما كانت . فأخوفها وأشدّها ما كان فى أنفس الملوك : فإنّ الملوك يدينون بالانتقام، ويرون الدَّرَكَ والطلب بالوتر مَكْرُمَة وفخرا . وإنّ العاقل لايغترّ بسكون الحقد إذا سكن فإنّما مثل الحقد فى القلب ، إذا لم يجد محرّكا ، مثل الجمر المكنون ، مالم يجد حطبا ، فليس ينفكّ الحقد متطلّعا إلى العلل، كما تبتغى النار الحطب : فإذا وجد علّة أستعر استعار النار : فلا يطفئه حسن كلام، ولا لين ولا رفق ، ولا خضوع ولا تضرع ولا مصانعة، ولا شيء دون تلف الأنفس . مع أنّه ربّ واتر يطمع فى مراجعة الموتور بما يرجو أن يقدر عليه من النفع له ، والدفع عنه . ولكنى أنا أضعف عن أن أقدر على شيء يذهب به مافى نفسك . ولوكانت نفسك منطوية لى على ماتقول ما كان ذلك عنّى مغنيا . ولا أزال فى خوف وَوَحشة ، وسوء ظنّ، ماآصطحبنا . فليس الرأى بينى وبينك إلّا الفراق . وأنا أقرأ عليك السلام .

قال الملك : لقد علمت أنه لايستطيع أحد لأحد ضرّا ولا نفعا، وأنّه لاشيء من الأشياء صغيرا ولا كبيرا، يصيب أحدا ، إلّا بقضاء وقدر معلوم . وكما أنّ خلق مايخلق ، وولادة مايولد ، وبقاء مايبقى، ليس إلى الخلائق منه شيء ؛ كذلك فناء مايفنى ، وهلاك مايهلك . وليس لك فى الّذى صنعت بابنى ذنب ؛ ولا لابنى فيما صنع بابنك ذنب . إنّما كان ذلك كلّه قدرا مقدورا ، وكلانا له علّة : فلا تؤاخذ بما أتانا به القدر . قال فنزة : إنّ القدر لكما ذكرت، لكن لايمنع ذلك الحازم

من توقّى المخاوف، والاحتراس من المكاره . ولكنّه يجمع تصديقا بالقدر وأخذا بالحزم والقوّة . وأنا أعلم أنّك تكلّمنى بغير مافى نفسك . والأمر بينى وبينك غير صغير : لأنّ ابنك قتل ابنى ، وأنا فقأت عين ابنك، وأنت تريد أن تشتفى بقتلى ، وتختلنى عن نفسى؛ والنفس تأبى الموت . وقد كان يقال : الفاقة بلاء ، والحزن بلاء ، وقرب العدوّ بلاء، وفراق الأحبة بلاء ،والسقم بلاء، والهرم بلاء؛ ورأس البلايا كلّها الموت . وليس أحد بأعلم بما فى نفس الموجع الحزين ممّن ذاق مثل مابه . فأنا بمافى نفسى عالم بما فى نفسك : للمثل الّذى عندى من ذلك . ولا خير لى فى صحبتك : فإنّك لن تتذكّر صنيعى بابنك ، ولن أتذكّر صنيع ابنك بابنى، إلا أحدث ذلك لقلوبنا تغييرا .

قال الملك . لاخير فيمن لايستطيع الإعراض عمّا فى نفسه، وينساه ويهمله، حتّى لايذكر منه شيئا، ولا يكون له فى نفسه موقع . قال فنزة : إنّ الرجل الّذى فى باطن قدمه قرحة، إن هو حرص على المشى ، فلا بدّ أنّه لايزال يشتكى قرحته . والرجل الأرمد العين إذا استقبل بها الريح، تعرّض لأن تزداد رمدا . وكذلك الواتر إذا دنا من الموتور ، فقد عرّض نفسه للهلاك . ولا ينبغى لصاحب الدنيا إلا توقّى المهالك والمتالف ، وتقدير الأمور، وقلّة الاتّكال على الحول والقوّة ، وقلّة الاغترار بمن لا يأمن : فإنّه من اتّكل على قوّته ، فحمله ذلك على أن يسلك الطريق المخوف،فقد سعى فى حتف نفسه . ومن لايقدّر لطاقته طعامه وشرابه ، وحمّل نفسه مالا تطيق ولا تحمل، فقد قتل نفسه . ومن لايقدّر لقمته،وعظّمها فوق مايسع فوه، فربما غصّ

بها فمات . ومن اغترّ بكلام عدوّه، وانخدع له، وضيّع الحزم، فهو أعدى لنفسه من عدوّه . وليس لأحد النظر فى القدر الّذى لايدرى ماياتيه منه ولا ما يصرف عنه؛ ولكن عليه العمل بالحزم والأخذ بالقوّة ومحاسبة نفسه فى ذلك . والعاقل لايثق بأحد ما استطاع ، ولا يقيم على خوف وهو يجد عنه مذهبا . وأنا كثير المذاهب، وأرجو ألّا أذهب وجها إلّا أصبت فيه ما يغنينى : فإنّ خلالا خمسا من تزوّدهن كفينه فى كل وجه، وآنسنه فى كلّ غربة، وقرّبن له البعيد، وأكسبنه المعاش والإخوان : أوّلهنّ كفّ الأذى ، والثانية حسن الأدب، والثالثة مجانبة الريب، والرابعة كرم الخلق، والخامسة النُّبْل فى العمل . وإذا خاف الإنسان على نفسه شيئا طابت نفسه عن المال والأهل والولد والوطن : فإنّه يرجو الخلف من ذلك كلّه ولايرجو عن النفس خلفا . وشرّ المال مالا إنفاق منه، وشر الأزواج الّتى لاتؤاتى بعلها، وشرّ الولد العاصى العاقّ لوالديه ، وشرّ الإخوان الخاذل لأخيه عند النكبات والشدائد، وشرّ الملوك الذى يخافه البرىء ، ولا يواظب على حفظ أهل مملكته، وشرّ البلاد بلاد لاخصب فيها ولاأمن، وإنّه لا أمن لى عندك أيّها الملك ولا طمأنينة لى فى جوارك . ثمّ ودّع الملك وطار . فهذا مثل ذوى الأوتار الّذين لاينبغى لبعضهم أن يثق ببعض

(انقضى باب ابن الملك والطائر)

باب الأسد وابن آوى الشَّغْبَر الناسك وهو ابن آوى

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب

لى مثل الملك الّذى يراجع(١) من أصابته منه عقوبة من غير جرم، أوجفوة من غير ذنب . قال الفيلسوف : إنّ الملك لولم يراجع من أصابته منه جفوة عن ذنب أوعن غير ذنب، ظلم أو لم يظلم، لأضرّ ذلك بالأمور، ولكن الملك حقيق أن ينظر فى حال من ابتلى بذلك، ويخبر ما عنده من المنافع : فإن كان ممن يوثق به فى رأيه وأمانته ، فإنّ الملك حقيق بالحرص على مراجعته : فإنّ المُلْكَ لا يستطاع ضبطه إلّا مع ذوى الرأى وهم الوزراء والأعوان ولا ينتفع بالوزراء والأعوان إلّا بالمودّة والنصيحة؛ ولا مودّة ولا نصيحة إلّا لذوى الرأى والعفاف . وأعمال السلطان كثيرة ؛ والّذين يحتاج إليهم من العمّال والأعوان كثيرون . ومن يجمع منهم ماذكرت من النصيحة والعفاف قليل . والمثل فى ذلك مثل الأسد وابن آوى . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف : زعموا أنّ ابن آوى كان يسكن فى بعض الدّحال(٢)، وكان متزهّدا متعففا، مع بنات آوى وذئاب وثعالب. ولم يكن يصنع ما يصنعن ، ولا يُغِير كما يُغِرن، ولا يُهرِيقُ دما ، ولا يأكل لحما . فخاصمه تلك السباع ، وقلن : لا نرضى بسيرتك ولا رأيك الّذى أنت عليه من تزهّدك : مع أن تزهّدك لا يغنى عنك شيئا . وأنت لا تستطيع أن تكون إلا كأحدنا : تسعى معنا، وتفعل فعلنا . فما الّذى كفّك عن الدماء وعن أكل اللحم؟ قال ابن آوى : إنّ صحبتى إيّاكنّ لا تؤثمنى إذا لم أوثم نفسى : لأنّ الاثام ليست من قبل الأماكن والأصحاب ؛ ولكنها من قبل القلوب والأعمال . ولو كان صاحب المكان الصالح يكون

(١) يعاود (٢) نقب ضيق فمه، متسع أسفله

عمله فيه صالحا، وصاحب المكان السّيئ يكون عمله فيه سيّئا ، كان حينئذ من قتل الناسك فى محرابه لم يأثم ، ومن استحياه فى معركة القتال أثم . وإنّى إنّما صحبتكنّ بنفسى، ولم أصحبكنّ بقلبى وأعمالى : لأنّى أعرف ثمرة الأعمال : فلزمت حالى . وثبت ابن آوى على حاله تلك ، واشتهر بالنسك والتزهّد ، حتى بلغ ذلك أسدا كان ملك تلك الناحية ، فرغب فيه : لما بلغه عنه من العفاف والنزاهة والزهد والأمانة ، فأرسل إليه يستدعيه . فلمّا حضر كلّمه وآنسه فوجده فى جميع الأمور وفق غرضه . ثمّ دعاه بعد أيام إلى صحبته وقال له : تعلم أنّ عُمّالى كثير ، وأعوانى جمّ غفير ، وأنا مع ذلك إلى الأعوان محتاج . وقد بلغنى عنك عفاف وأدب وعقل ودين ، فازددت فيك رغبة . وأنا موليك من عملى جسيما ، ورافعك إلى منزلة شريفة ، وجاعلك من خاصّتى . قال ابن آوى : إنّ الملوك أحقّاء باختيار الأعوان فيما يهتمّون به من أعمالهم وأمورهم . وهم أحرى ألّا يكرهوا على ذلك أحدا : فإن المكره لا يستطيع المبالغة فى العمل . وإنّى لعمل السلطان كاره . وليس لى به تجربة ، ولا بالسلطان رفق . وأنت ملك السباع ، وعندك من أجناس الوحوش عدد كثير ، فيهم أهل نُبْل وقوّة ، ولهم على العمل حرص ، وعندهم به وبالسلطان رفق : فإن استعملتهم أغنوا عنك ، واغتبطوا لأنفسهم بما أصابهم من ذلك . قال الأسد : دع عنك هذا : فإنّى غير معفيك من العمل . قال ابن آوى : إنّما يستطيع خدمة السلطان رجلان لست بواحد منهما : إمّا فاجر مصانع ، ينال حاجته بفجوره ، ويسلم بمصانعته ؛ وإمّا مغفل لا يحسده أحد . فمن أراد أن يخدم

السلطان بالصدق والعفاف فلا يخلط ذلك بمصانعته ؛ وحينئذ قلّ أن يسلم على ذلك : لأنّه يجتمع عليه عدوّ السلطان وصديقه بالعداوة والحسد . أمّا الصديق فينافسه فى منزلته ، ويبغى عليه فيها ، ويعاديه لأجلها ؛ وأمّا عدوّ السلطان فيضطغن عليه : لنصيحته لسلطانه ، وإغنائه عنه . فإذا اجتمع عليه هذان الصنفان فقد تعرّض للهلاك . قال الأسد : لا يكوننّ بغى أصحابى عليك ، وحسدهم إيّاك ممّا يعرض فى نفسك : فأنت معى ، وأنا أكفيك ذلك ، وأبلغ بك من درجات الكرامة والإحسان على قدر همّتك . قال ابن آوى : إن كان الملك يريد الإحسان إلىّ ، فليَدَعْنى فى هذه البرّيّة أعيش آمنا ، قليل الهمّ ، راضيا بعيشى من الماء والعُشْب : فإنّى قد علمت أنّ صاحب السلطان يصل إليه من الأذى والخوف فى ساعة واحدة ما لا يصل إلى غيره فى طول عمره ؛ وإنّ قليلا من العيش فى أمن وطُمَأنِينَة خير من كثير من العيش فى خوف ونصب . قال الأسد : قد سمعت مقالتك ، فلا تخف شيئا ممّا أراك تخاف منه . ولست أجد بدّا من الاستعانة بك فى أمرى . قال ابن آوى : أمّا إذا أبى الملك إلّا ذلك فليجعل لى عهدا ، إن بغى على أحد من أصحابه عنده ، ممّن هو فوقى : مخافة على منزلته ، أو ممّن هو دونى : لينازعنى فى منزلتى ، فذكر عند الملك منهم ذاكر بلسانه ، أو على لسان غيره ما يريد به تحميل الملك علىّ ، ألّا يعجل فى أمرى ، وأن يتثبّت فيما يرفع إليه ويذكر عنده من ذلك ، ويفحص عنه ، ثمّ ليصنع مابدا له . فإذا وثقت منه بذلك ، أعنته بنفسى فيما يحب ، وعملت له فيما أولانى بنصيحة واجتهاد ، وحرصت

على ألّا أجعل له على نفسى سبيلا . قال الأسد : لك ذلك على وزيادة . ثمّ ولّاه خزائنه، واختصّ به دون أصحابه، وزاد فى كرامته .

فلمّا رأى أصحاب الأسد ذلك، غاظهم وساءهم . فأجمعوا كيدهم، واتّفقوا كلّهم على أن يحملوا عليه الأسد . وكان الأسد قد استطاب لحما، فعزل منه مقدارا، وأمره بالاحتفاظ به، وأن يرفعه فى أحصن موضع طعامه وأحرزه: ليعاد عليه؛ فأخذوه من موضعه، وحملوه إلى بيت ابن آوى، فخبّئوه فيه، ولا علم له به؛ ثمّ حضروا يكذّبونه إن جرت فى ذلك حال . فلمّا كان من الغد، ودعا الأسد بغدائه، فقد ذلك اللحم، فالتمسه ولم يجده، وابن آوى لم يشعر بما صنع فى حقه من المكيدة . فحضر الذين عملوا المكيدة، وقعدوا فى المجلس . ثمّ إنّ الملك سأل عن اللحم، وشدّد فيه، وفى المسألة عنه، فنظر بعضهم إلى بعض، فقال أحدهم قول المخبر الناصح : إنّه لابدّ لنا من أن نخبر الملك بما يضرّه وينفعه، وإن شقّ ذلك على من يشقّ عليه . وإنّه بلغنى أنّ ابن آوى هو الذى ذهب باللحم إلى منزله . قال الآخر : لاأراه يفعل هذا، ولكن انظروا وافحصوا : فإنّ معرفة الخلائق شديدة . فقال الآخر : لعمرى ماتكاد السرائر تعرف، وأظنّكم إن فحصتم عن هذا وجدتم اللحم ببيت ابن آوى؛ وكلّ شيء يذكر من عيوبه وخيانته نحن أحقّ أن نصدّقه . قال الآخر : لئن وجدنا هذا حقّا فليست بالخيانة فقط، ولكن مع الخيانة كفر النعمة، والجراءة على الملك . قال الآخر: أنتم أهل العدل والفضل، لا أستطيع أن أكذّبكم، ولكن سيبين هذا لو أرسل الملك إلى بيته من يفتشه . قال آخر : إن كان الملك مفتّشا

منزله فليعجل : فإنّ عيونه وجواسيسه مبثوثة بكلّ مكان . ولم يزالوا في هذا الكلام وأشباهه، حتّى وقع في نفس الأسد ذلك ؛ فأمر بابن آوى فحضر، فقال له : أين اللحم الذى أمرتك بالاحتفاظ به ؟ قال : دفعته إلى صاحب الطعام ليقرّبه إلى الملك . فدعا الأسد بصاحب الطعام ؛ وكان ممّن شايع وبايع مع القوم على ابن آوى . فقال : مادفع إلىّ شيئا . فأرسل الأسد امينا إلى بيت ابن آوى ليفتّشه، فوجد فيه ذلك اللحم ؛ فأتى به الأسد . فدنا من الأسد ذئب لم يكن تكلّم فى شىء من ذلك . وكان يظهر أنّه من العدول الّذين لايتكلّمون فيما لا يعلمون، حتّى يتبيّن لهم الحقّ . فقال : بعد ان اطلع الملك على خيانة ابن آوى فلا يعفونّ عنه : فإنّه إن عفا عنه لم يطلع الملك بعدها على خيانة خائن، ولا ذنب مذنب . فأمر الأسد بابن آوى أن يخرج، ويحتفظ به . فقال بعض جلساء الملك : إنى لأعجب من رأى الملك ومعرفته بالأمور كيف يخفى عليه امر هـذا، ولم يعرف خبّه ومخادعته؟ وأعجب من هذا انى أراه سيصفح عنه، بعد الذى ظهر منه . فأرسل الأسد بعضهم رسولاً إلى ابن آوى يلتمس منه العذر، فرجع إليه الرسول برسالة كاذبة اخترعها ؛ فغضب الأسد من ذلك، وأمر بابن آوى أن يقتل . فعلمت امّ الأسد أنّه قد عجّل فى أمره ؛ فأرسلت إلى الذين أُمِرُوا بقتله أن يؤخّروه ، ودخلت على ابنها، فقالت : يابنىّ بأى ذنب أمرت بقتل ابن آوى؟ فأخبرها بالأمر . فقالت : يابنىّ عجّلت . وإنّما يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة وبالتثبّت . والعجلة لايزال صاحبها يجتنى ثمرة النـدامة، بسبب ضعف الرأى . وليس أحد أحوج إلى التؤدة والتثبّت من

الملوك : فإنّ المرأة بزوجها ، والولد بوالديه ، والمتعلّم بالمعلّم ، والجند بالقائد ، والناسك بالدّين ، والعامّة بالملوك ، والملوك بالتقوى ، والتقوى بالعقل ، والعقل بالتثبّت والأناة ؛ ورأس الكلّ الحزم ، ورأس الحزم للملك معرفة أصحابه ، وإنزالهم منازلهم على طبقاتهم ، واتّهامه بعضهم على بعض . فإنّه لو وجد بعضهم إلى هلاك بعض سبيلا لفعل . وقد جرّبت ابن آوى ، وبلوت رأيه وأمانته ومروءته ، ثم لم تزل مادحا له راضيا عنه . وليس ينبغى للملك أن يُخَوِّنَه بعد ارتضائه إياه وأُتمانه له ؛ ومنذ مجيئه إلى الآن لم يطلع له على خِيانة إلّا على العفة والنصيحة . وما كان رأى الملك أن يعجّل عليه لأجل طابق لحم . وأنت أيّها الملك حقيق أن تنظر فى حال ابن آوى : لتعلم أنّه لم يكن ليتعرّض للحم استودعته إيّاه . ولعلّ الملك إن فحص عن ذلك ظهر له أنّ ابن آوى له خصماء هم الذين ائتمروا بهذا الأمر . وهم الّذين ذهبوا باللحم إلى بيته فوضعوه فيه : فإنّ الحدأة إذا كان فى رجلها قطعة لحم اجتمع عليها سائر الطير ، والكلب إذا كان معه عظم اجتمعت عليه الكلاب . وابن آوى منذ كان إلى اليوم نافع ، وكان محتملا لكلّ ضرر فى جنب منفعة تصل إليك ، ولكلّ عناء يكون لك فيه راحة ، ولم يكن يطوى دونك سرّا .

فبينما أمّ الأسد تقصّ عليه هذه المقالة ، إذ دخل على الاسد بعض ثقاته ، فأخبره ببراءة ابن آوى . فقالت أمّ الأسد ، بعد أن اطلع الملك على براءة ابن آوى : إنّ الملك حقيق ألّا يرخص لمن سعى به لئلا يتجرؤوا على ما هو أعظم من ذلك ؛ بل يعاقبهم عليه لكى لا يعودوا إلى مثله : فإنّه لا ينبغى للعاقل أن يراجع فى أمر الكفور للحسنى ، الجرىء على

الغـدر، الزاهد فى الخير، الّذى لا يوقن بالآخرة . وينبغى أن يجزى بعمله، وقد عرفت سرعة الغضب وفرط الهفوة؛ ومن سخط باليسير لم يبلغ رضاه بالكثير . والأولى لك أن تراجع ابن آوى، وتعطف عليه؛ ولا يؤيسنك من مناصحته ما فرط منك إليه من الإساءة : فإنّ من الناس من لاينبغى تركه على حال من الأحوال، وهو من عرف بالصلاح والكرم وحسن العهد والشكر والوفاء والمحبّة للناس والسلامة من الحسد والبعد من الأذى والاحتمال للإخوان والأصحاب وإن ثقلت عليه منهم المئونة . وأمّا من ينبغى تركه فهو من عرف بالشراسة ولؤم العهد وقلة الشكر والوفاء والبعد من الرحمة والورع، واتّصف بالجحود لثواب الآخرة وعقابها . وقد عرفت ابن آوى وجرّبته وأنت حقيق بمواصلته .

فدعا الأسد بابن آوى واعتذر إليه ممّا كان منه ووعده خيرا، وقال : إنّى معتذر إليك ورادّك إلى منزلتك . فقال ابن آوى : إنّ شرّ الأخلّاء من آلتمس منفعة نفسه بضرّ أخيه، ومن كان غير ناظر له كنظره لنفسه، أو كان يريد أن يرضيه بغير الحقّ لأجل آتّباع هواه . وكثيرا مايقع ذلك بين الأخلّاء . وقد كان من الملك إلىّ ما علم؛ فلا يغلظنّ على نفسه ما أخبره به أنّى به غير واثق، وأنّه لا ينبغى لى أن أصحبه : فإنّ الملوك لاينبغى أن يصحبوا من عاقبوه أشدّ العقاب؛ ولا ينبغى لهم أن يرفضوه أصلا : فإنّ ذا السلطان إذا عزل كان مستحقّا للكرامة فى حالة إبعاده والإقصاء له . فلم يلتفت الأسد إلى كلامه . ثمّ قال له : إنّى قد بلوت طباعك وأخلاقك، وجربت

أمانتك ووفاءك وصدقك ؛ وعرفت كذب من تمحل الحيل لتحملى عليك . وإنى منزلك من نفسى منزلة الاخيار الكرماء ، والكريم تنسيه الخلة الواحدة من الإحسان ، الخلال الكثيرة من الإساءة . وقد عدنا إلى الثقة بك ، فعد إلى الثقة بنا : فإن لنا ولك بذلك غبطة وسرورا . فعاد ابن آوى إلى ولاية ما كان يلى ، وضاعف له الملك الكرامة ، ولم تزده الأيام إلا تقربا من السلطان . (انقضى باب الأسد وابن آوى)

باب ايلاذ وبلاذ وايراخت

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل ، فاضرب لى مثلا فى الأشياء التى يجب على الملك أن يلزم بها نفسه ، ويحفظ ملكه ويثبت سلطانه ؛ ويكون ذلك رأس أمره وملاكه : أبالحلم أم بالمروءة أم بالشجاعة أم بالجود ؟ قال بيدبا : إن أحق ما يحفظ به الملك ملكه الحلم ، وبه تثبت السلطنة ؛ والحلم رأس الأمور وملاكها ، وأجود ما كان فى الملوك : كالذى زعموا من أنه كان ملك يدعى بلاذ ، وكان له وزير يدعى إيلاذ ، وكان متعبدا ناسكا . فنام الملك ذات ليلة ، فرأى فى منامه ثمانية أحلام أفزعته ، فاستيقظ مرعوبا . فدعا البراهمة ، وهم النساك ليعبروا رؤياه . فلما حضروا بين يديه قص عليهم ما رأى . فقالوا بأجمعهم : لقد رأى الملك عجبا : فإن أمهلنا سبعة أيام جئناه بتأويله . قال الملك : قد أمهلتكم . فخرجوا من عنده ثم اجتمعوا فى منزل أحدهم وأتمروا بينهم . وقالوا : قد وجدتم علما واسعا تدركون به ثأركم وتنتقمون به من عدوكم ؛

وقد علمتم أنه قتل منّا بالأمس اثنى عشر ألفا . وها هو قد أطلعنا على سره وسألنا تفسير رؤياه : فهلمّوا نغلظ له القول ونخوّفه حتّى يحمله الفَرَق والجزع على أن يفعل الّذى نريد ونأمر . فنقول : ادفع إلينا أحبّاءك ومن يكرم عليك حتّى نقتلهم : فإنّا قد نظرنا فى كتبنا فلم نر أن يدفع عنك ما رأيت لنفسك وما وقعت فيه من هذا الشرّ إلّا بقتل من نسمّى لك . فإن قال الملك : وما تريدون أن تقتلوا؟ سمّوهم لى . قلنا : نريد الملكة إيراخت أمّ جوير المحمودة أكرم نسائك عليك . ونريد جوير أحبّ بنيك إليك وأفضلهم عندك . ونريد ابن أخيك الكريم ، وإيلاذ خليلك وصاحب أمرك . ونريد كالا الكاتب صاحب سرّك وسيفك الّذى لا يوجد مثله ، والفيل الأبيض الذى لا تلحقه الخيل ، والفرس الّذى هو مركبك فى القتال . ونريد الفيلين الآخرين العظيمين اللذين يكونان مع الفيل الذكر . ونريد البُخْتىّ السريع القوىّ . ونريد كارِيُونَ الحكيم الفاضل العالم بالأمور لننتقم منه بما فعل بنا . ثم نقول : إنما ينبغى لك أيّها الملك أن تقتل هؤلاء الّذين سمّيناهم لك ، ثم تجعل دماءهم فى حوض تملؤه ، ثم تقعد فيه . فإذا خرجت من الحوض اجتمعنا نحن معاشر البراهمة من الآفاق الأربعة نجول حولك فنرقيك ونتفل عليك ونمسح عنك الدم ونغسلك بالماء والدهن الطيّب . ثمّ تقوم إلى منزلك البهىّ فيدفع الله بذلك البلاء الّذى نتخوّفه عليك . فإن صبرت ، أيّها الملك ، وطابت نفسك عن أحبّائك الّذين ذكرنا لك ، وجعلتهم فداءك ، تخلّصت من البلاء ، واستقام لك ملكك وسلطانك ، واستخلفت من بعدهم من أحببت . وإن أنت لم

تفعل تخوّفنا عليك أن يغصب ملكك أو تهلك . فإن هو أطاعنا فيما نأمره قتلناه أى قِتْلَة شئنا .

فلمّا أجمعوا على ما ائتمروا به رجعوا إليه فى اليوم السابع . وقالوا له : أيّها الملك ، إنّا نظرنا فى كتبنا فى تفسير ما رأيت ، وفحصنا عن الرأى فيما بيننا . فلتكن لك أيّها الملك الطاهر الصالح الكرامة . ولسنا نقدر أن نعلمك بما رأينا إلّا أن تخلو بنا . فأخرج الملك من كان عنده وخلا بهم . فحدّثوا بالّذى ائتمروا به . فقال لهم : الموت خير لى من الحياة إن أنا قتلت هؤلاء الّذين هم عديل نفسى . وأنا ميت لامحالة ، والحياة قصيرة ، ولست كلّ الدهر ملكا ، وإنّ الموت عندى وفراق الأحباء سواء . قال له البَرَاهِمة : إن أنت لم تغضب أخبرناك . فأذن لهم . فقالوا : أيّها الملك إنّك لم تقل صوابا حين تجعل نفس غيرك أعزّ عندك من نفسك . فاحتفظ بنفسك وملكك ، واعمل هذا الّذى لك فيه الرجاء العظيم على ثقة ويقين . وقرّ عينا بملكك فى وجوه أهل مملكتك الّذين شرفت وكرمت بهم . ولا تدع الأمر العظيم وتأخذ بالضعيف فتهلك نفسك إيثارا لمن تحبّ . واعلم أيّها الملك أنّ الإنسان إنّما يحبّ الحياة محبّة لنفسه . وأنّه لايحبّ من أحبّ من الأحباب إلّا ليتمتّع بهم فى حياته . وإنّما قوام نفسك بعد الله تعالى بملكك . وأنّك لم تنل ملكك إلّا بالمشقّة والعناء الكثير فى الشهور والسنين . وليس ينبغى أن ترفضه ويهون عليك . فاستمع كلامنا . فانظر لنفسك مناها ، ودع ماسواها : فإنه لاخطر له . فلمّا رأى الملك أنّ البراهمة قد أغلظوا له فى القول واجترءوا عليه فى الكلام اشتدّ غمّه وحزنه .

وقام من بين ظهرانيهم ودخل إلى حجرته فخرّ على وجهه يبكى ويتقلّب كما تتقلّب السمكة إذا خرجت من الماء ، وجعل يقول فى نفسه : ما أدرى أىّ الأمرين أعظم فى نفسى ؟ المملكة أم قتل أحبّائى ؟ ولن أنال الفرح ماعشت . وليس ملكى بباق علىّ إلى الأبد . ولست بالمصيب سؤلى فى ملكى . وإنى لزاهد فى الحياة إذا لم أر إيراخت . وكيف أقدر على القيام بملكى إذا هلك وزيرى إيلاذ؟ وكيف أضبط أمرى إذا هلك فيلى الأبيض وفرسى الجواد ؟ وكيف أدعى ملكا وقد قتلت من أشار البراهمة بقتله؟ وما أصنع بالدنيا بعدهم؟ . ثمّ إنّ الحديث فشا فى الأرض بحزن الملك وهمّه . فلمّا رأى إيلاذ مانال الملكَ من الهمّ والحزن فكّر بحكمته ونظر وقال : ماينبغى لى أن أستقبل الملك فأسأله عن هذا الأمر الّذى قد ناله من غير أن يدعونى . ثمّ انطلق إلى إيراخت فقال : إنّى منذ خدمتُ الملكَ إلى الآن لم يعمل عملا إلّا بمشورتى ورأيى . وأراه يكتم عنى أمرا لا أعلم ماهو . ولا أراه يظهر منه شيئا . وإنّى رأيته خاليا مع جماعة البرهميين منذ ليال . وقد احتجب عنّا فيها . وأنا خائف أن يكون قد أطلعهم على شىء من أسراره . فلست آمنهم أن يشيروا عليه بما يضرّه ويدخل عليه منه السوء . فقومى وادخلى عليه فاسأليه عن أمره وشأنه . وأخبرينى بما هو عليه وأعلمينى : فإنّى لست أقدر على الدخول عليه . فلعلّ البرهميين قد زيّنوا له أمرا أو حملوه على خُطّة قبيحة . وقد علمت أنّ من خُلُق الملك أنّه إذا غضب لايسأل أحدا . وسواء عنده صغير الأمور وكبيرها . فقالت إيراخت : إنّه كان بينى وبين الملك بعض

العتاب. فلست بداخلة عليه في هذه الحال . فقال لها إيلاذ : لاتحملى عليه الحقد في مثل هذا . ولا يخطرنّ ذلك على بالك. فليس يقدر على الدخول عليه أحدٌ سوالِكِ . وقد سمعته كثيرا يقول : ماشتدّ غمّى ودخلت علىّ إيراختُ إلّا سُرِّىَ ذلك عنّى، فقومى إليه واصفحى عنه. وكلّميه بما تعلمين أنّه تطيب به نفسه ويذهب الّذى يجده . وأعلميني بما يكون جوابه : فإنّه لنا ولأهل المملكة أعظم الراحة . فانطلقت إيراختُ فدخلت على الملك فجلست عند رأسه . فقالت : ما الّذى بك أيّها الملك المحمود؟ وماالّذى سمعت من البراهمة؟ فإنّى أراك محزونا . فأعلمنى مابك، فقد ينبغى لنا أن نحزن معك ونواسيك بأنفسنا . فقال الملك : أيّتها السيدة لاتسأليني عن أمرى فتزيديني غمّا وحزنا : فإنّه أمر لا ينبغى أن تسأليني عنه . قالت : أوَقد نزلتُ عندك منزلة من يستحق هذا؟ إنّما أحمد الناس عقلا من إذا نزلت به النازلة كان لنفسه أشدّ ضبطا، وأكثرهم استماعا من أهل النصح حتّى ينجو من تلك النازلة بالحيلة والعقل والبحث والمشاورة. فعظيم الذنب لا يقنط من الرحمة. ولا تدْخِلَنَّ عليك شيئا من الهمّ والحزن . فإنّهما لا يَرُدّان شيئا مقضيا . إلا أنّهما ينحلان الجسم ويشفيان العدوّ . قال لها الملك : لا تسأليني عن شيء فقد شَقَقْتِ[(١)] علىّ . والذى تسأليني عنه لاخير فيه : لأنّ عاقبته هلاكِي وهلاكُكِ وهلاكُ كثير من أهل مملكتي ومن هو عديل نفسى . وذاك أنّ البراهمة زعموا أنّه لا بدّ من قتلك وقتل كثير من أهل مودّتى . ولا خير في العيش بعدكم . وهل أحد يسمع بهذا إلّا اعتراه الحزن ؟

(١) أوقعتنى في المشقة

فلما سمعت ذلك إيراخت جزعت . ومنعها عقلها أن تظهر للملك جزعا . فقالت : أيها الملك لاتجزع فنحن لك الفداء . ولك في سواى ومثلى من الجوارى ماتقربه عينك . ولكنى أطلب منك ، أيها الملك ، حاجة يحملنى على طلبتها حبى لك وإيثارى إياك . وهى نصيحتى لك . قال الملك : وما هى ؟ قالت : أطلب منك ألا تثق بعدها بأحد من البراهمة . ولاتشاورهم في أمر حتى تتثبت في أمرك . ثم تشاور فيه ثقاتك مرارا : فإن القتل أمر عظيم ، ولست تقدر على أن تحيى من قتلت . وقد قيل في الحديث : إذا لقيت جوهرا لاخير فيه فلا تلقه من يدك حتى تريه من يعرفه . وأنت أيها الملك لاتعرف أعداءك . واعلم أن البراهمة لايحبونك . وقد قتلت منهم بالأمس إثنى عشر ألفا . ولا تظن أن هؤلاء ليسوا من أولئك . ولعمرى ما كنت جديرا أن تخبرهم برؤياك ، ولا أن تطلعهم عليها . وإنما قالوا لك ماقالوا لأجل الحقد الذى بينك وبينهم : لعلهم يهلكونك ويهلكون أحبابك ووزيرك : فيبلغون قصدهم منك . فأظنك لو قبلت منهم فقتلت من أشاروا بقتله ظفروا بك وغلبوك على ملكك ، فيعود الملك إليهم كما كان . فانطلق إلى كباريون الحكيم ، فهو عالم فطن ، فأخبره عما رأيت في رؤياك واسأله عن وجهها وتأويلها .

فلما سمع الملك ذلك سُرِّيَ عنه ما كان يجده من الغم . فأمر بفرسه فأسرج فركبه ثم انطلق إلى كباريون الحكيم . فلما انتهى إليه نزل عن فرسه وسجد له ، وقلم مطأطئا الرأس بين يديه . فقال له الحكيم : مابالك أيها الملك ؟ ومالى أراك متغير اللون ؟ فقال له الملك : إنى

رأيت فى المنام ثمانية أحلام فقصصتها على البراهمة . وأنا خائف أن يصيبنى من ذلك عظيم أمر ممّا سمعت من تعبيرهم لرؤياى . وأخشى أن يغصب منّى ملكى أو أن أغلب عليه . فقال له الحكيم : إن شئت فاقصص رؤياك علىّ . فلمّا قصّ عليه الملك رؤياه . قال : لايحزنك أيّها الملك هذا الأمر ولا تخف منه : أمّا السمكتان الحمراوان اللتان رأيتهما قائمتين على أذنابهما : فإنّه يأتيك رسول من ملك نهاوند بعلبة فيها عقدان من الدرّ والياقوت الأحمر، قيمتهما أربعة آلاف رطل من ذهب فيقوم بين يديك . وأمّا الوزتان اللتان رأيتهما طارتا من وراء ظهرك فوقعتا بين يديك : فإنّه يأتيك من ملك بلخ فرسان ليس على الأرض مثلهما فيقومان بين يديك . وأمّا الحيّة الّتى رأيتها تدبّ على رجلك اليسرى : فإنّه يأتيك من ملك صنجين من يقوم بين يديك بسيف خالص الحديد لايوجد مثله . وأمّا الدم الّذى رأيت كأنّه خضب به جسدك : فإنّه يأتيك من ملك كازرون من يقوم بين يديك بلباس معجب يسمّى حلّة أرجُوان يضيء فى الظلمة . وأمّا ما رأيت من غسلك جسمك بالماء : فإنّه يأتيك من ملك رهزين من يقوم بين يديك بثياب كتّان من لباس الملوك . وأمّا مارأيت من أنّك على جبل أبيض : فإنّه يأتيك من ملك كيدور من يقوم بين يديك بفيل أبيض لاتلحقه الخيل . وأمّا ما رأيت على رأسك شبيها بالنار : فإنّه يأتيك من ملك أرزن من يقوم بين يديك بإكليل من ذهب مكلّل بالدرّ والياقوت . وأمّا الطير الّذى رأيته ضرب رأسك بمنقاره : فلست مفسرا ذلك اليوم . وليس بضارّك ، فلا توجلنّ منه . ولكن فيه بعض السخط والإعراض

عمن تحبه: فهذا تفسير رؤياك أيها الملك، وأمّا هذه الرسل والبرد: فإنّهم يأتونك بعد سبعة أيام جميعا فيقومون بين يديك . فلمّا سمع الملك ذلك سجد لكاريون ورجع إلى منزله .

فلمّا كان بعد سبعة أيّام جاءت البشائر بقدوم الرسل فخرج الملك فجلس على التخت، وأذن للأشراف، وجاءته الهدايا كما أخبره كاريون الحكيم . فلمّا رأى الملك ذلك اشتدّ عجبه وفرحه من علم كاريون . وقال : ماوفّقت حين قصصت رؤياى على البراهمة فأمرونى بما أمرونى به . ولولا أن الله تعالى تداركنى برحمته لكنت قد هلكت وأهلكت؛ وكذلك لا ينبغى لكلّ أحد أن يسمع إلّا من الأخلّاء ذوى العقول . وإنّ إيراخت أشارت بالخير فقبلته . ورأيت به النجاح . فضعوا الهديّة بين يديها لتأخذ منها مااختارت . ثمّ قال لإيلاذ : خذ الإكليل والثياب واحملها واتّبعنى بها إلى مجلس النساء . ثمّ إنّ الملك دعا إيراخت وحُورَقْناه أكرم نسائه بين يديه . فقال : لإيلاذ ضع الكسوة والإكليل بين يدى ايراخت لتأخذ أيّها شاءت . فوضعت الهدايا بين يدى إيراخت . فأخذت منها الإكليل، وأخذت حورقناه كسوة من أنخر الثياب وأحسنها . وكان من عادة الملك أن يكون ليلة عند إيراخت وليلة عند حورقناه . وكان من سنّة الملك أن تهيّئ له المرأة الّتى يكون عندها فى ليلتها أرزا بحلاوة فتطعمه إيّاه . فأتى الملك إيراخت فى نوبتها . وقد صنعت له أرزا . فدخلت عليه بالصحفة والإكليل على راسها . فعلمت حورقناه بذلك فغارت من إيراخت . فلبست تلك الكسوة . ومرّت بين يدى الملك وتلك الثياب تضىء

عليها مع نور وجهها كما تضيء الشمس . فلمّا رآها الملك أعجبته .
ثمّ التفت إلى إيراخت فقال : إنّك جاهلة حين أخذت الإكليل
وتركت الكسوة الّتي ليس في خزائننا مثلها . فلما سمعت إيراخت مدح
الملك لحورقناه وثناءه عليها وتجهيلها هي وذمّ رأيها أخذها من ذلك الغيرةُ
والغيظ . فضربت بالصحفة رأس الملك . فسال الأرز على وجهه .
فقام الملك من مكانه ودعا بإيلاذ . فقال له : الا ترى ، وأنا ملك العالم ،
كيف حقرتني هذه الجاهلة ، وفعلت بي ماترى ؟ فانطلق بها فاقتلها
ولا ترحمها . فخرج إيلاذ من عند الملك وقال : لا أقتلها حتّى يسكن
عنه الغضب . فالمرأة عاقلة سديدة الرأى من الملكات الّتي ليس لها
عديل في النساء ، وليس الملك بصابر عنها . وقد خلّصته من الموت ،
وعملت أعمالا صالحة . ورجاؤنا فيها عظيم . ولست آمنه أن يقول :
لم لم تؤخر قتلها حتّى تراجعني ؟ فلست قاتلها حتّى أنظر رأى الملك
فيها ثانية : فإن رأيته نادما حزينا على ماصنع جئت بها حيّة . وكنت
قد عملت عملا عظيما . وأنجيت إيراخت من القتل . وحفظت قلب
الملك . واتّخذت عند عامّة الناس بذلك يدا . وإن رأيته فرحا
مستريحا مصوّبا رأيه في الّذى فعله وأمر به فقتلها لا يفوت .

ثمّ انطلق بها إلى منزله ، ووكّل بها خادما من أمنائه ، وأمره بخدمتها
وحراستها ، حتّى ينظر مايكون من أمرها وأمر الملك . ثمّ خضب سيفه
بالدم ودخل على الملك كالكئيب الحزين . فقال أيّها الملك : إنّى
قد أمضيت أمرك في إيراخت . فلم يلبث الملك أن سكن عنه الغضب
وذكر جمال إيراخت وحسنها . واشتدّ أسفه عليها . وجعل يعزّى

نفسه عنها . ويتجلّد وهو مع ذلك يستحى أن يسأل إيلاذ : أحقّا أمضى أمره فيها أم لا ؟ وربما — لما عرف من عقل ايلاذ — ألّا يكون قد فعل ذلك . ونظر إليه إيلاذ بفضل عقله فعلم الّذى به ، فقال له : لا تهتمّ ولا تحزن أيها الملك : فإنّه ليس فى الهمّ والحزن منفعة . ولكنّهما ينحلان الجسم ويفسدانه . فاصبر أيّها الملك على ما لست بقادر عليه أبدا . وإن أحبّ الملك حدّثته بحديث يُسْليه . قال : حدّثنى .

قال إيلاذ : زعموا أنّ حمامتين ذكرا وأنثى ملآ عشهما من الحنطة والشعير . فقال الذكر للأنثى : إنّا إذا وجدنا فى الصحارى ما نعيش به فلسنا نأكل ممّا هاهنا شيئا . فإذا جاء الشتاء ولم يكن فى الصحارى شيء رجعنا إلى ما فى عشنا فأكلناه . فرضيت الأنثى بذلك . وقالت له : نعم ما رأيت . وكان ذلك الحبّ نديّا حين وضعاه فى عشهما . فانطلق الذكر فغاب . فلمّا جاء الصيف يبس الحبّ وانضمر . فلمّا رجع الذكر رأى الحبّ ناقصا . فقال لها : أليس كنّا أجمعنا رأينا على ألّا نأكل منه شيئا ؟ فلم أكلته ؟ فجعلت تحلف أنها ما أكلت منه شيئا . وجعلت تعتذر إليه . فلم يصدقها . وجعل ينقرها حتّى ماتت . فلمّا جاءت الأمطار ودخل الشتاء تندّى الحبّ وامتلأ العشّ كما كان . فلمّا رأى الذكر ذلك ندم . ثمّ اضطجع إلى جانب حمامته وقال : ما ينفعنى الحب والعيش بعدك إذا طلبتك فلم أجدك ، ولم أقدر عليك ، وإذا فكرت فى أمرك وعلمت أنّى قد ظلمتك ، ولا أقدر على تدارك ما فات . ثمّ استمر على حزنه فلم يطعم طعاما ولا شرابا حتّى مات إلى جانبها . والعاقل لا يعجل فى العذاب والعقوبة ، ولا سيما من يخاف الندامة ؛ كما ندم

الحمام الذكر . وقد سمعت أيضا أنّ رجلا دخل الجبل وعلى رأسه كارّة[(١)] من العدس ، فوضع الكارة عن ظهره ليستريح . فنزل قرد من شجرة فأخذ ملء كفّه من العدس وصعد إلى الشجرة . فسقطت من يده حبّة فنزل فى طلبها فلم يجدها . وانتثر ما كان فى يده من العدس أجمع . وأنت أيضا أيّها الملك عندك ستّة عشر ألف امرأة تدع أن تلهو بهنّ وتطلب الّتى لا تجد ! فلمّا سمع الملك ذلك خشى أن تكون إيراخت قد هلكت . فقال لإيلاذ : لم لا تأنّيت وتثبّت ؟ بل أسرعت عند سماع كلمة واحدة فتعلّقت بها ، وفعلت ما أمرتك به من ساعتك ؟ قال إيلاذ : إنّ الذى قوله واحد لا يختلف هو الله الّذى لا تبديل لكلماته ولا اختلاف لقوله . قال : الملك لقد أفسدت أمرى وشددت حزنى بقتل إيراخت . قال إيلاذ : اثنان ينبغى لهما أن يحزنا : الّذى يعمل الإثم فى كلّ يوم ، والّذى لم يعمل خيرا قط : لأنّ فرحهما فى الدنيا ونعيمها قليل . وندامتهما إذ يعاينان الجزاء طويلة لا يستطاع إحصاؤها . قال الملك : لئن رأيت إيراخت حيّة لا أحزن على شىء أبدا . قال إيلاذ : اثنان لا ينبغى لهما أن يحزنا : المجتهد فى البرّ كلّ يوم ، والّذى لم يأثم قطّ . قال الملك : ما أنا بناظر إلى إيراخت أكثر ممّا نظرت . قال إيلاذ : اثنان لا ينظران : الأعمى والّذى لا عقل له . وكما أنّ الأعمى لا ينظر السماء ونجومها وأرضها ولا ينظر القرب والبعد ، كذلك الّذى لا عقل له لا يعرف الحسن من القبيح ولا المحسن من المسيء . قال الملك : لو رأيت إيراخت لاشتدّ فرحى . قال إيلاذ :

(١) مقدار

اثنان هما الفرحان : البصير والعالم . فكما أنّ البصير يبصر أمور العالم وما فيه من الزيادة والنقصان والقريب والبعيد ، فكذلك العالم يبصر البرّ والإثم ، ويعرف عمل الآخرة ، ويتبيّن له نجاته ، ويهتدى الى صراط مستقيم . قال الملك : ينبغى لنا أن نتباعد منك يا إيلاذ ونأخذ الحذر ونلزم الاتقاء . قال إيلاذ : اثنان ينبغى أن يتباعد منهما : الذى يقول لا برّ ولا إثم ولا عقاب ولا ثواب ولا شيء علىّ ممّا أنا فيه ، والّذى لا يكاد يصرف بصره عمّا ليس له بمحرم ، ولا أذنه عن استماع السوء ، ولا قلبه عمّا تهمّ به نفسه من الإثم والحرص . قال الملك : صارت يدى من إيراخت صفرا . قال إيلاذ : ثلاثة أشياء أصفار : النهر الّذى ليس فيه ماء ، والأرض الّتى ليس فيها ملك ، والمرأة الّتى ليس لها بعل . قال الملك : إنّك يا إيلاذ لتلقى بالجواب . قال إيلاذ : ثلاثة يلقون بالجواب : الملك الّذى يعطى ويقسم من خزائنه ، والمرأة المهداة إلى من تهوى من ذوى الحسب ، والرجل العالم الموفّق للخير .

ثمّ إنّ إيلاذ لمّا رأى الملك اشتدّ به الأمر ، قال : أيّها الملك ، إنّ إيراخت بالحياة . فلما سمع الملك ذلك اشتدّ فرحه . وقال يا إيلاذ : إنّما منعنى من الغضب ما أعرف من نصيحتك وصدق حديثك . وكنت أرجو لمعرفتى بعلمك ألّا تكون قد قتلت إيراخت . فإنّها وإن كانت أتت عظيما وأغلظت فى القول فلم تأته عداوة ولا طلب مضرة ؛ ولكنّها فعلت ذلك للغيرة . وقد كان ينبغى لى أن أعرض عن ذلك وأحتمله . ولكنّك يا إيلاذ أردت أن تختبرنى وتتركنى فى شكّ من أمرها . وقد اتّخذت عندى أفضل الأيدى . وأنا لك شاكر . فانطلق فأتنى

بها . فخرج من عنـد الملك فأتى إيراخت وأمرها أن تتزين ففعلت ذلك . وانطلق بها إلى الملك . فلمّا دخلت سجدت له . ثمّ قامت بين يديه .. وقالت : أحمـد الله تعـالى ثمّ أحمد الملك الّذى أحسن إلىّ : قد اذنبت الذنب العظيم الّذى لم أكن للبقاء أهلا بعده ، فوسعه حلمه وكرم طبعـه ورأفته ؛ ثمّ أحمـد إيلاذ الّذى أخّر أمرى ، وأنجانى من الهلكة ، لعلمـه برأفة الملك وسـعة حلمه وجوده وكرم جوهره ووفاء عهـده . وقال الملك لإيلاذ : ماأعظم يدك عنـدى وعنـد إيراخت وعند العامة : إذ قد أحييتها بعد ما أمرت بقتلها : فأنت الّذى وهبها لى اليوم : فإنّى لم أزل واثقا بنصيحتك وتدبيرك . وقد ازددت اليوم عندى كرامة وتعظيما . وأنت محكّم فى ملكى تعمل فيه بما ترى ، وتحكم عليه بما تريد . فقد جعلت ذلك إليك ووثقت بك . قال إيلاذ : أدام الله لك أيّهـا الملك الملك والسرور . فلست بمحمود على ذلك . فإنّمـا أنا عبدك . لكن حاجتى ألا يعجل الملك فى الأمر الجسيم الّذى يندم على فعله ، وتكون عاقبته الغم والحزن ؛ ولا سيما فى مثل هـذه الملكة الناصحة المشفقة الّتى لا يوجد فى الأرض مثلها : فقال الملك : بحق قلت يا إيلاذ ، وقد قبلت قولك ، ولست عاملا بعـدها عمـلا صغيرا ولا كبيرا ، فضلا عن مثل هـذا الأمر العظيم الّذى ماسلمت منه ، إلّا بعد المؤامرة والنظر والتردّد إلى ذوى العـقول ومشاورة أهل المودّة والرأى .. ثمّ أحسن الملك جائزة إيلاذ ، ومكّنه من أولئـك البراهمة الّذين أشاروا بقتل أحبابه ، فأطلق فيهم السـيف ، وقرّت عين الملك وعيون عظماء أهل مملكته ؛ وحمـدوا الله وأثنوا على كباريون بسـعة

علمه وفضل حكمته : لأنّ بعلمه خلّص الملك ووزيره الصالح وامرأته الصالحة .

(انقضى باب إيلاذ وبلاذ وإيراخت)

باب اللبوة[1] والإسوار[2] والشَّغبر

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل ، فاضرب لى مثلا فى شأن من يدع ضرّ غيره إذا قدر عليه لما يصيبه من الضرّ، ويكون له فيما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعداوة لغيره . قال الفيلسوف : إنّه لا يقدم على طلب ما يضرّ بالناس وما يسوءهم إلا أهل الجهالة والسفه وسوء النظر فى العواقب من أمور الدنيا والآخرة ، وقلّة العلم بما يدخل عليهم فى ذلك من حلول النقمة ؛ وبما يلزمهم من تبعة ما اكتسبوا ممّا لا تحيط به العقول . وإن سلم بعضهم من ضرر بعض بمنية عرضت له قبل أن ينزل به وبال ما صنع : فإنّ من لم يفكر فى العواقب لم يأمن المصائب ، وحقيق ألّا يسلم من المعاطب . وربما اتّعظ الجاهل واعتبر بما يصيبه من المضرة من غيره ، فارتدع عن أن يغشى أحدا بمثل ذلك من الظلم والعدوان ، ويحصل له نفع ما كفّ عنه من ضرره لغيره فى العاقبة ؛ فنظير ذلك حديث اللبوة والإسوار والشغبر . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟ .

قال الفيلسوف : زعموا أنّ لبوة كانت فى غيضة[3] ولها شبلان ؛ وأنّها خرجت فى طلب الصيد وخلفتهما فى كهفهما ؛ فمرّ بهما أسوار فحمل عليهما ورماهما فقتلهما ، وسلخ جلديهما فاحتقبهما[4] ، وانصرف بهما

(١) الاسدة (٢) قائد الفرس (٣) أجمة (٤) ربطهما فى مؤخر الرحل أو القتب

إلى منزله ، ثمّ إنّها رجعت . فلمّا رأت ما حلّ بهما من الأمر الفظيع اضـطربت ظهرا لبطن وصاحت وضجّت . وكان إلى جنبها شغبر . فلمـا سمع ذلك من صياحها قال لها : ماهـذا الّذى تصنعين ؟ وما نزل بك؟ فأخبريني به . قالت اللبوة : شبلاى مرّ بهما أسوار فقتلهما ، وسلخ جلديهما فاحتقبهما ، ونبذهما بالعراء[1] . قال لها الشغبر : لاتضجّى وأنصفى من نفسك ، واعلمى أنّ هذا الأسوار لم يأت إليك شيئا إلّا وقد كنت تفعلين بغيرك مثله ، وتأتين إلى غير واحد مثل ذلك ، ممّن كان يجد بحميمه ومن يعزّ عليه مثل ماتجدين بشبليك . فاصبرى على فعل غيرك ، كما صبر غيرك على فعلك : فإنّه قد قيل : كما تدين تدان . ولكلّ عمل ثمرة من الثواب والعـقاب . وهمـا على قدره فى الكثرة والقـلّة . كالزرع إذا حضر الحصاد أعطى على حسب بذره . قالت اللبوة : بيّن لى ماتقول ، وافصح لى عن إشارته . قال الشغبر : كم أتى لك من العـمر؟ قالت اللبوة : مائة سـنة . قال الشغبر : ما كان قوتك ؟ قالت اللبوة : لحم الوحش . قال الشغبر : من كان يطعمك إيّاه ؟ قالت اللبوة : كنت أصـيد الوحش وآكله . قال الشغبر : أرأيت الوحوش الّتى كنت تأكلين ، أما كان لها آباء وأمّهات؟ قالت : بلى . قال الشغبر : فـما بالى لا أرى ولا اسمع لتلك الآباء والأمّهات من الجزع والضجيج ماأرى وأسمع لك ؟ أما إنّه لم ينزل بك ما نزل إلّا لسوء نظرك فى العواقب ، وقلّة تفكّرك فيها ، وجهالتك بمـا يرجع عليك من ضرّها . فلمّا سمعت اللبوة ذلك من كلام الشغبر عرفت أنّ

(١) الفضاء لايستر فيه شيء

ذلك ممّا جنت على نفسها، وأن عملها كان جورا وظلما، فتركت الصيد، وانصرفت عن أكل اللحم إلى الثمار والنسك والعبادة . فلمّا رأى ذلك وَرَشَانٌ[1] (كان صاحب تلك الغيضة وكان عيشه من الثمار) قال لها : قد كنت أظنّ أنّ الشجر عامنا هذا لم تحمل : لقلّة الماء؛ فلمّا أبصرتك تأكلينها ، وأنت آكلة اللحم ، فتركت رزقك وطعامك وما قسم الله لك ، وتحوّلت إلى رزق غيرك فانتقصته ، ودخلت عليه فيه — علمت أنّ الشجر العامَ أثمرت كما كانت تثمر قبل اليوم ؛ وإنّما أتت قلّة الثمر من جهتك . فويل للشجر وويل للثمار وويل لمن عيشه منها ! ما أسرع هلاكهم إذا دخل عليهم فى أرزاقهم، وغلبهم عليها من ليس له فيها حظ ولم يكن معتادا لأكلها ! فلمّا سمعت اللبوة ذلك من كلام الورشان تركت أكل الثمار وأقبلت على أكل الحشيش والعبادة . وإنّما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الجاهل ربما انصرف بضرّ يصيبه عن ضرّ الناس؛ كاللبوة الّتى انصرفت لما لقيت فى شبليها عن أكل اللحم ثمّ عن أكل الثمار بقول الورشان ، وأقبلت على النسك والعبادة . والناس أحقّ بحسن النظر فى ذلك : فإنّه قد قيل : مالا ترضاه لنفسك لا تصنعه لغيرك : فإن فى ذلك العدل ، وفى العدل رضا الله تعالى ورضا الناس . (انقضى باب اللبوة والأسوار والشغبر)

باب الناسك والضيف

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل . فاضرب لى مثل الّذى يدع صنعه الّذى يليق به ويشاكله ، ويطلب

---

(١) طائر وهو ساقُ حر والأنثى وَرَشَانة وجمعه وِرْشَانٌ ووراشينُ

غيره فلا يدركه : فيبقى حيران متردّدا . قال الفيلسوف : زعموا أنّه كان بأرض الكرخ ناسك عابد مجتهد . فنزل به ضيف ذات يوم، فدعا الناسك لضيفه بتمر : ليُطْرِفَه به . فأكلا منه جميعا . ثمّ قال الضيف : ما أحلى هذا التمر وأطيبه ! فليس هو في بلادى التى أسكنها ، وليته كان فيها ! ثمّ قال : أرى أن تساعدنى على أن آخذ منه ما أغرسه في أرضنا : فإنّى لست عارفا بثمار أرضكم هذه ولا بمواضعها . فقال له الناسك : ليس لك في ذلك راحة : فإنّ ذلك يثقل عليك . ولعلّ ذلك لايوافق أرضكم، مع أنّ بلادكم كثيرة الأثمار فما حاجتها مع كثرة ثمارها إلى التمر مع وخامته وقلّة موافقته للجسد ؟ ثمّ قال له الناسك : إنّه لايعدّ حكيما من طلب مالا يجد . وإنّك سعيد لجدّ إذا قنعت بالذى تجد وزهدت فيما لاتجد . وكان هذا الناسك يتكلّم بالعبرانيّة . فاستحسن الضيف كلامه وأعجبه، فتكلّف أن يتعلّمه ؛ وعالج في ذلك نفسه أياما . فقال الناسك لضيفه : ما أخلقك أن تقع ممّا تركت من كلامك، وتكلّفت من كلام العبرانيـة، في مثل ماوقع فيه الغراب ! قال الضيف : وكيف كان ذلك ؟

قال الناسك : زعموا أنّ غرابا رأى حَجَلَة تَدْرُج وتمشى ، فأعجبته مشيتها ، وطمع أن يتعلّمها . فراض على ذلك نفسه ، فلم يقدر على إحكامها ، وايس منها . وأراد أن يعود إلى مشيته التى كان عليها : فإذا هو قد اختلط وتخلّع في مشيته ، وصار أقبح الطير مشيا . وإنّما ضربت لك هذا المثل لما رأيت من أنك تركت لسانك الذى طبعت عليه ، وأقبلت على لسان العبرانيّة، وهو لايشاكلك وأخاف ألّا تدركه ،

وتنسى لسانك، وترجع إلى أهلك وأنت شرّهم لساناً: فإنّه قد قيل: إنّه يعدّ جاهلا من تكلّف من الأمور ما لا يشاكله، وليس من عمله، ولم يؤدّبه عليه آباؤه وأجداده من قبل. (انقضى باب الناسك والضيف).

باب السائح والصائغ

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل. فاضرب لي مثلا في شأن الّذي يضع المعروف في غير موضعه، ويرجو الشكر عليه. قال الفيلسوف: أيّها الملك إنّ طبائع الخلق مختلفة.. وليس ممّا خلقه الله في الدنيا ممّا يمشي على أربع أو على رجلين أو يطير بجناحين شيء هو أفضل من الإنسان؛ ولكن من الناس البرّ والفاجر. وقد يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمّة، وأشدّ محاماة على حُرَمه، وأشكر للمعروف، وأقوم به. وحينئذ يجب على ذوي العقل من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه؛ ولا يضعوه عند من لا يحتمله، ولا يقوم بشكره؛ ولا يصطنعوا أحدا إلّا بعد الخبرة بطرائقه، والمعرفة بوفائه ومودّته وشكره. ولا ينبغي أن يختصّوا بذلك قريبا لقرابته، إذا كان غير محتمل للصنيعة، ولا أن يمنعوا معروفهم ورفدهم للبعيد، إذا كان يقيهم بنفسه وما يقدر عليه: لأنّه يكون حينئذ عارفا بحقّ ما اصطنع إليه، مؤدّيا لشكر ما أنعم عليه، محمودا بالنصح، معروفا بالخير، صدوقا عارفا، مؤثرا لحميد الفعال والقول. وكذلك كلّ من عرف بالخصال المحمودة ووثق منه بها، كان للمعروف موضعا، ولتقريبه واصطناعه أهلا: فإنّ الطبيب الرفيق العاقل لا يقدر على مداواة

المريض إلّا بعد النظر إليه والجسّ لعروقه، ومعرفة طبيعته وسبب علّته، فإذا عرف ذلك كلّه حقّ معرفته أقدم على مداواته. فكذلك العاقل: لاينبغى له أن يصطفى أحدا، ولا يستخلصه إلّا بعد الخبرة: فإن من أقدم على مشهور العدالة من غير اختبار كان مخاطرا فى ذلك ومشرفا منه على هلاك وفساد. ومع ذلك ربما صنع الإنسان المعروف مع الضعيف الّذى لم يجرّب شكره، ولم يعرف حاله فى طبائعه فيقوم بشكر ذلك ويكافئ عليه أحسن المكافأة. وربما حَذِر العاقل الناس ولم يأمن على نفسه أحدا منهم. وقد يأخذ ابن عرس فيدخله فى كمه ويخرجه من الآخر كالّذى يحمل الطائر على يده، فإذا صاد شيئا انتفع به، ومطعمه منه. وقد قيل: لاينبغى لذى العقل أن يحتقر صغيرا ولا كبيرا من الناس ولا من البهائم؛ ولكنّه جدير بأن يبلوهم، ويكون مايصنع إليهم على قدر مايرى منهم. وقد مضى فى ذلك مثل ضربه بعض الحكماء. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أنّ جماعة احتفروا رَكِيّة(١) فوقع فيها رجل صائغ وحيّة وقرد وببر(٢)، ومرّ بهم رجل سائح، فأشرف على الركيّة؛ فبصر بالرجل والحية والببر والقرد. ففكّر فى نفسه، وقال: لست أعمل لآخرتى عملا أفضل من أن أخلّص هذا الرجل من بين هؤلاء الأعداء. فأخذ حبلا، وأدلاه إلى البئر فتعلق به القرد لخفّته فخرج. ثمّ دلّاه ثانية، فالتفت به الحيّة فخرجت. ثمّ دلاه الثالثة، فتعلّق به الببر فأخرجه. فشكرن له صنيعه. وقلن له: لا تخرج هذا الرجل من

(١) بئرا (٢) سبع

الركيّة : فإنّه ليس شيء أقلّ شكرا من الإنسان . ثمّ هذا الرجل خاصّة . ثمّ قال له القرد : إنّ منزلى فى جبل قريب من مدينة يقال لها : نَوادِرَخْتُ . فقال له الببر : أنا أيضا فى أجمة إلى جانب تلك المدينة . قالت الحيّة : أنا أيضا فى سور تلك المدينة . فإن أنت مررت بنا يوما من الدهر ، واحتجت إلينا فصوّت علينا حتّى نأتيك فنجزيك بما أسديت إلينا من المعروف . فلم يلتفت السائح إلى ماذكروا له من قلّة شكر الإنسان ، وأدلى الحبل ، فأخرج الصائغ ، فسجد له ، وقال له : لقد أوليتنى معروفا . فإن أتيت يوما من الدهر بمدينة نَوَادِرَخْت فاسأل عن منزلى : فأنا رجل صائغ لعلّى أكافئك بما صنعت إلىّ من المعروف . فانطلق الصائغ إلى مدينته وانطلق السائح إلى جانبه . فعرض بعد ذلك أنّ السائح اتّفقت له حاجة إلى تلك المدينة ، فانطلق ، فاستقبله القرد ، فسجد له وقبّل رجليه . واعتذر إليه ، وقال : إنّ القرود لا يملكون شيئا ، ولكن أقعد حتّى آتيك . وانطلق القرد ، وأتاه بفاكهة طيّبة ، فوضعها بين يديه ، فأكل منها حاجته . ثمّ إنّ السائح انطلق حتّى دنا من باب المدينة ، فاستقبله الببر ، فخرّ له ساجدا : وقال له : إنّك قد اوليتنى معروفا . فاطمئنّ ساعة حتّى آتيك . فانطلق الببر فدخل فى بعض الحيطان[1] إلى بنت الملك فقتلها ، وأخذ حليّها ، فأتاه به ، من غير أن يعلم السائح من أين هو . فقال فى نفسه : هذه البهائم قد أولتنى هذا الجزاء ، فكيف لو قد أتيت إلى الصائغ فإنّه إن كان معسرا لا يملك شيئا

(١) البساتين

فسيبيع هذا الحلى فيستوفى ثمنه، فيعطينى بعضه، ويأخذ بعضه؛ وهو أعرف بثمنه. فانطلق السائح، فأتى إلى الصائغ، فلمّا رآه رحب به وأدخله إلى بيته. فلمّا بصر بالحلىّ معه، عرفه وكان هو الّذى صاغه لابنة الملك. فقال للسائح: اطمئنّ حتّى آتيك بطعام فلست أرضى لك ما فى البيت. ثمّ خرج وهو يقول: قد أصبت فرصتى: أريد أن أنطلق إلى الملك وأدله على ذلك، فتحسن منزلتى عنده. فانطلق إلى باب الملك، فأرسل إليه: إن الذى قتل ابنتك وأخذ حليها عندى. فأرسل الملك وأتى بالسائح. فلمّا نظر الحلىّ معه لم يمهله، وأمر به أن يعذّب ويطاف به فى المدينة، ويصلب. فلمّا فعلوا به ذلك جعل السائح يبكى ويقول بأعلى صوته: لو أنّى أطعت القرد والحيّة والببر فيما أمرنى به وأخبرنى من قلّة شكر الإنسان لم يصر أمرى إلى هذا البلاء، وجعل يكرر هذا القول. فسمعت مقالته تلك الحيّة، فخرجت من جحرها فعرفته، فاشتدّ عليها أمره، فجعلت تحتال فى خلاصه. فانطلقت حتّى لدغت ابن الملك، فدعا الملك أهل العلم فرقوه ليشفوه فلم يغنوا عنه شيئا. ثمّ مضت الحيّة إلى اخت لها من الجنّ، فأخبرتها بما صنع السائح إليها من المعروف، وما وقع فيه. فرقّت له، وانطلقت إلى ابن الملك، وتخايلت له. وقالت له: إنّك لا تبرأ حتّى يرقيك هذا الرجل الّذى قد عاقبتموه ظلما. وانطلقت الحيّة إلى السائح، فدخلت عليه السجن، وقالت له: هذا الذى كنت نهيتك عنه من اصطناع المعروف إلى هذا الإنسان، ولم تطعنى. وأتته بورق ينفع من سمها. وقالت له: إذا جاءوا بك لترقى ابن الملك فاسقه من ماء هذا الورق: فإنّه يبرأ.

وإذا سألك الملك عن حالك فاصدقه : فإنّك تنجو إن شاء الله تعالى . وإنّ ابن الملك أخبر الملك أنّه سمع قائلا يقول : إنّك لن تبرأ حتّى يرقيك هذا السائح الّذى حبس ظلما . فدعا الملك بالسائح، وأمره أن يرقى ولده . فقال : لا أحسن الرقى، ولكن أسقيه من ماء هذه الشجرة فيبرأ باذن الله تعالى . فسقاه فبرئ الغلام . ففرح الملك بذلك : وسأله عن قصّته، فأخبره. فشكره الملك، وأعطاه عطيّة حسنة، وأمر بالصائغ أن يصلب ، فصلبوه لكذبه وانحرافه عن الشكر ومجازاته الفعل الجميل بالقبيح . ثمّ قال الفيلسوف للملك : ففى صنيع الصائغ بالسائح، وكفره له بعد استنقاذه إيّاه، وشكر البهائم له ، وتخليص بعضها إيّاه، عبرةٌ لمن اعتبر ، وفكرة لمن تفكّر، وأدب فى وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم، قربوا أو بعدوا : لما فى ذلك من صواب الرأى وجلب الخير وصرف المكروه (انقضى باب السائح والصائغ)

باب ابن الملك وأصحابه

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل . فإن كان الرجل لا يصيب الخير إلّا بعقله ورأيه وتثبّته فى الأمور كما يزعمون، فما بال الرجل الجاهل يصيب الرفعة والخير، والرجل الحكيم العاقل قد يصيب البلاء والضرّ ؟ . قال بيدبا : كما أنّ الإنسان لا يبصر إلّا بعينيه ولا يسمع إلّا بأذنيه، كذلك العمل، إنّما هو بالحلم والعقل والتثبّت؛ غير أنّ القضاء والقدر يغلبان على ذلك . ومثل ذلك مثل ابن الملك وأصحابه . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف : زعموا أنّ أربعة نفر اصطحبوا فى طريق واحدة، أحدهم ابن ملك والثانى ابن تاجر والثالث ابن شريف ذو جمال والرابع ابن أكّار[1] . وكانوا جميعا محتاجين ، وقد أصابهم ضرر وجهد شديد فى موضع غربة لا يملكون إلّا ماعليهم من الثياب . فبينما هم يمشون إذ فكروا فى أمرهم ، وكان كلّ إنسان منهم راجعا إلى طباعه وما كان يأتيه منه الخير : قال ابن الملك : إنّ أمر الدنيا كلّه بالقضاء والقدر، والّذى قدّر على الإنسان يأتيه على كل حال ؛ والصبر للقضاء والقدر وانتظارهما أفضل الأمور . وقال ابن التاجر : العقل أفضل من كلّ شىء . وقال ابن الشريف : الجمال أفضل ممّا ذكرتم . ثمّ قال ابن الأكّار : ليس فى الدنيا أفضل من الاجتهاد فى العمل . فلمّا قربوا من مدينة يقال لها مَطْرُون ، جلسوا فى ناحية منها يتشاورون : فقالوا لابن الأكّار : انطلق فاكتسب لنا باجتهادك طعاما ليومنا هذا . فانطلق ابن الاكّار، وسأل عن عمل إذا عمله الإنسان يكتسب فيه طعام أربعة نفر فعرّفوه أنّه ليس فى تلك المدينة شىء أعزّ من الحطب ؛ وكان الحطب منها على فرسخ . فانطلق ابن الأكّار فاحتطب طُنًّا[2] من الحطب ،وأتى به المدينة فباعه بدرهم واشترى به طعاما وكتب على باب المدينة : عمل يوم واحد إذا أجهد فيه الرجل بدنه قيمته درهم . ثم انطلق إلى أصحابه بالطعام فأكلوا . فلمّا كان من الغد : قالوا ينبغى للذى قال إنّه ليس شىء أعزّ من الجمال أن تكون نوبته . فانطلق ابن الشريف ليأتى المدينة ، ففكر فى نفسه

(١) الأكّار الحرّاث وجمعه أكَرة كأنه جمع آكر (٢) حزمة

وقال : أنا لست أحسن عملا فما يدخلنى المدينة ؟ ثمّ استحيا أن يرجع إلى أصحابه بغير طعام، وهمّ بمفارقتهم . فانطلق حتى أسند ظهره إلى شجرة عظيمة، فغلبه النوم فنام . فمرّ به رجل من عظماء المدينة فراقه جماله وتوسّم فيه شرف النِّجار[1] فرقّ له ومنحه خمسمائة درهم . فكتب على باب المدينة : جمال يوم واحد يساوى خمسمائة درهم . وأتى بالدراهم إلى أصحابه . فلمّا أصبحوا فى اليوم الثالث، قالوا لابن التاجر : انطلق أنت فاطلب لنا بعقلك وتجارتك ليومنا هذا شيئا . فانطلق ابن التاجر فلم يزل حتّى بصر بسفينة من سفن البحر كثيرة المتاع قد قدمت إلى الساحل ، فخرج إليها جماعة من التجار يريدون أن يبتاعوا ممّا فيها من المتاع . فجلسوا يتشاورون فى ناحية من المركب، وقال بعضهم لبعض : ارجعوا يومنا هذا لا نشترى منهم شيئا حتّى يَكْسُدَ المتاع عليهم فَيُرْخِصُوه علينا ، مع أنّنا محتاجون إليه، وسيرخص . فخالف الطريق وجاء إلى أصحاب المركب، فابتاع منهم ما فيه بمائة ألف دينار نسيئة[2] وأظهر أنه يريد أن ينقل متاعه إلى مدينة أخرى . فلمّا سمع التجار ذلك خافوا أن يذهب ذلك المتاع من أيديهم، فأربحوه على ما اشتراه مائة ألف درهم ، وأحال[3] عليهم أصحاب المركب بالباقى ، وحمل ربحه إلى أصحابه وكتب على باب المدينة : عقل يوم واحد ثمنه مائة ألف درهم . فلما كان اليوم الرابع قالوا لابن الملك : انطلق أنت واكتسب لنا بقضائك وقدرك . فانطلق ابن الملك حتّى أتى إلى باب المدينة فجلس على متكأ فى باب المدينة ، واتّفق أنّ ملك تلك

(١) الأصل (٢) الى أجل (٣) أى فأخذ مائة ألف درهم وأحال الخ .

*

الناحية مات ولم يخلف ولدا ولا أحدا ذا قرابة . فمرّوا عليه بجنازة الملك ولم يحزنه وكلهم يحزنون . فأنكروا حاله وشتمه البوّاب، وقال له : من أنت ياهذا ؟ وما يجلسك على باب المدينة ولا نراك تحزن لموت الملك ؟ وطرده البوّاب عن الباب . فلمّا ذهبوا عاد الغلام فجلس مكانه . فلمّا دفنوا الملك ورجعوا بصربه البوّاب فغضب وقال له : ألم أنهك عن الجلوس فى هذا الموضع ؟ وأخذه فحبسه . فلمّا كان الغد اجتمع أهل تلك المدينة يتشاورون فيمن يملّكونه عليهم ، وكلّ منهم يتطاول ينظر صاحبه ، ويختلفون بينهم . فقال لهم البوّاب : إنى رأيت أمس غلاما جالسا على الباب ، ولم أره يحزن لحزننا ، فكلّمته فلم يجبنى ، فطردته عن الباب . فلمّا عدت رأيته جالسا ، فأدخلته السجن مخافة أن يكون عينا . فبعث أشراف أهل المدينة إلى الغلام فجاءوا به ، وسألوه عن حاله ، وما أقدمه إلى مدينتهم . فقال : أنا ابن ملك فويران ، وإنه لمّا مات والدى غلبنى أخى على الملك ، فهربت من يده حذرا على نفسى حتى انتهيت إلى هذه الغاية . فلمّا ذكر الغلام ماذكر من أمره عرفه من كان يغشى أرض أبيه منهم ، وأثنوا على أبيه خيرا . ثمّ إنّ الأشراف اختاروا الغلام أن يملّكوه عليهم ورضوا به . وكان لأهل تلك المدينة سنّة إذا ملّكوا عليهم ملكا حملوه على فيل أبيض ، وطافوا به حَوَالَى المدينة . فلمّا فعلوا به ذلك مرّ بباب المدينة فرأى الكتابة على الباب فأمر أن يكتب : إنّ الاجتهاد والجمال والعقل وما أصاب الرجل فى الدنيا من خير أو شر إنّما هو بقضاء وقدر من الله عز وجل . وقد ازددت فى ذلك اعتبارا بما ساق الله إلىّ من الكرامة والخير .

ثم انطلق إلى مجلسه فجلس على سرير ملكه وأرسل إلى أصحابه الّذين كان معهم فأحضرهم ، فأشرك صاحب العقل مع الوزراء ، وضم صاحب الاجتهاد إلى أصحاب الزرع ، وأمر لصاحب الجمال بمال كثير ثمّ نفاه كى لايُفْتَتَنَ به . ثمّ جمع علماء أرضه وذوى الرأى منهم وقال لهم : أمّا أصحابى فقد تيقّنوا أنّ الّذى رزقهم الله سبحانه وتعالى من الخير إنّما هو بقضاء الله وقدره ؛ وإنّما أحبّ أن تعلموا ذلك وتستيقنوه ؛ فإنّ الّذى منحنى الله وهيّأه لى إنّما كان بقَدَر ، ولم يكن بجمال ولا عقل ولا اجتهاد . وما كنت أرجو إذ طردنى أخى أن يصيبنى ما يعيشنى من القوت فضلا عن أن أصيب هذه المنزلة ؛ وما كنت أؤمّل أن أكون بها : لأنّى قد رأيت فى هذه الأرض من هو أفضل منّى حسنا وجمالا ، وأشدّ اجتهادا وأسَدُّ رأيا ، فساقنى القضاء إلى ان اعتززت بقدر من الله ، وكان فى ذلك الجمع شيخ فنهض حتّى استوى قائما ، وقال : إنّك قد تكلّمت بكلام كامل عقل وحكمة ، وإنّ الّذى بلغ بك ذلك وفور عقلك وحسن ظنك ؛ وقد حقّقت ظننا فيك ورجاءنا لك . وقد عرفنا ماذكرت ، وصدّقناك فيما وصفت . والّذى ساق الله إليك من الملك والكرامة كنت أهلا له ، لما قسم الله تعالى لك من العقل والرأى . وإنّ أسعد الناس فى الدنيا والآخرة من رزقه الله رأيا وعقلا . وقد أحسن الله إلينا إذ وفّقك لنا عند موت ملكنا وكرّمنا بك . ثمّ قام شيخ آخر سائح فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه وقال : إنّى كنت أخدم وأنا غلام قبل أن أكون سائحا رجلا من أشراف الناس . فلمّا بدالى رفض الدنيا فارقت ذلك الرجل ،

وقد كان أعطانى من أجرتى دينارين، فأردت أن أتصدّق بأحدهما، وأستبقى الآخر؛ فأتيت السوق، فوجدت مع رجل من الصيّادين زوج هدهد، فساومته فيهما فأبى الصيّاد أن يبيعهما إلّا بدينارين؛ فاجتهدت أن يبيعنيهما بدينار واحد فأبى. فقلت فى نفسى : أشترى أحدهما وأترك الآخر. ثمّ فكرت وقلت لعلهما يكونان زوجين ذكرا وأنثى فأفرق بينهما، فأدركنى لهما رحمة فتوكّلت على الله وابتعتهما بدينارين، وأشفقت إن ارسلتهما فى أرض عامرة أن يصادا، ولا يستطيعا أن يطيرا مما لقيا من الجوع والهُزَال، ولم آمن عليهما الآفات. فانطلقت بهما إلى مكان كثير المرعى والأشجار بعيد عن الناس والعُمْران، فأرسلتهما؛ فطارا ووقعا على شجرة مثمرة. فلمّا صارا فى أعلاها شكرا لى، وسمعت أحدهما يقول للآخر: لقد خلّصنا هذا السائح من البلاء الّذى كنّا فيه، واستنقذنا ونجّانا من الهَلَكَة. وإنّا لخليقان أن نكافئه بفعله. وإنّ فى أصل هذه الشجرة جرّة مملوءة دنانير. أفلا ندلّه عليها فيأخذها؟ فقلت لهما : كيف تدلّانى على كنز لم تره العيون وأنتما لم تبصرا الشبكة؟ فقالا : إنّ القضاء إذا نزل صرف العيون عن موضع الشيء وغشى البصر. وإنّما صرف القضاء أعيننا عن الشرك ولم يصرفها عن هذا الكنز. فاحتفرت واستخرجت البَرْنِيّةَ[1] وهى مملوءة دنانير، فدعوت لهما بالعافية، وقلت لهما : الحمد لله الّذى علّمكما مالم تعلما، وأنتما تطيران فى السماء، وأخبرتما بما تحت الأرض. فقالا لى : أيّها العاقل، أما تعلم أنّ القدر غالب على كلّ

(١) إناء من خزف

شيء، لا يستطيع احد أن يتجاوزه . وأنا أخبر الملك بذلك الذى رأيته : فإنْ أمر الملك أتيته بالمال فأودعته فى خزائنه . فقال الملك ذلك لك، وموفّر عليك (انتهى باب ابن الملك وأصحابه)

باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين

وهو باب من يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه . قال الملك للفيلسوف : قد سمعت هذا المثل فاضرب لى مثلا فى شأن الرجل الّذى يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه . قال الفيلسوف : إنّ مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين . قال الملك : وما مثلهن ؟

قال الفيلسوف : زعموا أنّ حمامة كانت تفرخ فى رأس نخلة طويله ذاهبة فى السماء، فكانت الحمامة تشرع فى نقل العشّ إلى رأس تلك النخلة، فلا يمكن أن تنقل ماتنقل من العشّ وتجعله تحت البيض إلّا بعد شدّة وتعب ومشقّة : لطول النخلة وسحقها؛ فإذا فرغت من النقل باضت ثمّ حضنت بيضها، فإذا فقست وأدرك فراخها جاءها ثعلب قد تعاهد ذلك منها لوقت قد علمه بقدر ماينهض فراخها، فيقف بأصل النخلة فيصيح بها ويتوعّدها أن يرقى إليها فتلقى إليه فراخها . فبينما هى ذات يوم قد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة . فلمّا رأى الحمامة كئيبة حزينة شديدة الهمّ قال لها مالك الحزين : ياحمامة، مالى أراك كاسفة اللون سيئة الحال ؟ فقالت له : يامالك الحزين، إنّ ثعلبا دهيت به كلما كان لى فرخان جاءنى يهدّدنى ويصيح فى أصل النخلة، فأفرق منه فأطرح إليه

فرخىّ . قال لها مالك الحزين : إذا أتاك ليفعل ماتقولين فقولى له : لا ألقى إليك فرخىّ ، فارق إلىّ وغرّر بنفسك ، فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخىّ ، طرت عنك ونجوت بنفسى . فلمّا علّمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شاطئ نهر . فأقبل الثعلب فى الوقت الذى عرف ، فوقف تحتها ، ثمّ صاح كما كان يفعل . فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين . فقال لها الثعلب : أخبرينى من علمك هذا ؟ قالت : علّمنى مالك الحزين . فتوجّه الثعلب حتّى أتى مالكا الحزين على شاطئ النهر ، فوجده واقفا . فقال له الثعلب : يامالك الحزين : إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك؟ قال : عن شمالى . قال : فإذا أتتك عن شمالك فأين تجعل رأسك ؟ قال : أجعله عن يمينى أو خلفى . قال : فإذا أتتك الريح من كلّ مكان وكلّ ناحية فأين تجعله ؟ قال . أجعله تحت جناحى . قال : وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك ؟ ما أراه يتهيأ لك . قال : بلى : قال : فأرنى كيف تصنع ؟ فلعمرى يامعشر الطير لقد فضّلكم الله علينا . إنكنّ تدرين فى ساعة واحدة مثل ماندرى فى سنة ، وتبلغن ما لا نبلغ ، وتدخلن رءوسكنّ تحت أجنحتكنّ من البرد والريح . فهنيئا لكنّ . فأرنى كيف تصنع . فأدخل الطائر رأسه تحت جناحه ، فوثب عليه الثعلب مكانه فأخذه فهمزه همزة دقّت عنقه . ثمّ قال : ياعدوّ نفسه ، ترى الرأى للحمامة ، وتعلّمها الحيلة لنفسها ، وتعجز عن ذلك لنفسك ، حتّى يستمكن منك عدوّك ، ثمّ أجهز عليه وأكله .

فلمّا انتهى المنطق للملك والفيلسوف إلى هذا المكان سكت الملك .

فقال له الفيلسوف : أيّها الملك ، عشت ألف سنة ، وملكت الأقاليم السبعة ، وأعطيت من كلّ شيء سببا ، مع وفور سرورك وقرّة عين رعيتك بك ، ومساعدة القضاء والقدر لك ، فإنّه قد كَمَلَ فيك الحلم والعلم ، وزكا منك العقل والقول والنية ؛ فلا يوجد فى رأيك نقص ، ولا فى قولك سَقَط ولا عيب . وقد جمعت النجدة واللين ، فلا توجد جبانا عند اللقاء ، ولا ضيّق الصدر عند ما ينوبك من الاشياء . وقد جمعت لك فى هذا الكتاب شمل بيان الأمور ، وشرحت لك جواب ماسألتنى عنه منها ، فأبلغتك فى ذلك غاية نصحى ، واجتهدت فيه برأيى ونظرى ومبلغ فطنتى ، التماسا لقضاء حقّك وحسن النية منك بإعمال الفكرة والعقل . فجاء كما وصفت لك من النصيحة والموعظة ، مع أنّه ليس الآمر بالخير بأسعد من المطيع له فيه ، ولا الناصح بأولى بالنصيحة من المنصوح ، ولا المعلّم للخير بأسعد من متعلّمه منه . فافهم ذلك أيّها الملك ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلىّ العظيم

انتهى

(المطبعة الاميرية ٧٢٣ س و ٧٦٥٥ ض ١٩٢٤/١٢١٠٠)

